قلائد الزبرجد

على

حكم مولانا الغوث الرفاعي أحمد

تأليف

الشيخ أبي الهدى محمد بن حسن وادي بن علي بن خزام
الصيادي الرفاعي الحسيني
المتوفى ١٣٢٨ هـ

تحقيق وتخريج وتعليق

أحمد فريد المزيدي

DKI
دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Title: QALĀ'ID AL-ZABARJAD ʿALĀ ḤIKAM MAWLĀNĀ AL-ĠAWṮ AL-RIFĀʿI AḤMAD

Author: Al-šayḫ Abū al-Hudā al-Ṣayyādi

Editor: Aḥmad Farīd al-Miziyadi

Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah

Pages: 288

Year: 2007

Printed in: Lebanon

Edition: 1st

الكتاب: قلائد الزبرجد
على حكم مولانا الغوث الرفاعي أحمد

المؤلف: الشيخ أبو الهدى الصيادي الرفاعي

المحقق: أحمد فريد المزيدي

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

عدد الصفحات: 288

سنة الطباعة: 2007 م

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الأولى

ISBN 2-7451-5400-1 (10 digits)
ISBN 978-2-7451-5400-2 (13 digits)
9 782745 154002 90000

الطبعة الأولى
٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة: رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.

هاتف: ١٢ / ١١ / ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

حمدًا لمن أطلع شموس أسراره في سماء سنائه إرشادًا لأوليائه وأشرق بدور أسمائه من عرش رحمته على فرش حكمته إشهادًا لأصفيائه، فوضعوا الأحزاب الجامعة للفوائد، ورتبوا الأوراد الحالية للخرائد، فسكن بها أتباعه قصور قبابه وستور أحبابه، أحمده على ما أظهر من حقائق لموارف المعارف، وأشكره على ما أوضح من طريق صوارف المصارف، حمد من شرب من مشارب أهل الصفا، وشكر من طرب على مآرب آل الوفاء، فجنى ثمرات الأدوية العرشية من شجرات الأودية الفرشية لأطباء روحانية وحكماء رحمانية، يُداون بجواهر الأدعية المستجابة، ويُعالجون بفواخر الأدوية المستطابة من مجربات فواتح آياتها شافية، ومركبات فوائح دلالاتها كافية.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لمبدأ خُشَّى كأس المحبة من لجج بحر القربة فوحد وما ألحد، وكان في كل مقام مفرد.

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده المصطفى، وحبيبه المجتبى الذي أفرغت عليه حلة الشهود في حضرة الوجود، صلى الله عليه وعلى جميع الآل والأصحاب والعشيرة والأحزاب، ما هبّت نسمات الألطاف الإلهية في الأسحار على التالين للأوراد والأذكار، وأمطرت عليهم سحائب الأنوار، درر الأسرار صلاة وسلامًا دائمين متلازمين بدوام رحمة الله في دار القرار.

أما بعد.

فعلم التصوف من أجل العلوم قدرًا، وأعظمها محلا وفخرًا، وأسناها شمسًا وفجرًا وبدرًا، وكيف لا وهو لباب الشريعة، ومنهاج الطريقة، ومنه تشرق أنوار الحقيقة، وكان أعظم ما صنف فيه الحكم الصوفية، التي هي مواهب لدنية، وأسرار ربّانيّة، نطقت بها أفكار قدوسية، وأسرار جبروتية.

ومن هذه الحكم: حكم سيدي ومولاي الغوث الرباني: أحمد الرفاعي قدس الله سره.

كان كلامه كله حكمة، فهو شيخ السادة الصوفية، والتصوف أساسه الحكمة والإحكام.

فانظر أقواله ترى حُسنًا، وبيانًا، وحكمة في القول وإلهامًا، فمن كلامه البديع:

وكان يقول: الزهد أساس الأحوال المرضية والمراتب السنية، وهو أول قدم الصادقين إلى الله ﷻ، والمنقطعين إلى الله، والراضين عن الله، والمتوكلين على الله، فمن لم يحكم أساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده.

وكان يقول: الأنس بالله لا يكون إلا لعبدٍ قد كملت طهارته، موصفًا ذكره، واستوحش من كل ما يشغله عن الله تعالى، فعند ذلك آنسه الله به، وأورده بحر حقائق الأنس، فأخذ عن وجدٍ طعم الخوف لما سواه.

وكان يقول: لو تكلّم الرجل في الذات والصفات كان سكوته أفضل، ولو خطا من قافٍ إلى قافٍ كان جلوسه أفضل.

وكان يقول: لما مررت وأنا صغيرٌ بالشيخ عبد الملك الخرنوبي أوصاني وقال لي: يا أحمد احفظ ما أقول لك، فقلت: نعم، فقال: ملتفت لا يصل، ومتكسّل لا يصلح، ومن لم يعرف من نفسه بالنقصان فكل أوقاته نقصان، فجعلت أكرّرها سنة، ثم رجعت إليه فقلت: أوصني، فقال: ما أقبح الجهل بالألباء، والعلة بالأطباء، والجفاء بالأحباء، ثم خرجت وجعلت أردّدها سنة، فانتفعت بموعظته.

وكان يقول: الشفقة مما يقرب إلى الله.

وكان يقول: أخوك الذي يحل لك أكل ماله بغير إذنه هو الذي تسكن نفسك إليه، ويستريح قلبك.

وكان يقول: إذا صلح القلب صار مهبط الوحي والأسرار والأنوار والملائكة، وإذا فسد صار مهبط الظلم والشياطين، وإذا صلح القلبِ أخبرك عمّا وراءك وأمامك، ونبّهك على أمورٍ لم تكن تعلمها بشيءٍ دونه، وإذا فسد حالك بباطلات يغيب عنها الرشد وينتفي معها السعد.

وكان يقول: الصدقة أفضل من العبادات البدنية والنوافل.

وكان يقول: من شرط الفقير أن يرى كل نفسٍ من أنفاسه أعزّ من الكبريت الأحمر، فيودع كل نفسٍ أعزّ ما يصلح له، فلا يضيع له نفسٌ.

وكان يقول: السفر للفقير يمزّق دينه ويشتت شمله.

وكان يقول: من لم ينتفع بأفعالي لم ينتفع بأقوالي.

وكان يقول: كل أخٍ لا ينفع في الدنيا لا ينفع في الآخرة.

وكان يقول: إذا تعلّم أحدكم شيئًا من الخير فليعلّمه للناس يثمر له الخير.

وكان يقول: طريقنا مبنية على ثلاثة أشياء: لا نسأل، ولا نرد، ولا ندّخر.

وكان يقول: ما من ليلةٍ إلاّ وينـــزل فيها نثار من السماء إلى الأرض، يغرق على المستيقظين.

وكان يقول: والله ما رأيت الخير إلا في الوحدة، فيا ليتني لم أعرف أحدًا و لم يعرفني أحدٌ.

وكان يقول: ما نظر أحدٌ إلى الخلائق، ووقف مع نظرهم له في العبادات إلا سقط من عين رعاية الله ﷻ؛ فإن الحق سبحانه وتعالى غيور.

وكان يقول: من شرط الفقير ألا يكون له نظر في عيوب الناس.

وكان يقول: وعدني ربي أن أعير ولا عليَّ شيء من لحم الدنيا.

وكان يقول: اللَّهُمَّ اجعلنا ممن فرشوا على بابك لفرط ذلهم نواعم الخدود، مُنَكِّسُوا رؤوسهم من الخجل، وجباههم للسجود، ببركة صاحب اللواء المحمود، والحوض المورود آمين.

وسمع رجلاً يقول: إن لله خمسة آلاف اسم، فقال: إن لله سبحانه وتعالى أسماء بعدد ما خلق من الرمال والأوراق وغيرها.

فانظر ما هذا النطق النوري، والإمداد الرباني، والفيض القدسي، من حضرة الذات المحمدي.

فحكم الشيخ من الحكم المعتبرة الجليلة عند السادة الصوفية، وإن لم يشرحها كثير من أهل العلم، مثل حكم سيدي ابن عطاء الله ، وغيرها من الحكم.

فهذا مرادهم: من يؤذن له بشرح وفهم ومعرفة كلامهم قدس الله أسرارهم.

وكان الفضل الجزيل من الله الهادي أن يشرحها العلامة الكبير الصيادي، فيتحفنا بأنوار أسرار معاني هذه الحكم، ويفصح عما أغمض من خبيئة المباني.

وأذكر لك أيها القارئ الكريم القليل من نصوص الحكم وشروحها والله الموفق:

- أنس الوحيد ونزهة المريد للغوث أبي مدين.
- البيان والمزيد المشتمل على معاني التنـــزيه وحقائق التوحيد على أنس الوحيد ونزهة المريد، للشيخ أحمد بن عبد القادر باعشن[١].
- وشرح حكم سيدي أبي مدين لابن علان الصديقي البكري[٢].
- والمواد الغيثية شرح الحكم الغوثية للشيخ عليوه[٣].
- والغرر البهية في الحكم الإلهية لسيدي مصطفى البكرى[٤].
- شرح الحكم والوصايا البكرية للشيخ الشرقاوي[٥].
- حكم الشيخ الأكبر قدس سره.
- شرح الحكم الأكبرية للشيخ الكردي[٦].
- روح الكبريت الأحمر عن حكم الشيخ الأكبر للداموني[٧].
- الحكم الكردية.

---

(١) طبع بتحقيقنا.

(٢) تحت قيد الطبع.

(٣) تحت قيد التحقيق.

(٤) طبع بتحقيقنا.

(٥) طبع بتحقيقنا.

(٦) طبع بتحقيقنا.

(٧) طبع بتحقيقنا.

- شرح الحكم الكردية لسيدي عبد الله الشرقاوي[١].
- إحياء القلوب شرح الحكم الكردية للشيخ الرافعي[٢].
- الحكم العطائية.
- شرح الحكم العطائية للشيخ المواهبي.
- إحكام الحكم شرح الحكم العطائية لأبي المواهب[٣].
- شرح الحكم العطائية للشيخ البيومي[٤].
- شرح الحكم العطائية للشيخ الشرقاوي[٥].
- لإيقاظ الهمم شرح الحكم للشيخ ابن عجيبة.
- غيث المواهب شرح الحكم للشيخ ابن عباد النفري.
- شرح ابن الحنبلي.
- شرح الفارسي.
- الدرر الجوهرية على الحكم العطائية للمناوي.
- شرح الحكم للشرنوبي.
- شرح الحكم العطائية لابن المطرز.
- الواردات الأويسية على الحكم العطائية.
- تلخيص الحكم لنور الدين عبد الجبار.
- كتاب الحكم المسمى بالنفس الرحماني للشيخ أحمد الطيب.

---

(١) طبع بتحقيقنا.
(٢) طبع بتحقيقنا، دار الكتب العلمية.
(٣) تحت قيد التحقيق.
(٤) تحت قيد التحقيق.
(٥) تحت قيد التحقيق.

- درر الكلم وغرر الحكم للسيوطي.
- الأمثال والحكم للرازي.
- الأمثال والحكم للماوردي.
- الأمثال والحكم لليوسي.
- ذخائر الحكم لعلي بن زيد البيهقي.
- لطائف الحكم للنيسابوري.
- يواقيت الحكم لسيدي عبد القادر الجيلاني.
- الحكم للشيخ الكتاني(١).
- جوامع الكلم ولوامع الحكم لابن النجار.
- جواهر الحكم للثعالبي.
- حكم بابا طاهر.
- الحكم المهدوية للشيخ الرواس(٢).
- الحكم للشيخ النفري.
- وهذا وما هو إلا شعاع من نور، وقطرة من بحر، فأهل الله فيوضاتهم لا تحصى، وعلمهم لدني لا انقطاع له.
- نسأل الله أن يمدنا ببركة سيدنا ومولانا محمد وصلى اللهم وسلم عليه وآله وصحبه وسلم.

(١) يسر الله لنا تحقيقها.

(٢) طبعت بتحقيقنا، بدار الكتب العلمية بيروت.

ترجمة المصنف

قال الشيخ أبو الهدى: هذه ترجمة سيدنا المؤلف ﷺ أوردتها مختصرة لينتفع بها المطالع، ولا يملها القارئ ولا السامع، نظمتها من أقوال أئمة الرجال، وجعلت سهمي منها حسن التأليف والربط بين الكلمات والأقوال.

قال الإمام سلطان المحدثين، شيخ المشايخ أبو العباس عز الدين أحمد الفاروقي الواسطي في كتابه النفحة المسكية، حين سُئل عن العائلة الرفاعية ما نصَّه:

فليعلم أن رأس هذه العصابة الرفاعية، وجد هذه الذرية الأحمدية، شيخ المشايخ، الجبل الراسخ، صاحب المناقب العظيمة، والمآثر الكريمة، تاج أهل القبول، المشرَّف بتقبيل يد الرسول، أبو العلمين، غوث الثقلين، من ثبتت كراماته بالتواتر في المشرقين والمغربين، الخاشع الخاضع، والشريف المتواضع، مُلجئنا، ومفزعنا وشيخنا، السيد الشيخ أحمد أبو العباس الكبير الرفاعي الحسيني ﷺ.

وُلد ﷺ في أم عبيدة في دار جده لأمه، شيخ شيوخ زمانه سيدنا الشيخ أبو سعيد يحيى النجاري الأنصاري، في سنة اثني عشر وخمسمائة من صلب شيخ القُرَّاء والمحدثين، وسلطان الزاهدين، إمام العارفين، السيد علي أبي الحسن بن يحيى المكّي، ويُقال له المغربي، ويحيى هذا ﷺ أول قادم من هذه العصابة إلى العراق، وصل البصرة في عام خمسين وأربعمائة، واشتهر فيها بالزهد والمعرفة والصلاة. وعكفت عليه القلوب.

ثم بعد مدة تزوج بالأصيلة الحسيبة علمًا الأنصارية، بنت المولى الجليل الحسن أبي سعيد النجاري، والد الشيخ أبي سعيد النجاري، فأولدها سيدنا السيد علي أبي الحسن والد السيد أحمد الكبير رضي الله عنهما.

فلما كبر قدم البطائح وسكن أم عبيدة، وتزوج ببنت خاله السيدة فاطمة بنت الشيخ الإمام يحيى النجاري ﷺ، فأولدها سيدنا السيد أحمد الكبير، والسيد عثمان، والسيد إسماعيل، والسيدة ست النسب، إلى أن قال بعد تحقيقات شريفة.

وقد تقدم أن السيد أحمد ﷺ ابن السيد أبي الحسن علي بن يحيى، ويحيى هذا ابن

الثابت ابن الحازم بن أحمد بن علي المعروف بابن رفاعة الهاشمي المكي، ابن الحسن الملقب برفاعة، وإليه ينتمي بطن بني رفاعة.

هؤلاء كما ذكرهم صاحب الترياق مفتي الثقلين تقي الدين ابن عبد المنعم الواسطي.

والحسن رفاعة المكي المذكور، هو نزيل المغرب، هاجر من مكة إلى المغرب سنة سبع عشرة وثلاثمائة، وهي السنة التي قتل فيها ابن المحارب أمير مكة وأصحابه، وحصل ما حصل من القرمطي عليه اللّعنة في بيت الله من الهدم والنّهب والقتل.

وفي هذه السنة هاجر كثير من الأشراف إلى البلاد السائرة، وكان ممن هاجر بأهله وبني عمه إلى اليمن محمد بن عيسى من آل علي العريض الحسيني، ومنهم من هاجر إلى نيسابور، والعجم، والهند، والتحق رفاعة ﷺ بقبيلة من قبائل العرب بالقرب من إشبلية، وعظّمه ملوك المغرب، وانقاد إليه أعيانها وعلماؤها، وكَبُر أمره، واشتهر ذكره، وبقيت ذريته في المغرب إلى عهد يحيى بن الثابت جد سيدنا السيد أحمد.

قال في الترياق: ولهم بقية في المغرب، وأن رفاعة الحسن المكي هذا ابن المهدي بن أبي القاسم محمد بن الحسن بن الحسين أحمد بن موسى الثاني، ويُقال له: الأصغر بن إبراهيم المرتضي ابن الإمام علم الإسلام موسى الكاظم، ابن الإمام جعفر الصادق، ابن الإمام الهمام محمد الباقر، ابن الهمام زين العابدين علي الأصغر المعروف بالسجاد، ابن الإمام المظلوم الشهيد السعيد السبط الأعظم أبي عبد الله الحسين الشهيد بكربلاء، ابن الإمام الأعظم مقتضي العرب والعجم، الهزبر الغالب باب مدينة العلوم، أسد الله علي بن أبي طالب كرّم الله تعالى وجهه ورضي عنه وعنهم أجمعين.

رزقه من زوجته الطاهرة البتول سيدة النساء فاطمة الزهراء رضي الله عنها وعليها السلام، بنت سيد المرسلين، وأفضل المخلوقين، وأشرف العالمين أبي القاسم سيدنا محمد ﷺ ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن قريش بن ملك العرب مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان من بقية آل إبراهيم الخليل عليه السلام انتهى.

وقال الإمام بحر الطام حجة الله على الآنام الشيخ عبد الكريم بن محمد الرافعي، مجتهد مذهب سيدنا الإمام الشافعي رضي الله عنهما في كتابه: «سواد العينين»، بعد أن ذكر نسبة سيدنا السيد أحمد الكبير ﷺ:

حدثنا الشيخ الصالح محمد بن الحسن البزّاز، عن الشيخ الورع أبي محمد القوصي قال: مرَّ السيد أحمد الرفاعي بموكب من فقرائه في أرض البطائح، فأنكرت حاله في سرّي فنمت ليلي، وإذا بالنبي ﷺ وهو يثني على السيد أحمد الرفاعي ويقول: ولدي السيد أحمد الرفاعي علم الحقيقة، يربى بحاله أكثر مما يربى بمقاله، من أحبه فقد أحبني، ومن آذاه فقد أذاني، فقمت مرعوبًا وأتيته، فلما رآني تبسّم وقال: الرجل الكامل يربي بحاله أكثر مما يربي بمقاله.

وقال أيضًا: وُلد ﷺ سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، ونشأ في حجر خاله فأدّبه وهذّبه، وتلقى عن خاله الطريقة وعلم التصوف، ولبس خرقته، وأخذ عنه علوم الشريعة، وتفقّه على الشيخ أبي الفضل علي الواسطي المعروف بابن القاري، وعن جماعة من أعيان الواسطيين، منهم خاله الصوفي الجليل شيخ وقته، سلطان العلماء والعارفين، الشيخ أبو بكر الواسطي أخو الشيخ منصور.

وانتهت إليه الرئاسة في علوم الشريعة، وفنون القوم، وخدمة الأئمة والفقهاء، والملوك والخلفاء، وانعقد عليه إجماع الطوائف، وقال بتقدمه على جميع رجال عصره الموافق والمخالف، وأطبق على علو قدمه، ورفعة رتبته، وكرم خلقه، وترقّيه عن منـــزلة القطبية الكبرى، والغوثية العظمى، حجا حجة الأرض المقدسة الحجاز والشام، واعترف رجال وقته بالعجز عن درك منتهاه في السير، وقال بذلك الخواص منهم والعوام.

وقال فيه الشيخ منصور: وزنته بجميع أصحابي وبي أيضًا فرجحنا جميعًا، ويكفيك أن من أصحابه الشيخ حمّاد الدباسي البغدادي أجلّ أشياخ الشيخ عبد القادر الجيلي والشيخ عثمان البطائحي، والشيخ خميس، والشيخ مكّي الطستاني وأمثالهم، وعدَّ نفسه الزكية أيضًا.

ويعجبني ما قال فيه الفيروزآبادي مفردًا:

أبا العلمين أنت الفرد لكن إذا حسب الرجال فأنت حزب

حدثني الشيخ الإمام أبو شجاع الشافعي فيما رواه قائلاً:

كان الإمام أحمد الرفاعي ﷺ علمًا شامخًا، وجبلاً راسخًا، وعالمًا جليلاً، محدِّثًا فقيهًا، مفسرًا ذا روايات عاليات، وإجازات رفيعات، قارئًا مجوِّدًا حافظًا مجيدًا، حجة رحلة، متمكّنًا في الدين سهلاً على المسلمين، صعبًا على الضالين، هيّنًا لينًا، هشًّا بشًّا، لين العريكة، حسن الخلق، كريم الخلق، حلو المكالمة، لطيف المعاشرة، لا يملُّه جليسه، ولا ينصرف عن مجالسه إلا لعبادة، حمولاً للأذى، وفيًّا إذا عهد، صبورًا على المكاره، جوَّادًا من غير إسراف، متواضعًا من غير ذلة، كاظمًا للغيظ من غير حقد، أعلم أهل عصره بكتاب الله وسنة رسوله، وأعلمهم بها بحرًا من بحار الشرع، سيفًا من سيوف الله، وارثًا أخلاق جده رسول الله ﷺ.

وقال الإمام الرافعي أيضًا في كتابه المذكور: أخبرني شيخنا الإمام الحجة القدوة عمر أبو حفص شهاب الدين السهروردي، عن عمه الولي العارف شيخ الشيوخ أبي النجيب، عن شيخه الإمام الهمام، البحر الطام محمد بن عبد البصري رضي الله عنهم، قال: كل الأولياء أدركنا مقاماتهم، وما وصلوا إليه، وعرفنا منتهاهم في السير، إلا السيد أحمد الرفاعي فإنه لا يعرف منتهاه في السير، وإنما رجال عصرنا على الإطلاق يعرفون الوجهة التي اتجه إليها، ومن ادعى الوصول إلى مرتبته، والاطلاع على رتبته فكذبوه.

أي إخواني.. هذا رجلٌ لا يعرف ولا يحد، هذا رجلٌ انسلخ من علائق بشريته وعوائق نفسه كانسلاخ الثوب عن البدن، والأولياء في عصرنا هذا كبارهم وصغارهم، المشارقة والمغاربة، الأعارب والأعاجم، عيال عليه يستمدون منه ويأخذون عنه، وهو شيخ الكل في الكل، يسح النوال من حجرة جده عليه السلام على قلبه، وهو يقسمه على الرجال في الأرضين، ولا ينقطع مدده بإذن الله، والدولة له ولذريته إلى يوم القيامة، مع طيب نفس المحب ورغم أنف الحاسد، يفعل الله ما يشاء، لا رادَّ لأمره ولا منازع لحكمه.

قال لي شيخنا سند المحدثين عبد السميع الهاشمي الواسطي ببغداد: وقد جرى ذكر السيد أحمد بن الرفاعي ﷺ: أي عبد الكريم فقال: كان السيد أحمد آية من آيات الله، ومعجزة من معجزات رسول الله، يمشي على وجه الأرض، ما وقعت الأبصار على نظيره في عصره، قلَّ في السلف مثيله، ولا يوجد في الخلف عديله، وكان طريقه الكتاب والسُّنة، كان فعَّالاً لأقوالاً شرها وحكم عليها، قهر حاله وغلب طوره، وكان إمامًا عالمًا عدلاً، لو رأيته لرأيت كل السلف.

لَيسَ عَلى اللهِ بِمُستَنكرٍ أن يَجمَعَ العَالم فِي وَاحِدِ

رأيته يومًا وقد امتلأت أطراف أم عبيدة من زائريه وهو يبكي ويقول:

حَيَّرت فِيكَ العَقَلا يَا مَن لِعَقْلِي عَقَلا
كَتَمتَ فِيكَ حَالَتِي فَضَحتَنِي بَينَ المَلا

وكنت مع الزُّوار في الحرم النبوي عام حجُّه الذي مدت له فيه يد النبي ﷺ، وشاهدت اليد النبوية ببركته ﷺ، وكان في من حضر الشيخ علي الهيتي الذي هو الآن بين أظهرنا، والشيخ عدي بن مسافر، والشيخ عبد القادر الجيلي، والشيخ الزعفراني، والشيخ عزاز، وغير رجل.

فلما تجلى الله عليه بهذه الموهبة العظيمة، والمنة الكريمة، وآن وقت انصراف جسمه من الحضور النبوي، اضطجع بباب الحرم وأقسم على الناس أن يدوس كلهم عنقه، فكانت العامة تتخطى عنقه المبارك، والخاصة انصرفوا من أبواب أخر، وكنت لديه وهو يبكي ويقول: اللهم زدني تمكينًا وإيمانًا، ومعرفة بك وبنبيك ﷺ.

وأخبرني شيخنا الإمام الحجة، القدوة أبو الفرج عمر الفاروقي الواسطي.

قال: حج سيدنا وشيخنا السيد أحمد الرفاعي عام خمس وخمسين وخمسمائة، فلما وصل المدينة، وتشرف بزيارة جده عليه السلام وقف تجاه حجرة النبي ﷺ، ووقفنا خلف ظهره، وقال: السلام عليك يا جدي، فقال له: عليه أفضل صلوات الله وعليك السلام ياولدي،

فتواجد لهذه النغمة.

وقال منشدًا:

فِي حَالَة البُعد رُوحِي كُنتُ أُرسِلها ... تُقبِّلُ الأرض عَنِّي فَهِي نَائِبَتِي
وَهَذِهِ دولَة الأشبَاح قَد حَضَرَت ... فَامدُد يَمِينك كَي تَحظَى بِهَا شَفَتِي

فمدَّ له رسول الله ﷺ يده الشريفة من قبره الكريم، فقبلها في ملإ يقرب من تسعين ألف رجل، والناس ينظرون يد النبي ﷺ، ويسمعون كلامه.

وكان فيمن حضر الشيخ حياة بن قيس الحراني، والشيخ عبد القادر الجيلي، والشيخ عدي الشامي، وشاهدوا ذلك هم وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

وذكر السيد الهمام، صدر علماء الأعلام، السيد أبو القاسم البرزنجي الحسيني نفعنا الله به في كتابه «إجابة الداعي»، الذي ألفه في مناقب سيدنا الإمام المشار إليه، صبَّ الله سجال عوارفه عليه ما نصَّه:

قال يعقوب خادمه: لما مرض سيدي أحمد ﷺ مرض الموت، قلت له: تجلى العروس في هذه المرة، قال: نعم، فقلت له: لماذا؟ قال ﷺ: جرت أمور اشتريناها بالأرواح، وذلك أنه أقبل على الخلق بلاء عظيم فتحملته عنهم، واشتريته بما بقي من عمري فباعني.

وكان ﷺ يمرِّغ وجهه وشيبته على التراب ويقول: العفو ويبكي، ويقول: اللهم اجعلني سقف البلاء على هؤلاء الخلق.

وكان مرضه بالبطن؛ وسبب ذلك أنه سمع قائلاً ينشد هذه الأبيات فاضطرب وانزعج، وهاجت بطنه ﷺ وهي:

إِذَا جَن لَيلَي هَامَ قَلبِي بِذِكرُكُم ... أَنُوح كَمَا نَاحَ الحَمَام المطُوق
وَفَوقِي سَحَابٌ يُمطِر الهَم وَالأَسَى ... وَتَحتِي بِحَار بِالجَفَا تَتَدفَّق
سَلُوا أُم عَمْرو كَيفَ بَاتَ أَسِيرُهَا ... تُحل الأَسَارى دُونَه وَهُو مَوثَق

فَــلا هُــو مَقــتُول فَفِي القَتل رَاحةً وَلا هُــو مَمــنُونٌ عَلَــيهِ فَيُعــتَق

ومكث بالمرض شهرًا، وكان يخرج منه كل يوم ما شاء الله، فقيل له: من أين يخرج هذا ولك عشرون لا تأكل شيئًا ولا تشرب؟! فقال ﷺ: هذا اللحم يندفع ويخرج ولكن قد ذهب اللحم وما بقي إلا المخ، اليوم يخرج وغدًا نعبر على الله ﷻ، فخرج منه شيء أبيض مرتين أو ثلاثًا وانقطع.

وكانت وفاته دامت بركاته يوم الخميس، ثاني عشر جمادى الأولى سنة خمسمائة وثمان وسبعين، عن ثمان وسبعين، وكان يومًا مشهودًا.

وكان آخر كلامه ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله انتهى.

هذا ما حققه العلاّمة البرزنجي، والذي صحَّ عند العلماء المحققين السادة الرفاعية، وأهل العلم، بهذه النسبة الزكية الأحمدية، أن عمره الشريف ست وستون سنة.

وقد ثبت أنه سأل جماعة من مفتي الثقلين مولانا تقي الدين الواسطي قُدِّس سرُّه عن شغل السيد أحمد الرفاعي ﷺ في مدة عمره، فقال: شغله في مدة عمره مدة عمره، فأشكل عليهم. فقال: شغله الله وهذا الاسم المبارك عدده بحساب الجمل ستة وستون.

وقالوا: إن تاريخ ولادته جاء بدسر الرب، وتاريخ عمره لله باعتبار كون المد الطبيعي ألفًا، وتاريخ وفاته لله جاء بدسر الرب.

قال الإمام الهمام الشيخ إبراهيم الكازروني في كتابه «الترياق» عند ذكر مولانا صاحب الترجمة ﷺ:

إِذَا نَظَــرتَ إلى الدُّنــيا وَهَيئَــتهَا فَانظُــر إلى مَلَــك في زِي مِسكِين
إِذَا كَــانَ يَــصلح لِلدنيَا سِوَاه فَتَى فَــذَاكَ يَــصلُح للدنــيا ولِلــدِين

من آثاره:

- حالة أهل الحقيقة مع الله (بتحقيقنا).

- البرهان المؤيد.
- تفسير سورة القدر.
- الطريق إلى الله.
- النظام الخاص لأهل الاختصاص.
- شرح التنبيه في الفقه الشافعي للشيرازي.

وانظر في ترجمته ﷺ:

- النجم الساعي في مناقب القطب الكبير الرفاعي لأبي بكر العيدروس (بتحقينا).
- تنوير الأبصار لأبي الهدى الصيادي الرفاعي (٣، ٢٥).
- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٢٥٩/٤).
- قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر للصيادي.
- سواد العينين في ذكر أبي العلمين للرفاعي.
- بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطنوفي (٣٣) بتحقيقنا.
- المعزى في مناقب أبي يعزى للتادلي (بتحقيقنا).

❀❀❀

ترجمة الشارح

ترجمة المؤلف للسيد الحسيب النسيب، فرع الشجرة الطاهرة الرفاعية، وسليل السادة الأحمديــــة، الســـيد الشيخ محمد أفندي نجل العارف المرحوم الشيخ عمر أفندي الحريري الرفاعي، شيخ السجادة الرفاعية بحماه المحمية، قال رحمه الله:

هذا أوان الشروع فيما قصدناه من ترجمة السيد الصيادي، صبَّ الله تعالى سجال عنايته ونعمته علينا وعليه، هو العالم المحقق، والفاضل المدقق، الحبر الهمام، والفرد المقدام، شيخ الطريقة، وكشاف كل حقيقة، فرع الزاوية الهاشمية، ويتيمة قلادة السادة الأحمدية، مجدد طريقة جده أبي العلمين، وناشر أعلام فضله في المغربين والمشرقين، المالك زمام الفضائل والمعاني في كل نادي، صاحب السماحة والسيادة، السيد الشيخ محمد أبو الهدى أفندي، ابن شيخ المقام العالي الصيادي العارف الكبير، الهمام الشهير، السيد الشيخ حسن وادي، ابن السيد علي، ابن السيد خزام، ابن السيد الشيخ علي الخزام، دفين حبش الولي المقدام، ابن الولي العارف العالم، المرشد الكامل السيد الشيخ حسين برهان الدين، ابن السيد عبد العلام، ابن السيد عبد الله شهاب الدين المبارك الزبيدى البصري الرفاعي، ابن السيد محمود الصوفي، ابن السيد محمد برهان، ابن السيد حسن الغوَّاص، ابن السيد الحاج محمد شاه، ابن السيد محمد خزام دفين الموصل، ابن السيد نور الدين، ابن السيد عبد الواحد، ابن السيد محمود الأسمر، ابن السيد حسين العراقي، ابن السيد إبراهيم العربي، ابن السيد محمود، ابن السيد عبد الرحمن شمس الدين، ابن السيد عبد الله قاسم نجم الدين المبارك، ابن السيد محمد خزام السليم، ابن السيد شمس الدين عبد الكريم، ابن السيد صالح عبد الرزاق، ابن السيد شمس الدين محمد، ابن السيد صدر الدين علي، ابن القطب الجواد السيد عز الدين أحمد الصياد، ابن السيد ممهد الدولة والدين عبد الرحيم الرفاعي، ابن الإمام ولي الرحمن السيد عثمان، ابن السيد حسن، ابن السيد عسله، ابن السيد الحازم، ابن السيد أحمد، ابن السيد علي المكي، ابن السيد رفاعة ويقال له: الحسن نزيل المغرب، ابن السيد المهدي، ابن السيد أبي القاسم محمد، ابن السيد الحسن، ابن السيد الحسين أحمد، ابن السيد موسى الثاني، ابن السيد إبراهيم المرتضى، ابن الإمام موسى الكاظم، ابن الإمام جعفر الصادق، ابن الإمام محمد الباقر، بن الإمام زين العابدين علي الأصغر

السجاد، ابن الإمام الهمام، علم الإسلام، عين أئمة الأعلام، سبط الرسول ﷺ، الذي امتُحِن بأنواع البلاء، أمير المؤمنين مولانا أبي عبد الله الحسين الشهيد بكربلاء، ابن إمام الأئمة وأمير نحل هذه الأمة، سيد الأولياء، وقائد أزمة الأصفياء، أمير المؤمنين، مولانا الإمام علي. رزقه من زوجته فاطمة سيدة نساء العالمين، بنت سيد المخلوقين عليه أفضل صلوات رب العالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وُلد حفظه الله وحماه سنة ألف ومائتين وست وستون، لثلاثة أيام خلت من شهر رمضان المبارك، بشيخون من أعمال معرة النعمان، وقرأ القرآن وهو ابن سبع سنين، ثم شرع بالكتابة فمهر، وأخذ يتلقى العلوم العقلية والنقلية، عن أفاضل الرجال الأعيان، فأتقن وأحسن، ثم تشرف بلبس الخرقة، والخلافة الرفاعية من يد والده، المتقدم ذكره، صاحب الأنفاس الزكية، وله إجازتان أيضًا بطريقتهم العلية الرفاعية الصيادية:

الأولى: من شيخه، وابن عمه أحد مشاهير أولياء الله، السيد الشيخ علي خير الله الرفاعي الصيادي، شيخ المشايخ بحلب الشهباء، لبس منه الخرقة الرفاعية بإذن والده، وأقام عنده بحلب مدة، ولا تزال بعدها يتردد لزيارته في أغلب أوقاته، مستمدًا فيوضات نفحاته، وصالح دعواته، حتى بحمد الله منه، رضاه وإذنه بما لديه، ففاز به محفوظًا بعناية الله.

والثانية: من حضرة شيخه الأجلّ الولي الأكمل، غوث زمانه، وشيخ أهل عصره وأوانه، طاهر الأنفاس، المستأنس بربه، المستوحش من الناس، مولانا السيد الشيخ محمد بهاء الدين مهدي الشيوخي الصيادي الرواس، لبس منه الخرقة عام تشريفه بغداد دار السلام، وتمم السلوك على يديه، وأخذ عنه العلوم الشرعية، والتصوفية، وحفظ جميع كلامه المنظوم بعد الوقوف على كنوز حقائقه الدرية، ورموز معاني دقائقه الخفية، ولما استوفى سلوكه في الطريقة، وملك زمام الكشف عن مضمرات كل حقيقة، أذنه بالرجوع لوطنه، ودياره لنشر الطريق المبارك، وقال له يوم وداعه:

دخلت لحاننا فاشطح وغني ... فأنت وحقنا عنا تنوب

فعاد مصحوبًا بالسلامة للديار الحلبية، وعمتها بسببه الحضرة الرفاعية، وبعد رجوعه ببرهة يسيرة خطر دار السعادة مركز الخلافة الإسلامية، فنشر بها علم الطريقة العلية، وانتسب له أفاضل الناس؛ لعلمهم أن طريقه المبارك قام على أساس من العرفان والشرع وأي أساس، وعاد منها بنقابة أشراف جسر الثغور، من أعمال حلب، فانعطفت له الأنذار والقلوب بحسن الطلب.

ثم بعد برهة يسيرة ولي نقابة الأشراف بحلب الشهباء، وأطبق على تعظيمه واحترامه بها الفقهاء والفقراء، وفي هذه الأثناء لا زال يخطر إسلامبول المحروسة ذات الأطلال المأنوسة، ويترقى في المراتب العلمية، ويعظم اشتهاره لدى رجال الدولة العلية، حتى بلغ أمره الخليفة المعظم، مالك رقاب العرب والعجم، ظل الله في العالم، وارث سرير خلافة سيد المخلوقين نبيِّنا وسيدنا محمد ﷺ، ناصر الشريعة الغراء، وناشر ألوية الطريقة السمحاء، خادم الحرمين الشريفين، ملك المشرقين والمغربين، السلطان ابن السلطان، السلطان الغازي عبد الحميد خان، ابن السلطان الغازي عبد الحميد خان، خلّد الله خلافته بالتوفيق إلى آخر الدوران آمين.

فأحضره إليه، وعطف بكليته عليه، وقلده مشيخة المشايخ في دار الخلافة العلية، وألحقه إلى رتبة قضاء العسكر، التي هي منتهى المراتب العلمية، ومع كل هذا ما برح منعكفًا على خدمة الطريق الشريف، مشتغلاً بفضل الله بإعلاء منار الشرع العالي، بالتصنيف والتأليف، حتى ألف الكتب الجليلة الكثيرة، والرسائل الظريفة الوفيرة، وقد حرر أكثرها الطبع بأحسن شكل، وأجمل وضع، وها هي بحمد الله بأيدي المسلمين ينتفع بها العوام والخواص من الموحدين؛ لأنها مشحونة بالأصل الديني المتين، محفوظة مصونة من شبه أرباب الغلو في الدين، مرفوعة القواعد على أساس الكتاب والسنة السنية، رافعة أعلام المجد، والمفخرة لعامة الملة الإسلامية.

وللخاصة الفرقة الزكية الرِّفاعية، منها:

- كتاب ضوء الشمس في قوله ﷺ: «بُني الإسلام على خمس[1]».
- قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباع الأكابر.
- سلسلة الإسعاد في تاريخ بني الصياد.
- داعي الرشاد إلى سبيل الاتحاد.
- هداية الساعي في سلوك طريقة الغوث الرفاعي.
- رسالة في التواتر.
- الفجر المنير فيما ورد على لسان الغوث الرفاعي الكبير[2].
- الصباح المنير في وِرد شيخ الأولياء السيد أحمد الرفاعي الكبير.
- ديوانه الفيض المحمدي، والمدد الأحمدي.
- كتاب الصراط المستقيم في تفسير: بسم الله الرحمن الرحيم.
- الحقيقة المحمدية في شأن سيد البرية.
- المدد النبوي في بيان حكم العهد العلوي.
- روح الحكمة فيما يجب من الأخلاق على هذه الأمة[3].
- المدنية الإسلامية في الحكمة الشرعية.
- تطبيق حكم الطريقة العلية على أحكام الشريعة النبوية.
- سياحة القلم في الحكم.

---

(١) رواه البخاري (١/١١)، ومسلم (١/٤٥).

(٢) طبع ضمن الحكم المهدوية (بتحقيقنا).

(٣) طبع بتحقيقنا، مع رسائل أخرى.

- الواعظ المعرب عن حقيقة المسلم المتأدب.
- السهم الصائب لكيد من آذى أبا طالب.
- تاريخ الخلفاء ورّاث النبي المصطفى.
- الكوكب الزاهر في مناقب الغوث عبد القادر.
- العناية الربانية في ملخص الطريقة الرفاعية.
- ديوانه الثاني الجامع لأشتات درر غرر المعان.
- حضرة الإطلاق في مكارم الأخلاق.
- قرة العين في مدح الإمام أبي العلمي.
- طريق الصواب في الصلاة على النبي الأواب.
- روض البسام في أشهر البطون القرشية بالشام.
- الحقيقة الباهرة في أسرار الشريعة الطاهرة (بتحقيقنا).

وغير ذلك من المآثر التي سارت بها الركبان، وملأ شعاع فضلها النواحي، والبلدان.

وقد امتدحه البلغاء، وأثنى عليه فضلاء الشعراء؛ لما منَّ الله به عليه من الأخلاق الشاهدة له بصحة النسب المحمدي، وطهارة الأعراق.

منها ما قاله الفاضل الكامل أوحد البلغاء الأماثل، الشيخ يوسف أفندي النبهاني، بلغه الله من الخير أكمل التّهاني:

يَا سَارِي البَرق بَل يَا سَائِقِ السُّحُب ... حَي المَنَازل بَين الْبَان فَالكثب
انخ هناك مَطَايَا الغَيث مُثقَلَة ... مِن كُل مُنهَمِر بِالقطرِ مُنسكبِ
وَقَف على الدّار وَسَط الحَي مُنتسبًا ... لثغر سَاكنها وافخر بِذَا النَّسبِ
قَرِّب لَهَا خَيري يَا بَرق مُحتسبًا ... فَذَاك والله عِندِي أفضل القربِ
وَاستعمل الرفق في التَّبليغ إن لَها ... بِقَصِيّ طَربًا نَاهِيك مِن طَربِ

مَا الدَّار يَا بَرق فِي المعنى سِوى صَدف ... وَدُرة الخدر فِيهَا مُنتهى إربِي
موهت بالدار والمعنى ربتها ... كَذكَرنا الكأس والقصد ابْنة العنبِ
فَاذكُر لَهَا عَجَبًا مِن أمْر مُدنفهَا ... دَانَ عَلَى البُعد لَم يحضر ولَم يغب
زَفِيرهُ من أوار الوجد في صعد ... ودمعه مِن مجَاري الخَد في صببِ
عدمْت مَن عَذلُوني فِي الهَوَى سَفَهًا ... وَحَاربُونِي أو نَاديت واحربِي
ولَو رأوا مَا رَأت عَيني وكَان لَهُم ... قَلبي ولاموا لكان اللّوم أجْدر بِي
لَكِن أخَالهم خَشبًا مُسنَدة ... وهَل يُؤثر داعِي الحُب بالخشبِ
عَاشُوا خَليين مِن وجْد يؤرقهم ... فَطَاب عَيشهم وهمًا ولَم يَطِبِ
يَا عَاذِلي خَلّ عَذلي مُشفقًا فَلَقَد ... أخطأت والله في عذلي ولَم تصب
جِسمِي بِدَار اغْترَابِي لا يَفِيق ولِي ... قَلبِ شَج عَن دِيَارِي غَير مُنقَلب
يَا لَهفَ قَلبي عَلى تِلك الدِّيَار ويَا ... شَوقِي إلَيهَا ويَا وجْدي ويَا وَصَبِي
عَلمت أنِي إن لازمت تربتها ... لَم أبْرِح الدَّهْر فِي هَمّ وفِي تُرب
فَاخترت فرقتها لا عن كراهتها ... ولا غرامًا بِسَير الأينق النجب
لكنما الهمم العليا روت خبرًا ... العز مرتبط بالوخدِ والخببِ
فكان ذاك علينا موجبًا سفرًا ... لولا الأماني لَم يَندب ولَم يُجب
لَم أنْس مَا وجَدت بِالبِيد أينقنا ... مِن الوجِي ونفاد المَاء والعشبِ
والركْب فِي سَكرة هَزته سُورهَا ... لا سَكرة الراح لكن سَكرة التَّعبِ
في مهمة طامس الأعلام مشتبه ... سَهل خَلي مِن الحصباء والحصبِ
يرى الدليل به حربًا لناظره ... لا يستغيث بغير الويل والحربِ
والليل ملقي خِيَامًا مِن غَيَاهِبه ... قَامَت بِلا عَمَد فِيهَا ولا طنب
حَتى إذا احتبكت في الأرض ظلمته ... وأنجم الأفق في حجب مِن السحبِ
حرنَا فلما هتفنا بِاسم سيدنا ... أبي الهدى ضَاء نُور السَّبعة الشهبِ

محمد خلف الصياد صفوته ... الهاشمي الرفاعي الفتى العربي
أبو السراج أخو النورين حيدرة ... أجل عصبة طه وابنه العصبي
الطاهر النسب ابن الطاهر النسب ... ابن الطاهر النسب بن الطاهر النسب
هادي الخليفة مهدي الطريقة ك ... شاف الحقيقة جالي ظلمة الريب
مجدد لربوع الفضل حين حكت ... نهى أعاديه من واه ومن خرب
إني ومن كل علم حزن ثاكلة ... فما استراح إلى أن قال واطربي
ذو فكرة فعلت بالمشكلات على ... جهابذ الدهر فعل النار بالحطب
أراؤه أنجم في الخطب مشرقة ... وعقله لرحى التدبير كالقطب
ترى بصيرته الأزمان حاضرة ... ما كان مقتربًا أو غير مقترب
وتشهد الكرة الأرضية اجتمعت ... كأنها وضعت للهو واللعب
يا دولة اتخذت منه لها ولدًا ... يهنيك خير أخ يهنيك خير أب
يهنيك ذو الحزم والتدبير والأدب الـ ... مطبوع والنسب المرفوع والحسب
يهنيك مولى على الأعداء فكرته ... أشد من حملات الجحفل اللجب
عقل ينوب عن الكشف الجلي وندى ... لله ما فعلت جدواه بالنوب
أحرزت يا دولة الإسلام منه فتى ... ساد الورى وهو حاشاه الصغار صبي
إن المقادير قد خطت براعتها ... على محياه هذا سيد العرب
من معشر أرفع الأشياخ منزلة ... أمام طفلهم يجثو على الركب
صيد صناديد أشراف جهابذة ... نجب حجا حجة من سادة نجب
آل الرسول خيار الناس قاطبة ... خلاصة الخلق طرًا نخبة النخب
لو نبأ الله بعد المصطفى أحدًا ... لكان منهم لعمر الله ألف نبي
شرف وعظم ومجد ما استطعت ولا ... تطلب لبكر القوافي غير مطلبي
وإن حظيت بحبر من ائتمهم ... فامدحه محتسبًا أو غير محتسب

وخَصَّ مِنهم فَتى الفِتيان سَيدهم ... شَيخ المشايخ كهل الفضل والأدبِ
أَبا الهُدى مَن إذا يممت سَاحته ... أتاك معروفه عفوًا بلا سببِ
هَذي الأقَاليم فاطلب مَن يماثله ... فِيها نَدى واحتكم إن فزت بالطلبِ
شَبِّه بِهِ البَحر إن البَحر يشبهه ... لكنه العذب مَأمون مِن العَطبِ
وانسب إلَيه جَميع المكرمات ولا ... تنسب إلَيه ادخَار المَال والنشب
يرى رؤوس اليتامى إذ يقبلها ... أشهى لَه مِن خُدود الخَرد العرب
أما العفاة فلو شاهدت قربهم ... مِنه لحققتهم مِن أقْرب النسب
أرضاه إن جيوش الحمد هاجمة ... عليه والمَال مِن كفيه في هَرب
لِلجمع بَين الدُّجَى والصبح في قَرن ... أدنى مِن الجمع بَين الحمد والذهَبِ
شُكرًا لِمَا نِلتُه مِن صَفْو نِعمته ... الحُب والقرب والترتيب والرتَبِ
كَم كُربة أثقلت ظهري ففرجها ... بهمة سميت فراجة الكرب
وكم أياد لَهُ عندي مؤيدة ... لَهَا دَليلان مِن لَحمي ومِن عَصَبي
مَدَحته عَاجِزًا عن درك غايته ... مع انتخَابي القوافي خير مُنتخبِ
ولَيس في العجز عَن إدراكها عجب ... صِفَاته حصرها مِن أعجب العجب
يَجُوز صِدقي وكَذبي في سِواه وإن ... أمدحَه يَومًا فمعصوم مِن الكذبِ
أبا السراج وأنت المصقع اللسن ال ... شَهم البليغ إمَام النُّظم والخطبِ
خُذ مَدحَة مِن لُبَاب الشِّعر لَو تُليت ... في مُنتهى الشَّرق كَان الغَرب في طربِ
أقْسمت لَهِي عَلَى الأعداء لَو فَهموا ... أشَد وقْعًا مِن الهندية القضبِ
ودُونك العِيد فاستبشر بِذَورته ... إنا لَك الله فيه منتهى الأرب

وغير ذلك مما لا يعد ولا يحد.

وقد أفرد لترجمته ومدائحه جماعة من أتباعه ومحبيه الخالصين كتبًا منها: كتاب «قطر الندى في مدائح الأستاذ أبي الهدى» العالم الفاضل والأريب الكامل، خليفته صاحب

الفضيلة الشيخ عبد المجيد أفندي الخردجي الدمشقي، لا زال بعرفانه يرقى المعالي ويرقي.

فهو كتابٌ نفيس، تزري حواشيه بأجنحة الطواويس، شيدت مبانيه، ورقت معانيه. جمع فيه أكثر ما قاله بشيخه مولانا المشار إليه رجال العصر الأفاضل، وتتبع فيه أكثر ما منَّ به الله على المترجم من المحامد والخصائل، وإني تبعت أثر مادحيه؛ لكوني بفضل الله من عشيرته، وخلفائه، ومحبيه، فمدحته بتخميس هذه القصيدة الرقيقة الأصل، الجميلة الشكل، الذي نظم عقود أصلها شيخ المحدثين بالعراق، المجمع على فضله بالاتفاق، الشيخ السيد داود أفندي الخالدي، وها هي خاتمة الترجمة المذكورة، وقلادة جوهرية على ذيل محامده المشهورة:

إن شيخي أبا الهدى لحسام ... سَله الله والرسول الإمام
فهو بالله واثق خصام ... رَجل لا تُريعه الأيام
ولَه عند كرها أقدام

طُود حِلم مِن الزلازل مَا ارتَج ... وصَبور عَلى البَلا قَط مَا لج
بيت عز كُل الكمال لَهُ حَج ... وإمام قامت به دولة المجد
بطور به تباهى الإمام

قرشي مهذب علويِ ... هاشمي مقرب أريحي
علم مفرد تقيٌ نقيٌ ... ونسيبٌ وسيدٌ أحمدي
خالدي شهم كريم همام

مرشد العصر بِالجلال توشح ... وعن الرشد والهداية أوضح
عَارف عرب العلوم فافصح ... كَم لَه في الورى لعمرك مِن أحوال
فضل حارت بها الأفهام

ومعالٍ فوق السهى ثابتات ... وجياد تحت النهى صافنات
كَم أرتنا في السبق من آيات ... ولكم من مكارم بينات
شهدت في علوها الأيام

وأيـــادِ جـــزيلة وهـــبات تـــتوالى كأبحـــر ذاخـــرات
ولكـــم مـــن عـــزائم صـــارمات وسِـــمات عـــن أصـــله باسمـــات
عقدها لا يحلُه الإبرام
ولكـــم مـــن مآثـــر طيـــبات وصـــلاتِ مـــنه لـــنا واصـــلات
وفعـــال عـــن حكمـــةِ صـــادرات ولكـــم مـــن مـــناقب باهـــرات
دون مرقى سنامها الأوهام
ماجـــد حـــازَ همـــة إن تـــزنها بعظـــيم الجـــبال يـــنحط عـــنها
كَـــم فقـــير نَـــال الغـــنى مِن لَدنْها ولكـــم مـــن مـــواهب رد مـــنها
عارض المزن وانقضى الانسجام
هـــداه أحـــيا القلـــوب وأنعـــش وبـــساط المـــنى لـــراجيه يفـــرش
وهُـــو في دولَـــة إذا الخطب أدهَش أسَـــد مِـــن عـــصابة كللتها الشهب
في ضوئها وصح النظام
جـــلّ بـــين الآنـــام أمـــرًا ونهـــيًا وبفعـــل الخـــيرات أحـــسن سَـــعيا
المعـــي بـــه الفـــضائل تحـــيا وفَـــتىَ مِـــن عـــشيرة عَـــرش عَلـــيًا
هم رفيع وعبدهم لا يضام
ضـــيفه يـــستقر في خـــير منـــزل وصـــروف الـــزمان عـــنه بمعـــزل
ســـيد ملجـــأ لكـــل مـــؤمل وكـــريم بـــه تفاخـــر في ســـلك
التدلي أهل كرام عظام
عَـــارف قَـــد أتَـــى بِأوثـــق حَزم كَـــان مِـــن بعـــضه علـــوم ابْن حَزم
ضـــيغم لم يـــزل بـــصحة جـــزم يقـــرع الحـــادث المهـــم بعـــزم
حيدري في طيه إقدام
وهـــو مـــا زال للـــبرية غـــوثًا مِـــن يديْـــه يـــستمطر الْجُـــود غيثا

وذراع دعـــى الأعـــادي حـــونًا   وتـــراه في حـــومة الحـــرب ليـــثا

بارزًا ما التوت لَهُ أقدام

لعـــروس الكمـــال أصـــبح بعـــلا   ولهـــا دون غـــيره كـــان أهـــلا

فَيـــصل لا يـــزال قـــولاً وفعـــلاً   بالغَـــا مِـــن مَـــراتِب العـــز أعْلـــى

رتبة في أساسها الإحكام

ذكْـــرها يطرب الـــنفوس ويَرقص   فعلـــيها يَـــا دهْـــر حَـــافظ واحْرس

يـــا لَهَـــا رتـــبة إلى خير مخلص   نظمـــتها مِـــن الشريعة أيْدي الصدق

واستحكمت بها الأحكام

صَـــح هَـــدي عَن الهِـــدايَة أســـفر   وبـــه بـــاطن المـــريد تـــنور

علـــم عـــيلم همـــام غـــضنفر   كيـــف لا وهو صاحب القدم الفـــرد

الرفاعي أبو الهدى المقدام

كَـــم بنـــشر العلـــوم أحسن صُنعًا   وأفـــاد العمـــوم خيْـــرا ونفعًـــا

هَاشمـــي قَـــد طَـــاب أصْلا وفَرعًا   مِـــن حـــسين بقـــية النـــسب العالي

المباني وعضبةُ الصمصام

ذو بـــراع جـــواده لـــيس يـــسقط   في مـــداه ولا بعـــشواء يخـــبط

وبمـــا شـــاء لا يـــريد التوســـط   وارث المرتـــضى وقُـــرة عَـــين الطهر

والغوث إن عدا الإختصام

تَـــاج هَـــام العُـــلا وجوهَـــر نصل   أحمـــدي نـــضته أشـــرف أهـــل

عـــين آل الـــصياد أطـــيب نـــسل   شِـــبل أهـــل العـــبا ذوابَة أصـــل

بعلاهم تشيد الإسلام

بحـــلا رفـــده العفـــاة تحلـــوا   وبـــوجه المـــرور مـــنه تملـــوا

حَاتمـــي مَـــا قَـــال لـــيت ولا لَو   وابْـــن آل فِـــيهم أضَـــاء سَما الكون

يهدي وزيح عنه الظلام

كـــوكب في ذرى العـــلا يـــتوقد   وعلـــى فـــضله الخناصـــر تعقـــد

وهــو للـــسالكين أعظــم فـــرقد وسَـليل الغَــوث الرفَاعــي مِــن قَد
رفعت عزة له الأعلام
لُــذ بأعــتابه الــشريفة وادخــل لحمـــاه واروي المحامـــد وانقـــل
وبِأفعالـــه وبأقـــواله قـــل أعظــم الأولــياء قــدرًا وشيخ الكل
إن شد في الخطوب حزام
مــن يــساويه ســؤددًا وفخــارًا وعلـــوًا ورفعـــة واقـــتدارا
أي غــوث ســواه كــان نهــارًا لأنمـــا راحـــة الرســـول جهـــارا
بعد عصر والأربعون قيام
فيروحـــي دون الـــورى أفديـــه مـــن ولي بـــنا جـــدار بنـــيه
فهـــو في الأولـــياء وحـــق أبـــيه كنـــز سِـــرّ تطلـــسم الـــبأس فِيه
وشوى في وحيده الضرغام
مَــا سِــواه يَــوم الــشدائد يُرجى بعــد طَــه الرسُــول حــصنًا ومَلجأ
كمــا وقعــنا بالمهلكــات فأنجــى ولــنا بابــنه أبي الهــدى للجاهــل
ذاك الدليل والإلزام
حجــة القــوم شــيخهم في الآنام مرشــد الــوقت بهجــة الأيـــام
قطـــبه الهاشمـــي شـــبل ضـــرام فـــرخه حـــافظ الـــوراثة جامـــي
ركنها أن تجز حماه اللئام
لمـــريديه في الحقـــيقة مـــنجد ولَهــم في مَــنازل القــرب مــسعد
ومِــن الكــشف حِين فَاز بِمقصد أخمــرته مِــن السراج سِراج الديــن
كأس مدامه الإلهام

فتــرأى في عـــالم النـــشر والطـــير فجـــر صـــدق يمحـــو الضلالة والغي

وتـــبدى في هـــيكل مفـــرد الـــزي وعلـــيه مـــن مجـــد سيدنا الـــصياد

درع طرازه الاحترام

بـــشذا رشـــده الـــزمان تعطـــر فـــروى للآنـــام عـــنه وأخـــبر

وبـــدى يتجلـــى بأحـــسن مظهر ولَـــه هيـــبة حـــسينية الطـــر

جلاها شيخ العراق خزام

آل بـــيت مقـــدس قـــد كفـــاهم خلـــع المجـــد ربهـــم واصـــطفاهم

وهـــداهم بفـــضله واجتـــباهم رضـــي الله عـــنهم وحـــباهم

صولة يتجلى عليها الدوام

ومقامـــا مـــن الكـــواكب أعـــلا واحتـــرامًا بـــين الأنـــام وفـــضلا

وَحَمَاهم مِن كُل مَا سَاء فِعلا وعلـيهم أزكـى الـتَّحايا مِن الله

تعالى مدى المدى والسلام

وانظر في ترجمته ﷺ:

- مقدمة كتابه تنوير الأبصار.
- فهرس الفهارس للشيخ الكتاني (١/١١٤).
- رياض الجنة للفاسي (٢/١٤٤).
- الأعلام للزركلي (٦/٣٢٤).
- الأعلام الشرقية لمجاهد (٦/٣٢٤).
- معجم المؤلفين لكحالة (٣/٢٤١).

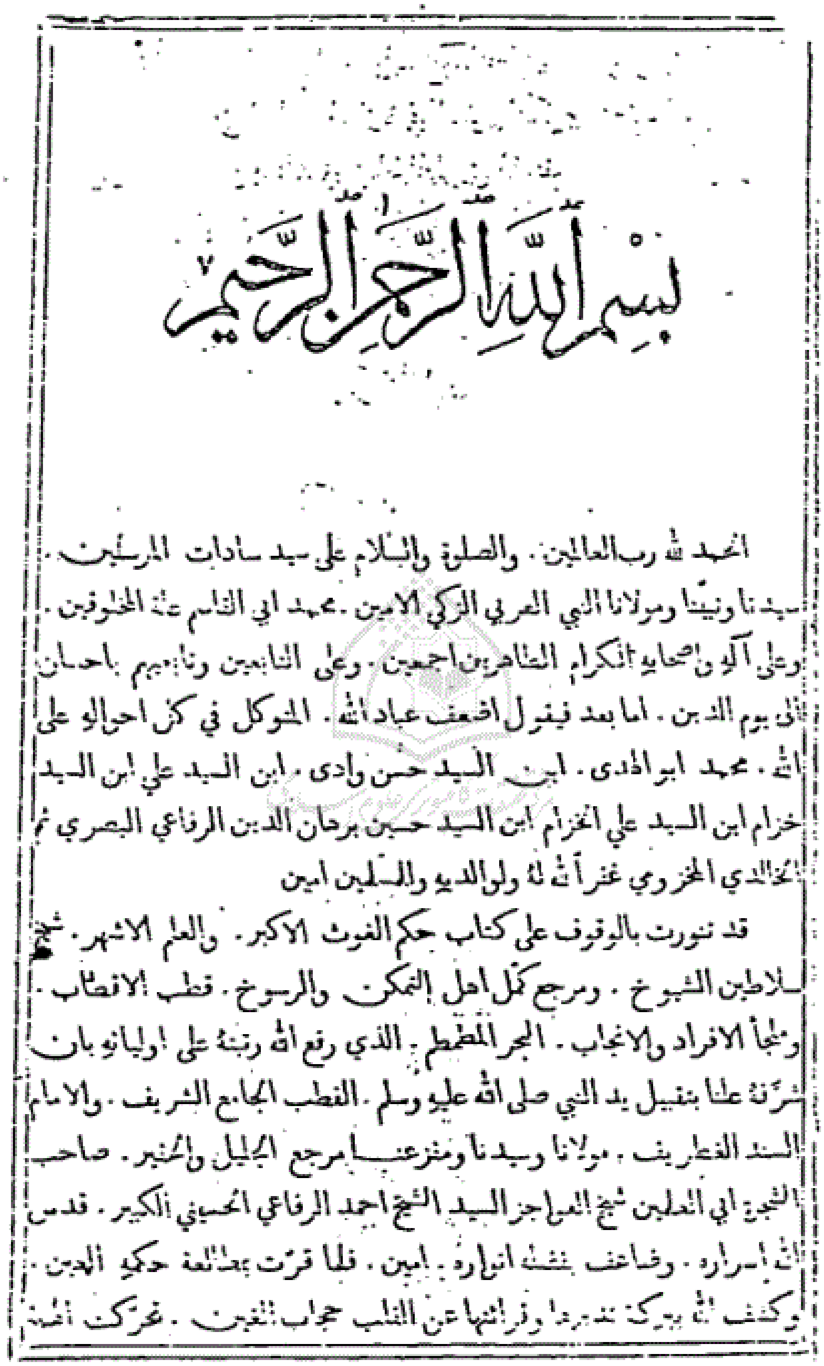
❀❀❀

كتاب

قلائد الزبرجد على حكم مولانا الغوث الشريف الرفاعي
احمد تأليف الاوحد الفهامة العلم العلامة الجامع
بين الرئاستين الوارث لجده الامام ابي العلمين
صاحب السماحة والسيادة السيد محمد
ابو الهدى افندي الرفاعي الخالدي
الصيادي لا زال شعاع فضله
منشوراً في كل نادي
الى يوم التنادي
آمين

م

صورة الغلاف



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلوة والسلام على سيد سادات المرسلين . سيدنا ونبينا ومولانا النبي العربي الزكي الامين . محمد ابي القاسم عند المخلوقين . وعلى آله واصحابه الكرام الطاهرين اجمعين . وعلى التابعين وتابعيهم باحسان الى يوم الدين . اما بعد فيقول اضعف عباد الله . المتوكل في كل احواله على الله . محمد ابو الهدى . ابن السيد حسن وادى . ابن السيد علي ابن السيد خزام ابن السيد علي الخزام ابن السيد حسين برهان الدين الرفاعي البصري ثم الخالدي المخزومي غفر الله له ولوالديه والمسلمين امين

قد تنورت بالوقوف على كتاب حكم الغوث الاكبر . والعلم الاشهر . شيخ سلاطين الشيوخ . ومرجع كل اهل التمكن والرسوخ . قطب الاقطاب . وملجأ الافراد والانجاب . البحر المطمطم . الذي رفع الله رتبته على اوليائه بان شرفه علنا بتقبيل يد النبي صلى الله عليه وسلم . القطب الجامع الشريف . والامام السند الغطريف . مولانا وسيدنا ومفزعنا ومرجع الجليل والحقير . صاحب الشجرة ابي العلمين شيخ العراق الحجاز السيد الشيخ احمد الرفاعي الحسيني الكبير . قدس الله اسراره . وضاعف علينا انواره . امين . فلما قرأت بمطالعة حكمه الدين . وكشف الله ببركة تدبرها وقراءتها عن القلب حجاب الغين . تحركت انفة

صورة الصفحة الأولى من قلائد الزبرجد

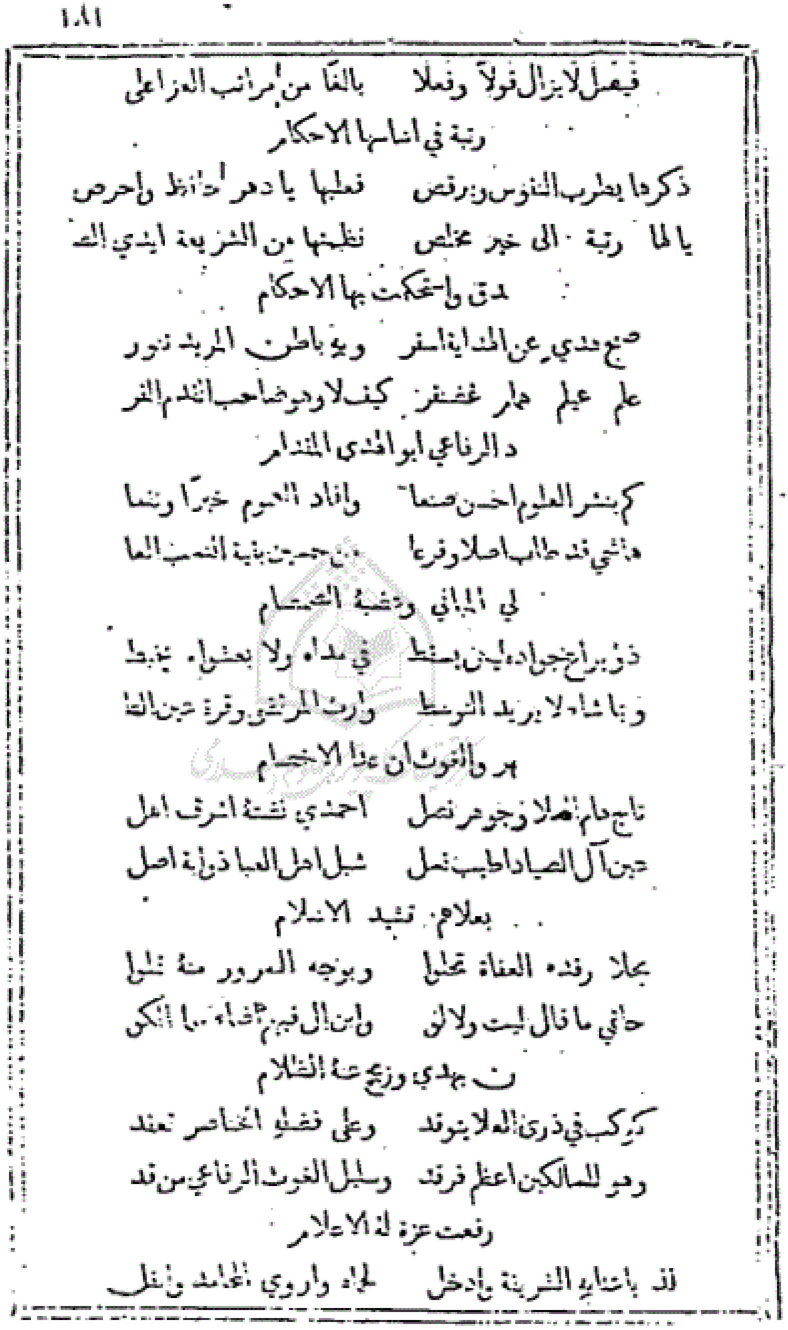
الثانية لشرح معانيها الجليلة . وايضاح ما انطوى فيها من وجيز المعاني الجزيلة .
منتصرًا فيها على المقاصد اللازمة في اسلوبها الكريم . مستمدًا من الله ببركة
ولاية صاحبها ان يسلك بي سواء الطريق المستقيم . فانه لا ملجأ ومنجى الا اليه
ولا يعول في كل الامور الا عليه . فتم بحمد الله المطلوب . وحصل المرغوب .
فكان تعليقًا لطيفًا . وشرحًا شريفًا . وسميته قلائد الزبرجد . على حكم مولانا
الغوث الشريف الرفاعي احمد . ايدنا الله ببركة ولايته ونفحاته . ونفع الله
المسلمين بعلومه الشريفة وبركاته . امين . وقد طاب لي ان اكتب المقدمة التي
ذكرها جامع الحكم الاحمدية المذكورة . صاحب العوارف المأثورة . والمناقب
المبرورة . علم العلماء . ونتيجة الفقهاء . الولي المقرب من الجناب الباسطي . مولانا
الامام علي ابو الفضل الشافعي الواسطي . قدس سره للتبرك به وبآثاره . وحصول
النفع باشارته . قال نفعنا الله به

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله . والصلاة والسلام على سيدنا ومولينا ونبينا محمد رسول الله .
وعلى آله وصحبه ومن والاه :

اما بعد فيقول فقير رحمة ربه علي ابو الفضل الواسطي الشافعي احسن
الله اليه بالعفو والغفران امين : رايت في خزانة الحبر النبيل . الغريق الاصيل .
الشيخ عبد السميع الهاشمي نفعنا الله بعلومه نسخة الرفاعي بخط السيد الكبير . والولي
المقدم الشهير . شيخ المشايخ . الجبل الراسخ . بحر المعارف . وكنز العوارف .
رب اليد البيضاء والمنقبة العظمى تاج اولياء عصره ابي العباس القطب الشريف
السيد احمد محيي الدين صاحب العلمين ابن السيد الجليل ولي الله ابي الحسن
علي الحسيني الرفاعي قدس الله سره ورضي عنه . وقد كتب على حاشيتها شيخنا
الشيخ عبد السميع الهاشمي بخطه هذه حكم الغوث الشريف سيدنا السيد احمد
الرفاعي الحسيني رضي الله عنه . نكرم بها علي وامرني بحفظها ورجي من الله
الذخائر لمن رفقه الله تعالى . انتهت بحروفها

صورة الصفحة الثانية من قلائد الزبرجد



١٨١

فيصل لا يزال قولاً وفعلا   بالغاً من مراتب العز اعلى
رتبة في اساسها الاحكام
ذكرها يطرب النفوس ويرقص   فعلها يا دهر احافظ واحرص
يالها رتبة الى خير مخلص   نظمتها من الشريعة ايدي الصـ
دق واحكمت بها الاحكام
صح هدي عن الهداية اسفر   وبه باطن المريد تنور
علم علم همام غضنفر   كيف لا وهو صاحب القدم الفر
د الرفاعي ابو الهدى المقدام
كم بنشر العلوم احسن صنعا   وافاد العموم خيراً ونفعا
هاشمي قد طاب اصلاً وفرعا   من حسين بنية المصطفى العا
لي المباني وخشية العصام
ذو يراع جواده لين بسط   في مداه ولا بخشواه يخبط
وبانشاه لا يريد التوسط   وارث المرتضى وقرة عين الطا
هر والغوث ان عدا الاحجام
تاج دام العلا وجوهر نصل   احمدي نشأة اشرف اهل
حين آل الصياد اطيب نسل   شبل اهل العبا ذرية اصل
بعلاه تشيد الاسلام
يجلا رفده العفاة تحلا   وبوجه السرور منه تملا
حاشه ما قال ليت ولا لو   وابن الي فيهم اقتداه بما الكو
ن يهدي ويزيح تنة الظلام
كوكب في ذرى العلا يتوقد   وعلى فضله الخناصر تعقد
وهو للسالكين اعظم فرقد   وسليل الغوث الرفاعي من قد
رفعت عزه له الاعلام
قد بانشائه الشريفة يا دخل   الجاه واروي الخامد وانقل

صورة من أصل قلائد الزبرجد

١٨٢

وبافعاله واقواله قل ... اعظم الاولياء قدراً وشجاً
كل ان شد في الخطوب حزام

من بها وبه سؤدداً وفخارا ... وعلاً ورفعة وافتخارا
اي غوث سواه كان نهارا ... لائماً راحة الرسول جهارا
بعد عصر والاربعون قيام

فبروحي دون الورى افديه ... من ولي بنا جدار بنيه
فهو في الاوليا وحق ابيه ... كنز سر نطلم البأس فيه
وشوى في وجيده الضرغام

ما سواه يوم الشدائد يرجى ... بعد طه الرسول حصناً ومنجا
كم رفعنا بالمشكلات فنجى ... ولنا بابنه اني افدي منجا
دل ذاك الدليل والالزام

حجة النور شيخهم في الانام ... مرشد الوقت نخبة الايام
قطبه الهاشمي شبل ضرام ... فرخة حائز الوراثة حامي
ركنها ان تحز حماه الشام

فربديه في الحقيقة مجد ... ولهم في منازل القرب مسعد
ومن الكشف حين فاز بمقعد ... الخمرة من اسراج سرج الند
بين كاس مدامة الاغام

فترى في عالم الشر والطي ... فجر صدق يمحو الضلالة والغي
ونبدي في هيكل مفرد الزي ... وعليه من مجد سيدنا النبي
اد درع طرازه الاحترام

يفتدى رشده الزمان تعطر ... فروى الانام عنه واخبر
وبدى يجلي باحسن مظهر ... ولنا هيبة خصيبة المطر
مرجلاً ما شيخ العراق خزامة

آل بيت مقدس قد كساهم ... خلع المجد ربهم واصطفاهم

صورة من أصل قلائد الزبرجد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

يقول فقير رحمة ربه علي أبو الفضل الواسطي الشافعي، أحسن الله إليه بالعفو والمغفرة آمين:

أما بعد..

رأيت في خزانة الحبر الجليل، العَريق الأصيل، الشيخ عبد السميع الهاشمي، نفعنا الله بعلومه، هذه الرِّقَاع بخط السيد الكبير، والولي المقدم الشهير، شيخ المشايخ، الجبل الرَّاسخ، بحر المعارف، وكَنــز العَوارف، رَب اليد البيضاء، والمنقبة العظمى، تاج أولياء عصره:

أبو العباس القطب الشريف، السيد أحمد محيي الدين صاحب العلمين، ابن السيد الجليل ولي الله أبي الحسن علي الحسيني الرفاعي قدَّس الله سرّه ورضي عنه.

وقد كتب على حاشيتها شيخنا الشيخ عبد السميع الهاشمي بخطه:

هذه حكم الغوث الشريف سيدنا السيد أحمد الرفاعي الحسيني ﷺ، تكرَّم بها عليَّ، وأمرني بحفظها، وهي من أنفس الذخائر لمن وفَّقه الله تعالى، انتهت بحروفها.

قلت: الشيخ عبد السميع الواسطي الهاشمي الذي ذكره صاحب المقدمة هو من أعيان نجباء بني العباس، ومن أفضل علماء عصره، كان من أكابر واسط، ومن خواص أفاضلها، أهل العلم والدين ثقةً، إمامًا حسن الرواية، معروفًا بالصدق والزهد والعبادة.

وهو من أجلّ خلفاء مولانا السيد أحمد ﷺ، وتنتهي نسبته إلى الأمير الشهير الهاشمي الكبير جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهم أجمعين.

قال شيخ الإسلام حافظ العصر عبد الرحمن جلال الدين السيوطي قُدِّس سرُّه في

كتابه: «رفع البأس عن بني العباس»، ما نصَّه:

عبد السميع بن أبي تمام عبد الله بن عبد السميع الهاشمي أبو المظفر الواسطي من ذرية جعفر بن سليمان الأمير، قرأ القرآن على المبارك بن أطرواس والقلانسي، ورحل إلى بغداد.

فقرأ على أبي الخطاب الجرّاح، وثابت بن بندار، وسمع من جعفر السراج، وعدة.

وُلد سنة ست وستين وأربعمائة.

ومات في ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وخمسمائة انتهى.

وقد أيّد الله هذه العائلة المباركة العباسية بخدمة سيدنا السيد أحمد والتلقي عنه.

فإن ولد مولانا الشيخ عبد السميع الهاشمي الواسطي المُشار إليه، الشيخ الحجة القدوة العلاّمة الفهّامة، ولي الله شرف الدين محمد بن عبد السميع الهاشمي الواسطي، هو الذي جمع كتاب البرهان المؤيد رواية من فم شيخنا وملجئنا، مرشد الإسلام، وشيخ الخواص والعوام، السيد أحمد الكبير ﷺ.

وبالجملة: فهم أهل بيت، رفع الله بهم أعلام الطريقة الأحمدية، وشيَّد بهم معالم السُنَّة السنية المحمدية، ولنرجع للمقصود فنقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد سادات المرسلين، سيدنا ونبيّنا ومولانا النبي العربي الزكي الأمين، محمد أبي القاسم علة المخلوقين، وعلى آله وأصحابه الكرام الطاهرين أجمعين، وعلى التابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد..

فيقول أضعف عباد الله، المتوكل في كل أحواله على الله، محمد أبو الهدى ابن السيد حسن وادي، ابن السيد علي ابن السيد خزام، ابن السيد علي الخزام، ابن السيد حسين برهان الدين الرفاعي البصري، ثم الخالدي المخزومي، غفر الله له ولوالديه وللمسلمين آمين.

قد تنورت بالوقوف على كتاب حكم الغوث الأكبر، والعلم الأشهر شيخ سلاطين الشيوخ، ومرجع كمّل أهل التمكن والرسوخ، قطب الأقطاب، وملجأ الأفراد والأنجاب، البحر المطمطم الذي رفع الله رتبته على أوليائه، بأن شرّفه علنًا بتقبيل يد النبي ﷺ القطب الجامع الشريف، والإمام السند الغطريف، مولانا وسيدنا ومفزعنا، مرجع الجليل والحقير، صاحب الشجرة، أبي العلمين، شيخ العواجز، السيد الشيخ أحمد الرفاعي الحسيني الكبير، قدّس الله أسراره، وضاعف بفضله أنواره آمين.

فلما قرّت بمطالعة حكمه العين، وكشف الله ببركة تدبرها وقراءتها عن القلب حجاب الغبن، تحركت الهمّة القلبية لشرح معانيها الجليلة، وإيضاح ما انطوى فيها من وجيز المعاني الجزيلة، مقتصرًا فيها على المقاصد اللازمة في أسلوبها الكريم، مستمدًا من الله ببركة ولاية صاحبها أن يسلك بي سبحانه الطريق المستقيم، فإنه لا يُلتجأ وحقه إلا إليه، ولا يُعوَّل في كل الأمور إلا عليه، فتمَّ بحمد الله المطلوب، وحصل المرغوب، فكان تعليقًا لطيفًا، وشرحًا شريفًا.

وسميته: «**قلائد الزبرجد على حكم مولانا الغوث الشريف الرفاعي أحمد**».

أيّدنا الله ببركة ولايته ونفحاته، ونفعنا الله والمسلمين بعلومه الشريفة وبركاته آمين.

وقد طَابَ لي أن أكتب المقدمة التي ذكرها جامع الحكَم الأحمدية المذكورة، صاحب

العوارف المأثورة، والمناقب المبرورة، علم العلماء، ونتيجة الفقهاء، الولي المقرَّب من الجناب الباسطي، مولانا الإمام علي أبو الفضل الشافعي الواسطي قدّس سره المتبرَّك بعبارته، وحصول النفع بإشارته، قال نفعنا الله به:

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا ونبينا محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

مقدمة صاحب الحكم

قال سيدنا صاحب الحكم ﷺ:

[بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، من العبد اللاش أحيمد إلى الشيخ المحتشم أخينا عبد السميع الهاشمي، كان الله لنا وله وللمسلمين آمين.

أي أخي. أوصيك بتقوى الله، واتّباع سنة رسوله ﷺ، وأحب أن تحرص على نصيحتي هذه؛ فهي نافعة لك ولأمثالك إن شاء الله، وإيّاك أن تودعها غير أهلها فتظلمها].

ابتدأ ﷺ كتابه المبارك بالبسملة والحمد لله، والصلاة على رسول الله ﷺ؛ عملاً بقوله عليه السلام: «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لاَ يُبْدَأ فِيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع** [1]».

وامتثالاً لقوله ﷺ: «**كل أمرٍ ذي بالٍ لا يُبْدَأ فيه بحمدِ اللهِ والصلاة عليَّ فهو أقطع أبتر، مسحوق من كل بركةٍ** [2]».

وقد ذكر الصالحين الكرام بخير، وحقق نفسه الزَّكية بمقام العبودية، فعَنون نفسه الرَّضية بالعبد تمكنًا ووقوفًا عند حَدِّ العبدية الذي هو منتهى كل مخلوقٍ.

طهَّر الله قلبه من لوث الأغيار، ثم وصف نفسه باللاش: أي الذي لا شيء ولا على شيءٍ؛ انقهارًا تحت سطوة الربوبية، وتجرُّدًا من علائق النفس والبشرية، واستنادًا محضًا إلى الله تبارك وتعالى.

ثم اتبع كل ذلك تأكيدًا بتصغير اسمه المبارك، فقال: (أحيمد) وعظّم مخاطبه حال كونه من أصحابه وأتباعه، فوصفه بالشيخ المحتشم.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/١٥٦)، والمناوي في فيض القدير (٥/١٣).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٤/٩٠)، وابن ماجه (١/٦١٠)، وابن حبان (١/١٧٤).

وصدَّر وصيته له بتقوى الله واتِّباع سنة رسوله ﷺ؛ اقتداءً بالنبي المكرَّم ﷺ، فإنه قال ﷺ لرجلٍ قال له: أوصني، قال: «عَلَيْكَ بتقْوَى الله؛ فإنها جماعُ كل خيرٍ[1]».

وقال ﷺ: «مَنْ تمسَّك بسنتي عِنْدَ فَسَاد أمتي فله أجرُ مائة شهيد[2]».

ثم أمره بالحرص على نصيحته؛ حرصًا على حصول النفع لأخيه المسلم، عملاً بقول الله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢].

وتحققًا بقول رسول الله ﷺ:

«إنَّ الدِّين النَّصيحة، إنَّ الدِّين النَّصيحة، إنَّ الدِّين النَّصيحة، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم[3]».

وقد أوضحت معنى هذا الحديث الشريف في رسالتي: «داع الرشاد»، حسبما قرره أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين، فقلت: النصح لله تعالى هو الإقرار والتصديق بوحدانيته، وكماله، وقدرته، وتنـزيهه عن كل نقصٍ، مع الخضوع له، والرِّضا منه في كل حالٍ، والائتمار بما أُمر به، والانتهاء عمَّا نُهي عنه، والنصيحة لكتابه تعالى حفظه من التحريف والتأويل الباطل.

وتعظيم أحكامه الشريفة بالتأويلات الصحيحة، وقراءته وتلاوته بالأدب والتجويد، ورعاية معانيه وتعليمها لذي القدرة من عباد الله.

والنصح لرسوله ﷺ، والتصديق بكافة الأحكام التي جاء بها ﷺ، مع حسن التخلق بأخلاقه الجميلة الشريفة، والعمل بطريقته وشريعته.

---

(١) رواه الطبراني في الصغير (٢/١٥٦)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٠١).

(٢) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (١/٤١).

(٣) رواه أبو داود (٤/٢٨٦)، والطبراني في الأوسط (٤/١٢٢).

والترغيب بالوسائل الممدوحة؛ للتأدب بآدابه ﷺ، والنصح لأئمة المسلمين يعني من حاز الإمامة الكبرى والخلافة العظمى، هو أنه إذا غفل الأمير حسب البشرية عن قضيةٍ لازمةٍ في ملكه لإصلاح أمر الرعية وتشييد الأركان الدينية.

يعرض له الناصح حقيقة الحال بحسن التعبير بلا غرضٍ ولا آمالٍ، وأن يجمع له القلوب النافرة عنه، ويجلبها بالأساليب الممدوحة لمحبته، ويدفع عنه حركة الفساد، ويقطع بحسن نصيحته عنه ألسنة أهل البغي والعناد، ويشتغل بصالحه وقضاء مصالحه على مقتضى إمكانه.

والنصح للمسلمين هو الشفقة عليهم والتعظيم لكبيرهم، والمرحمة لصغيرهم، والفرح لفرحهم، والحزن لحزنهم.

وهذا هو المقصود من قوله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٧١].

وقد حذّر ﷺ خليفته الشيخ عبد السميع قُدّس سرُّه من إيداع الحكمة غير أهلها؛ لأن الحكمة إذا استودعت عند غير أهلها الذين لا يعرفون قدرها، ولا يُدركون شرف النتيجة المقصودة منها يهملونها، فتضيع وتبقى في زوايا الكتمان محجوبة عن أهلها فتُظلم، وما أحسن قول القائل:

وَمَن مَنَحَ الجُهَّال عِلمًا أَضَاعَهُ ... وَمَن مَنَعَ المُستَوجِبِين فَقَد ظَلَمَ

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

فإنه وإن يكن سبب نزول هذه الآية خاصًا فإن معناها شاملٌ عامٌّ، ونتائجه لا تخفى على ذي طبعٍ سليمٍ.

***

الحكمة الأولى

ثم قال المؤلف ﷺ:

[أيْ عَبْد السَّمِيْع: الفَقِيرُ إذَا انْتَصَرَ لِنَفْسِهِ تَعِبَ، وإذا سَلَّمَ الأمرَ إلى اللهِ تَعَالَى نَصَرَهُ من غيرِ عشيرةٍ ولا أهلٍ].

أراد بذلك التفويض إلى الله، والتسليم له سبحانه، والتوكُّل عليه.

عملاً بقول النبي ﷺ: «إنَّ مِنْ أخلاق المؤمن قوةً في دينٍ، وحزمًا في لينٍ، وإيمانًا في يقين، وحرصًا في علمٍ، وشفقةً في ثقةٍ، وحلمًا في علمٍ، وقصدًا في غنًى، وتحملاً في فَاقةٍ، وتخرجًا عن طَمعٍ، وكسبًا في حلالٍ، وبرًّا في استقامةٍ، ونشاطًا في هدًى، ونهيًا عن شهوةٍ، ورحمة للمجهود[1]».

وإن المؤمن من عباد الله لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب، ولا يضيع ما استودع، ولا يحسد ولا يطعن ولا يلعن، ويعترف بالحق وإن لم يشهد عليه، ولا يتنابز بالألقاب. في الصلاة متخشعًا، إلى الزكاة مرعًا، في الزلازل وقورًا، في الرخاء شكورًا، قانعًا بالذي له، لا يدَّعي ما ليس له، ولا يجمع: أي يعزم في الغيظ، ولا يغلبه الشح عن معروفٍ يريده، يخالط الناس كي يعلم، ويناطق الناس كي يفهم، وإن ظلم وبغي عليه صبر حتى يكون الرحمن هو الذي ينتصر له.

وقال رسول الله ﷺ: «أريت الأمن بالموسم، فرأيت أمتي قد ملأت السهل والجبل، فأعجبني كثرتهم وهيئتهم، فقيل: أَرَضِيْتَ، قلت: نعم، قال: ومع هؤلاء سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حسابٍ، لا يكنـــزون ولا يطرون ولا يسرفون، وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشة الأسدي فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله ﷺ: اللهُمَّ اجْعَلَه مِنهُم، فقام آخر فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال ﷺ: سبقك بها عكاشة[2]».

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (٤/١) بنحوه.

(٢) رواه البخاري (٥/٢٣٩٦).

وقال ﷺ: «**لو توكلتم على الله حق اتكالكم لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**[١]».

قلت: ولا يخفى أن التوكل: الرِّضا بأفعال الله تعالى ﷻ، وإلا فالسعي بأمر الرزق والتدبر لدفع المضرة داخلٌ تحت أمر الله ورسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿**فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ**﴾ [المائدة: ١٥]، فأمر بالسعي في طلب الرزق.

وقال النبي ﷺ لرجلٍ جاءه على ناقةٍ فقال: «**يا رسول الله أدعها وأتوكل؟ فقال: اعقلها وتوكل**[٢]».

فمن هذا عُلم أن التوكل: الاكتفاء بالله والاعتماد عليه، وإسقاط النظر إلى الأغيار والأسباب، والإخلاص برابطة النيَّة مع الله سبحانه وتعالى، ونفي المشكوك والتفويض إليه جلّت عظمته، وحسن الظن به في جميع الأحوال، وهو سبحانه ظهير اللاجئين، وموئل المتوكلين.

***

الحكمة الثانية

قال المؤلف ؓ:

[العَقْلُ كنــزُ الفوائدِ، وكيمياءُ السَّعَادَةِ].

ورد في الخبر: «إن أول ما خلق الله العقل، فقال له: اقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقًا أعزُّ عليَّ مِنْكَ، بِكَ أعطي، وبك أحاسب،

---

(١) رواه أبو يعلى في المسند (١/٢١٢).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٢/٨٠).

وبك أعاقب، وبك أعز، وبك أذل[١]».

وجاء في الحديث: «**الناس يعملون الخيرات، وإنهم يُعطون أجورهم يوم القيامة على قدر عقولهم**[٢]».

وقال المؤلف ﷺ في كتابه «البرهان المؤيد» ما نصُّه:

قال علي أمير المؤمنين الكليلا:

دَوَاؤُكَ مِنْكَ وَمَا تُبْصِرُ ... وَدَاؤُكَ فِيكَ وَمَا تَشْعُرُ
وَتَزعُمُ أنَّكَ جِرمٌ صَغِيرٌ ... وَفِيكَ انْطَوى العَالَمُ الأكْبَرُ

العالم الأكبر: العقل، وقد انطوى بك، ومن العالم المطوي فيك يظهر لك جرمك الذي استصغرته؛ إذ لولا وصول جرمك إلى الغاية التي تحيط بذلك العالم الأكبر وتليق له لما صار محلاً للعالم المذكور.

فخذ بالهمة العلية على مقدار ما بلغه جرم هيكلك من الإحاطة بالعالم الأكبر، الذي يمتد شعاع مادته إلى كل مقامٍ، وتنتهي بوارق رسله إلى كل خيطةٍ، وتشق عزائم مداركه صف كل معمعةٍ، وتبلغ نجاب فكرته إلى كل حضرةٍ به.

الله يعطي، ويمنع، ويصل، ويقطع، ويفرق، ويجمع، ويضع، ويرفع، وعليه جعل مدار الأكوان، وهو أول مخلوق من المواد الكبرى الآدمية.

أنبأنا الحبيب الكريم، والسيد العظيم، عليه صلوات الله وتسليماته أن أول ما خلق الله العقل[٣]، فإذا علمتم ما انطوى فيكم عظّمتم شأن ذواتكم، واحتفلتم بإعلاء شرف صفاتكم حتى تسمو عن منـزلة الحجاب بالقوة، بالجمال، بالمال، بالأهل، بالعشيرة،

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (١٩٠/٧)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢٧٥/١).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (١٥٥/٤).

(٣) رواه الديلمي في مسند الفردوس (١٣/١)، وقال الشيخ الرفاعي: قال ابن حبان في روضة العقلاء: غير صحيح لكن قال الزبيدي في شرح الإحياء: وقد ورد في العقل أحاديث صححها بعض الأئمة.

بالمنصب، بالرئاسة.

قال إمامنا الشافعي ﷺ:

وَكُــل رِئَاسَــةٍ مِــن غَيرِ عِلمٍ أَذَل مِــن الجُلُــوس عَلَــى أكنَاسِهِ

العقل عاقل العلم، لا يتم شرف العلم للمخلوق إلا بالعقل.

قال جماعة بإعلاء قدر العلم على العقل، ولكن ذلك بالنسبة إلى الله؛ لأن العلم صفته تعالى، والعقل صفة المخلوق، وأما بالنسبة إلى علمنا وعقلنا فعقلنا أجلُّ مرتبة، وأرفع منـــزلة من علمنا؛ إذ لولا العقل لما تم لنا العلم، العاقل يكبو ويصرع، ولكن يُؤمل له النجاح ويُرجى له الخير، والأحمق يصرع ويكبو، ويخشى عليه القطيعة وعدم النجاح، العاقل من فهم حكمة الدين.

بلغنا عن الإمام علي أمير المؤمنين كرّم الله وجهه ﷺ أنه قال:

«كُلُّ عَقْلٍ لم يحطْ بالدينِ فَلَيْسَ بعقلٍ، وكُلُّ دينٍ لم يحطْ بالعقلِ فليس بدينٍ[1]».

هذا الدين أتى بأحكامٍ ألزمنا المبلّغ ﷺ الاجتناب عنها، ووعد وأوعد، فإذا تريَّض العقل بالعمل، والاجتناب يصل إلى الإحاطة بسر الوعد والوعيد.

وقال المؤلف ﷺ في محلٍ آخرٍ من كتابه «البرهان المؤيد[2]»:

أي أخي.. كل واحدٍ منّا مسكين، أوله مضغة، وآخره جيفة، شرَّف هذا العرض جوهر العقل، والعقل ما عقل النفس وأوقفها عند حدِّها، فإذا لم يكن عقل المرء عاقلاً لنفسه موقفًا لها عند حدِّها في أخذها وردِّها فليس بعقلٍ، وإذا حُرم المرء الجوهر ذهب شرفه، وبقي عرضًا ثقيلاً كثيفًا، لا يليق لمرتبةٍ عزيزةٍ، ولا لمنصبٍ نفيسٍ، وإذا تمّ عقله وكَمُل صار الحكم فيه للجوهر المحض، فصلح أن يكون على تيجان الملوك والأكاسرة.

---

(١) انظره في: (ص١٩).

(٢) انظره فيه (ص٢٩).

وأول مراتب العقل: الانخلاع عن الأنانية الكاذبة، والدعوى الباطلة، وصولة الفتق والرتق والوهب والسلب، وإذا حكمه المقام وصار صفة عليه أيضًا فاللازم عليه أن يعرف مبتدأه الطيني ومنتهاه الترابي، وأن يقف بين هذه البداية والنهاية بما يناسبهما من قولٍ وفعلٍ.

فلما تعين أن العقل جالب المنافع بإذن الله ودافع المكاره، وبه العطاء والمنع والوضع والرفع، علم ما أضمره الغوث الأكبر ﷺ في وجيز عبارته ولطيف إشارته، وظهر لكل ذي فهمٍ أن العقل كما عبَّر عنه قُدِّس سرُّه كنـــز الفوائد، وكيمياء السعادة[1].

---

(١) فائدة جليلة: قال سيدي عبد الله الشرقاوي: والعقل يُطلق على معان أربعة:

الأول: الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم، وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذي أراده المحاسبي بقوله: هو غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نورٌ يُقذف في القلب، به يستعد لإدراك الأشياء.

الثاني: العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الواحد لا يكون في مكانين، وهو الذي عناه بعض المتكلمين حيث قال في حد العقل: إنه بعض العلوم الضرورية، كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات. وهذا صحيحٌ في نفسه؛ لأن هذه العلوم موجودة، فلا يبعد تسميتها عقلاً، وإنما الفاسد إنكار الغريزة المتقدمة، والقول بأن لا موجود إلا تلك العلوم، فإن الغافل عن العلوم والنائم يُسميّان عاقلين باعتبار وجود الغريزة فيهما، مع فقد العلوم عندهما.

الثالث: علوم تُستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب.

يُقال: إنه عاقل في العادة، ومن لا يتصف بذلك يُقال: إنه غبي غمر جاهل، فهذا نوع آخر من العلوم يُسمَّى عقلاً.

الرابع: أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً؛ لأن إقدامه وإحجامه حينئذٍ يصيران بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة. وهذا هو المراد في قوله ﷺ لأبي

=

الدرداء ﷺ: ((ازدد عقلاً تزد من ربِّك قربًا، فقال: بأبي أنت وأمي وكيف لي بذلك؟ فقال ﷺ: اجتنب محارم الله تعالى، وأدِّ فرائض الله سبحانه تكن عاقلاً، واعمل بالصالحات من الأعمال تزدد في عاجل الدنيا رفعة وكرامة، وتنل بها من ربِّك ﷻ القرب والعزة)).

وفي حديثٍ آخرٍ: ((إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته)).

وهذه الأقسام الأربعة يتفاوت فيها الناس ما عدا الثاني، وهو العلم الضروري بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات.

أما القسم الأول فلأنه نور يشرق على النفس، ومبادئ إشراقه عند سن التمييز.

وقيل: من الاجتنان، ثم لا يزال ينمو ويزداد شيئًا فشيئًا على التدريج، إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة كنور الصبح، فإن أوائله تخفى حتى يشق إدراكه، ثم يأخذ في الزيادة على أن يكمل بطلوع الشمس، بل سنة الله جارية في جميع خلقه بالتدريج شيئًا فشيئًا، فإن الشهوة لا تظهر في الصبي عند البلوغ بغتةً بل على التدريج، وكذلك جميع الصفات، ومما يدل على تفاوت الناس في ذلك عقلاً اختلافهم في فهم العلوم وانقسامهم إلى: بليد لا يفهم إلا بعد تعب، وذكي يفهم بأدنى إشارة، وكامل ينبعث في نفسه حقائق أمور دون تعلم كالأنبياء وبعض الأولياء، ونقلاً ما رُوي أن ابن سلاَّم سأل رسول الله ﷺ في حديث طويل في آخره وصف عظم العقل: ((وإن الملائكة قالت: يا رب هل خلقت شيئًا أعظم من العرش؟ قال: نعم، العقل، قالوا: وما بلغ من قدره؟ قال: هيهات لا يُحاط بعلمه، هل لكم علم بعدد الرمل؟ قالوا: لا، قال ﷻ: فإني خلقت العقل أصنافًا شتى كعدد الرمل، فمن الناس من أعطي حبة، ومنهم من أُعطي حبتين، ومنهم من أُعطي الثلاث والأربع، ومنهم من أُعطي فرقًا، ومنهم وسقًا، ومنهم أكثر من ذلك)).

وأما الرابع: وهو استيلاء القوة على قمع الشهوة فلا يخفى تفاوت الناس فيه، بل الشخص الواحد تتفاوت أحواله، وهذا التفاوت تارة يكون لتفاوت الشهوة؛ إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض، وقد يعجز الشاب عن ترك الزِّنا فإذا كبر وتم عقله قدر عليه، وشهوة الرياء والرئاسة تزداد قوةً بالكبر لا ضعفًا، وقد يكون بتفاوت العلم المُعرِّف لغائلة تلك الشهوة.

ولهذا كان العالِم أقدر على ترك المعاصي من العامي؛ لقوة علمه بضررها.

وقد يكون التفاوت غريزة العقل، فإنها إذا قويت كأن كان قمعها للشهوة أشد.

الحكمة الثالثة

ثم قال المؤلف ﷺ:

[العِلْمُ شَرَفٌ فِي الدُّنْيَا، وعِزٌّ فِي الآخِرَةِ].

قلت: ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ: «العلماءُ أمناء اللهِ عَلَى خَلْقِهِ[1]».

وقال ﷺ: «العلماءُ أمناء أمتي[2]».

وقال أجلّ الله مقامه الكريم: «العلماءُ مصابيح الأرض، وخلفاء الأنبياء، وورثتي وورثة الأنبياء[3]».

وقال ﷺ: «العلمُ ميراثي وميراث الأنبياء من قبلي[4]».

وقال ﷺ: «العلم خليل المؤمن، والعقل دليله، والعمل قيمه، والحلم وزيره، والصبر أمير جنوده، والرفق والده[5]».

وقال: «واللين أخوه[6]».

والعلم ثلاثة:

- كتابٌ ناطقٌ.
- وسُنةٌ ماضيةٌ.
- ولا أدري.

=

وكذا الثالث: وهو علم التجارب فإن الناس يتفاوتون فيه بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك، ويكون سبب ذلك إما تفاوت في الغريزة أو في الممارسة.

(١) رواه القضاعي في الشهاب (١/١٠٠)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/٨٤).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٣/٧٦)، وذكره المناوي في فيض القدير (٤/٣٨٣).

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/٨٤).

(٤) ذكره المناوي في فيض القدير (٤/٣٩١).

(٥) رواه البيهقي في الشعب (٤/١٦١)، والديلمي في الفردوس (٣/٦٩).

(٦) ذكره ابن حجر في لسان الميزان (٥/٣٤٢).

وقد ميَّز الله بين العلماء وبين غيرهم، وشرَّفهم عليهم وأجلَّهم.

فقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وألزم الله الناس بالتشبث بأذيال خواصهم الذين هم العلماء.

فقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وقد عرَّف أئمة الدِّين العلم فقالوا: هو درك حقائق الأشياء مسموعًا ومعقولاً.

وأعظم النبي الكريم شأن العلم، فقال ﷺ: «**قليلُ العملِ ينفعُ مَعَ العلمِ، وكثيرُ العملِ لا ينفعُ مع الجهلِ**[١]».

وكفاك في مدح العلم وذم الجهل قول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

أقول: من لوازم العلم الإعراض عن أهل الجهل، وصم السمع عن أقوالهم، وكف الطرف عن أحوالهم، وجمع الهمة على إهمالهم.

وما أحسن ما قاله في هذا الباب الإمام أبو إسحاق القرطبي رحمه الله وهو:

إِذَا سَبَّ عرضِي نَاقِصُ القَدرِ جَاهِلٌ ... فَلَيسَ لَـهُ إِلاَّ السُّكُوت جَوَاب

أَلَـم تَـرَ أَنَّ اللَّـيث لَيسَ يَضُرُّه ... إِذَا نَـبَحت يَـومًا عَلَـيهِ كِـلاَب

وقد أمر السيد العظيم عليه أفضل الصلوات والتسليم بطلب العلم، وحرَّض عليه وحث كل الحث على استحصاله، فقال: «**اطْلُبوا العلمَ ولو بالصين، فإنَّ طلب العلم فريضة على كل مسلمٍ**[٢]».

«**إنَّ الملائكةَ تضع أجنحتها لطالبِ العلم رضا بما يطلب**[٣]».

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٤/٥٢٦)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/١١١).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٢/٢٥٣)، وذكره المناوي في فيض القدير (١/٥٤٢).

(٣) رواه الترمذي (٥/٥٤٦)، وابن حبان (٤/١٤٨).

وقال ﷺ: «إنما العلم بالتعلم..[1]» الحديث.

وقد صدرت أوامره الشريفة المحمدية وتشرفت بها بطون الدفاتر معلنة بإجلال أهل العلم والتجافي عن زللهم.

ومنها: قوله ﷺ: «تجاوزوا عن ذنب السخي، وزلة العالم، وسطوة السلطان العادل، فإن الله تعالى آخذٌ بيدهم كلما عثر عاثر منهم[2]».

وذلك لأنهم أسباب المنافع لخلق الله تعالى.

وقد قال ﷺ: «**خيرُ النّاسِ أنفعهم للناسِ**[3]».

ولا يخفى أن السخي ينفع الناس بماله، والعالم ينفع الناس بعلمه، والسلطان العادل ينفع الناس بعدله، وفيهم قوام الأمر.

ألا ترى قول رسول الله ﷺ: «جالسوا الكبراء، وسائلوا العلماء، وخالطوا الحكماء[4]»، وذلك للانتفاع بمآثرهم التي منَّ الله تعالى عليهم بها.

وقد عدَّ الناس مراتب العلم وأهله وأحسنها منـزلة، وأشرفها مرتبة:

العلم الدَّال على الله، الموضح لشريعة رسول الله ﷺ.

وأشرف مراتب العلماء:

مرتبة التخلق بخلقه ﷺ بإتقان العلم بالعمل اتِّباعًا لا ابتداعًا قال الله تبارك وتعالى: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور: ٦٣].

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٣/١١٨)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٢٨).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٣/٢٢٨) بنحوه.

(٣) رواه القضاعي في الشهاب (٢/٢٢٣)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/٤٧٢).

(٤) رواه ابن أبي شيبة (٥/٢٣٤)، والطبراني في الكبير (٢٢/١٣٣)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/٣٩٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

قال صاحب الجوهرة:

وَكُل خَيرٍ في اتّباع مَن سَلَف وَكُــل شَرٍّ في ابْتِدَاع مَن خَلَف

وقد أتيت بكلماتٍ لطيفةٍ في كتابي: «ضوء الشمس[١]» نظمتها من كلمات السلف الصالح، مصدرة بحديثٍ نبويٍّ جليل المفاد، ولمناسبتها لهذا المقام أوردتها بحروفها، وهي:

«لما منَّ الله على البرية بوصول نوبة البعثة على نبينا المعظم ﷺ، انطمس شهاب نار الكفر، ولمع شعاع نور الذكر، وتمَّ ببركته ﷺ ما نقص من مكارم الأخلاق.

وانتشر بهمته المحمدية علم العدل والصلاح في الآفاق؛ لكونه جمع ما تفرق في إخوانه النبيين والمرسلين من الهمم والشّيَم، والأخلاق العليَّة الزكيَّة، والأوصاف الحميدة المرضية، فلم يبقَ خصلة محمودة إلا أوصل إليها ودلَّ عليها، و لم يترك خصلة مذمومة إلا نهى عنها وحذر منها.

وجمعت شريعته الطّاهرة شتات الأحكام الصالحة، فصارت تجارة الخلق ببركة رسالته رابحة، وسرى سر خلافته في العوالم، وعلم الثقلان أنه ﷺ أشرف نائب عن الربوبية وأعدل حاكم.

فإذا فهمت ذلك علمت ما للنوع الإنساني من التّكرمة عند الله، وأدركت أن أشرف أنواع الخلق الإنساني وأعلى مراتب الإنسان: خلافة الله.

وأعلى مراتب خلافة الله: الرسالة.

وأعلى مراتب الرسالة: مرتبة أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وأعلى مراتبهم وأجمعها دعوةً، وأعظمها شرفًا، وأجلّها قدرًا، وأرفعها ذكرًا، وأطولها

(١) وهو في شرح حديث: «بني الإسلام على خمس» يسر الله لنا تحقيقه.

سنامًا وأشمخها مقامًا: الرسالة المحمدية، التي اختصَّ الله بها سيد البرية ﷺ.

فهو قطب الدائرة، ومفتاح باب سعادة الدنيا والآخرة، وهو ختم الختم، ومحل الإفشاء والكتم، فكمال غيره كمال عن نقصٍ، وكماله كمال عن كمالٍ، أوتي جوامع الكلم، وانقطعت به نبوَّة التشريع.

وقد أُرسل وكان نبيًّا وآدم بين الماء والطين.

وغيره ما كان نبيًّا إلا بعد تحصيل شرائط النبوة، فجميع النبوات والرسالات والولايات مدرجة في نبوته وولايته ورسالته ﷺ.

وقد تبين لك أن الإنسان ثمرة العالم، وأن عين الإنسان وعين إنسانه نبينا المعظم ﷺ، وهو رسول الله إلى الخلق كافةً.

والأصل في رسالته بالنسبة إلى الخلق الدلالة على الله، والإرشاد إلى الله، وقود الخلق إلى مكارم الأخلاق.

ولهذا المعنى نزلت الكتب، وشُرِّعت الشرائع والسنن، وضُربت الأمثال والمواعظ، واحتيج إلى الأنبياء والملوك والعلماء والوزراء والأعوان والإخوان والأصدقاء، وندب الاقتداء، ولولا ذلك لم يحتج أحدٌ إلى أحدٍ، بل اكتفى كل أحدٍ بنفسه.

وعلى هذا المعنى ترتب الجزاء والعقاب، والمدح والذم.

فما رأيناه سبحانه وتعالى أثنى على أحدٍ إلا بعملٍ، ولا ذم أحدًا إلا بعملٍ، ولا أوعد إلا على عملٍ.

وقال تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣].

وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، جعل التقوى سببًا لذلك وهي عملٌ.

وقال تعالى أيضًا: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

ومن معنى الندب على الاقتداء قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ [الكهف: ٢٨]، وغير ذلك من الآيات الكريمة.

ومن هذه المعاني قول النبي ﷺ: «**الكَيِّسُ: مَنْ دَانَ نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز: من اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني**[1]».

وقوله ﷺ: «**لا تجالسوا كل عالمٍ إلا عالمًا يدعوكم من خمسٍ إلى خمسٍ: من الشكِّ إلى اليقينِ، ومن الكِبَرِ إلى التواضعِ، ومن الرياءِ إلى الإخلاصِ، ومن الرغبةِ إلى الزهدِ، ومن العداوةِ إلى النصيحةِ**[2]».

فمن ذلك يُعلم لديك أن النبيَّ ﷺ لما كانت رسالته الجامعة وشريعته الشريعة الناسخة، وهو المبعوث لتكميل مكارم الأخلاق.

أوضح الطرق، وفتح الأبواب، ومهّد المناهج، وسهّل الأسباب، ولزم على كل ذي طبعٍ كريمٍ وقلبٍ سليمٍ أن يتمسك بحبل شريعته، وأن يتشبث بذيل طريقته، وأن ينحرف عن صحبة الجاهلين، ويجتنب مودة الفاسقين على أن الطبع البشري سرّاق، قريب المأخذ، كالماء يتلون بلون إنائه، ويتشبّه بشكل رفقائه.

ومن هذا قول علي أمير المؤمنين كرّم الله وجهه ورضي الله عنه:

فَلا تَصْحَبْ أَخَا الجَهْلِ ... وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ
فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرْدَى ... حَكِيمًا أَخَاهُ

---

(١) رواه الترمذي (٦٣٨/٤)، والحاكم في المستدرك (١٢٥/١).

(٢) ذكره ابن حجر في لسان الميزان (٣٢٩/٥) بنحوه.

يُقَاس المَرءُ بِالمَرء إِذَا مَا هُو مَا شَاه
وللشَيء عَلَى الشَّيء مَقَايِيسٌ وَأَشبَاه

وله كرَّم الله وجهه:

لا تُصحَب الكَسلان في حَالاتِه كَم صَالِحٍ بِفَساد آخَر يَفْسَد
عَدَوى الجَليد إلى البَليد سَريعة وَالجَمر يُوضَع في الرمَاد فَيُخمد

فاحكم النظر في مقصدك، واعمل واعلم أن العمل هو السبب، والسبب: الباب لنيل سعادتي الدَّارين.

أَلَم تَرَ أَنَّ الله قَالَ لِمريم وَهُزِّي إِلَيك الجذع يُسَاقِط الرُّطب
وَلَو شَاء أَحنَى الجِذع مِن غَير هزِّهَا وَلَكِنَّمَا الأَشيَاء يَجرِي لَهَا السَّبب

ولا تكمل السعادة إلا بكمال الاقتداء به ﷺ، ومن رام حصول السعادة الأبدية، و لم يقتدِ به ﷺ، فمثله كمثل أولاد الفقهاء يريدون التصدر للتدريس والإفتاء، والتقدم على النظراء من غير تحصيلٍ، ولا خدمة للعلماء، ويصعب عليهم الوضع من منازلهم عند أقرانهم.

وأولاد الشيوخ يريدون التظاهر بأحوال آبائهم بلا مجاهدةٍ ولا عبادةٍ.

وأولاد التجار يريدون التشبه بآبائهم في الإنفاق مع ترك الاكتساب، فتسرع أموالهم إلى الذهاب، فكل من فعل ذلك فهو ظالمٌ في طرقه إلى مقصده.

قال تعالى: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، فهم لا محالة يعدمون العقول، ويحرمون الوصول لتضييع الأصول في ارتكاب المشاق، ومعالجة السباق في اكتساب الأموال والأحوال، ومبارزة الرجال الأبطال.

ومع الحداثة في السن والرأي قد استولت عليهم العزة، التي بها يحصل تكذيب الصادق وتصديق الكاذب، والرفع من مقداره، والوضع من مقدار غيره، والتكبر حيث ينبغي التواضع وعكسه، والمحبة بإفراطٍ، والبغض بإفراطٍ لا لسببٍ، وتقريب وتقديم من الأولى

تأخيره وإبعاده وبالعكس، والعزة بالسلامة على طريق الاستقامة.

وكذا كل سالكٍ إلى مقصدٍ بأمثال ذلك، فمن لم ينتفع بالإشارة لم ينتفع بالقناطير المقنطرة، فذو النهاية كرب أرض كريمة، فعمَّرها وبذرها، فأدركتها السعادة بالإمداد، والسلامة من الآفات حتى حصد الثمار وأحرزها، ولم يبقَ عليه إلا حفظها من العدو، والانتفاع بها.

وذُو البداية لم يحرث أرضه، فهو يرجو طيبها، يبذر فيها بلا تعبٍ، وله أعداءٌ ينازعونه ويمنعونه، ومن كان كذلك فقد رام الحصاد قبل الزراعة، أو قبل الحرث، أو قبل حصول الأرض، فهو الظالم لنفسه.

قال ﷺ: «لا تُعطوا الحكمة غير أهلِهَا فتظلموها[1]».

فمن ثَمَّ عُلم أن كمال الاقتداء بالحضرة المحمدية عين السعادة الكلية.

فمن فاته كل الاقتداء به ﷺ في حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله، فعليه أن يلزم تعظيم أمره ﷺ بعمل الذي لا بدَّ منه من العبادات المفروضات، والانتهاء كل الانتهاء عمَّا نُهي عنه من المعاصي والخطيئات، والتخلق بأخلاقه الكريمة على قدر الإمكان، وإعمار أمر الدنيا والدين بسلوك طريقته المؤيدة، عليه من الله أكمل الصلاة وأشرف التسليمات انتهى.

وغير مجهول أن العلم يشرف قدر صاحبه في الدنيا، وإذا عمل به العالم فلا شبهة في أن الله يكتبه من أهل العزة في الآخرة؛ لحرمة اتباعه لنبيه ﷺ.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحريم: ٨].

وهذا هو المعنى الذي قصده المؤلف ﷺ.

***

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٥/٤٢٧)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/٥٠٣) بنحوه.

الحكمة الرابعة

ثم قال قُدِّس سرُّه:

[مَا أقَامَ مَعَ المُسْتَعَارِ إلاَّ المحجوب].

لا يخفى أن المستعار ما أمكن زواله كالقوة، والمنصب، والجاه، والأهل، والولد، والمال، والرجال، وأمثال ذلك، ففي الإقامة مع المستعار ينقطع المخلوق عن مقام العبدية، ويجهل الحد الذي حُدَّ له، فيتجاوز درجة الآدمية ومرتبة الإنسانية، فيعلو ويغلو، ويحرف الكلم عن مواضعه، وربما يأخذ به غليظ حجابه إلى إنكار ما لا يُنكر، وذكر ما لا يُذكر، فينحرف عن الطريق المستقيم، ويسلك المسلك القبيح الذميم، فيصده حجابه، وتكثر منه عن الله حجابه، وما ذلك إلا من إقامته مع المستعار، وجهله بمقام العبودية الذي وقف عنده المرسلون الأخيار والمقربون الأبرار.

وحسن ما قلته في كتابي «ضوء الشمس» مما يناسب هذا الباب، وهو:

«كيف بنا وقد لعبت فينا رعونات النفس، وانبسطت همتنا للشهوة، وصارت الأغيار مطمح نظرنا، وغاية أملنا؟! فهل بلية الدعوى التي تصدر منا حاصلة إلا من عدم العلم بالكتاب المبين، وحكم الشرع المتين، وناشئة عن الجهل الصرف بسنة سيد المخلوقين، وطريق أولاده الطاهرين، وخلفاؤه الراشدين، وعلماء هذا الدين وأوليائه العارفين، رضي الله تعالى عنهم أجمعين؟ وهل هي إلا للغفلة المكية عن إدراك حالة البشرية؟ وأنّى للمسكين المخلوق العاجز من قوةٍ يفعل بها، ويقول ويكر بها ويصول؟

كيف تجتمع الحياة والممات أو العجز والقدرة، أو الفقر والغنى؟ كلا الضدين لا يجتمعان، ولكن الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا، إلا أن الدنيا حجابٌ، ورؤيا النفس حجاب، وكم تحت هذا الحجاب من حجابٍ، ولا تنكشف تلك الحجب عن القلب إلا بتوفيق الله.

وإن من علامات التوفيق الانسلاخ من حب الدنيا ورؤيا النفس، على أن العاقل لو

صرف فكره إلى ذاته وكلياته وجزئياته لانسلخ بطوعه عن رؤيا نفسه والدنيا أيضًا.

وما أحسن ما قلت بفضل الله من قصيدةٍ، تخلصت فيها بمدح النبي ﷺ، تذكر الصواب في هذا الباب، وهذا مطلعها:

اللهُ أكبَــر هَــذِهِ الآثَــار مِــنهَا بِــسَابِق خَلفَهَــا أســرَارُ
فَلِكُــل شَــيء حِكمَــة وَحَقِيقَة حَــارَت بِفِهــم ضَمِيرها الأفْكَارُ
والكُــون لَــو حَقَّقْــته وَفهمــته كنْــز وَفِــيهِ شــؤوننا الإضــمار
بُــستَان رَمــز مُغلَــق بِطَــرَازِم أروَاحــنَا بِرِيَاضَــة الأطْــيَار
هُــو مُــستَعار كَالــودِيعَة عِندنَا وَكُلــنَا المــلاكُ والآمــارُ
فاعجَــب بِحقّــك مِن عَبِيد عَجز يَتَــصَرَّفُون كَــأنَّهُم أحْــرَارُ
فَالمَــرءُ مِــنَّا لَــو تَفكّــر نَــوبه حَــال اغتــسَال ذَاقَ كَــيف يُعَارُ
وَإِذَا انتَحَــى بَــيت الْخَلِي مُتبصِّرًا خَــضَعَت بِــهِ فِي ذاتِهَــا الأطْوَارُ
وَإِذَا مَــشى فِي البَــرِّ أدْرَك أنَّــه فَــرد وظَــلّ الــدَّار والدِّيــنَارُ
وَوُجــودُه إن نَــام أرشَــدَه إلى تَــرك الوجُــود ونَــومه الأخْــبَارُ
وَبِــنَفس هَــيكله بِكُــلّ دَقِــيقَةٍ يَتَــبَارز الأخطــارُ والأخطــارُ
والــسَّمع والــصمم الثقيل وعلة وشــفَاؤهَا والبــسطُ والأكــدارُ
والأمْــن والْخَــوف الْمربع وغيره ينبــيه كــيف تُمــزَّق الأغــيارُ
نــشرٌ وطــيٌّ فــيهما لمفكــر حــال بــه تتسلــسل الأدوارُ
لَــيلٌ تَــدُور عَلَيهِ أحكامُ الدُّجَى ويلــيه في دور الــشؤون نهــارُ
والكــل لِلــرجُلِ الرَّشِيد حقائق تجــري بهــا في سفنها الأقــدارُ
فَــإذَا عَــرِفْت بَقَــاء نَفْسِك فَانِيًا أدركْــت كَــيفَ إلى الإلَــه يُسَارُ
وَعَلِمــت أنَّ الفِعــل ظاهِر فِعلُهُ وَهُــو القديــرُ الفَاعِــلُ المُخْــتَارُ
فاخلعْ لعمرك ثوب وهمك بالسوى فَالجَهــلُ عِــند ذَوي البصائِرِ عَارُ

واصرِف وجود الروح للباب الذي ... مـن فَـضْلِهِ تتـنـزَّل الأسـرارُ
والحـق بـأرواح الأعزاء الأولى ... فهـم الكـرامُ الـسَّادةُ الأخـيارُ
رأوا الوجُـود بِـنُور عَين بَصِيرة ... فَـرأوه ظِـلاً مَـا يمـد بـه قَرارُ
وتَفكـرُوا الصُّنع القَدِيم وَحَادِث ... الطِـرز الكَـريم فَضَاءَت الأَبْصَارُ
وَتَجَـرَّدُوا عَـنهُم فَهُم بَين الوَرَى ... أَهْـلُ العقـول الـسَّادَةُ الأَحْرَارُ
علقـوا بِذَيلِ محمدٍ شَمس الهُدى ... وَعَلَـى طَـرِيقَتِه الكـريمة سَارُوا

ولا يخفى على كل حاذقٍ متشرعٍ أن نبينا ﷺ كان يركب الحمار، ويخصف النعل، ويرقع القميص، ويلبس الصوف، ويردف خلفه، ويضع طعامه على الأرض، ويجيب دعوة المملوك، ويكنس بيته، ويخيط ثوبه، ويخرج إلى العبد ماشيًا ويرجع ماشيًا، ويسلم على الصبيان، ويمسح رؤوس اليتامى، ويجلس على الأرض، ويعتقل الشاة، ويجيب دعوة العبد على خبز الشعير.

ويبيت الليالي المتتابعة طاويًا، وأهله لا يجدون عشاءً، ويأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم، ولا يمنع شيئًا يسأله.

وإذا جلس جلس إليه أصحابه خلفًا خلفًا، وإذا دخل عليهم جلس حيث انتهى به المجلس، ولا يأنف، ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضي له حاجته.

وكان يقول ﷺ: «لستُ مِنْ الدُّنْيَا، وليستْ مِنِّي، إني بُعِثْتُ والساعةُ نستبق[1]».

وكان يقول ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أنتم مُلَاقُون بَعْدَ الموتِ ما أكلتم طعامًا على شهوةٍ أبدًا، ولا شربتم شرابًا على شهوةٍ أبدًا، ولا دخلتم بيتًا تستظلون به، ولمررتم إلى

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٣/٤٢٠)، وذكره المناوي في فيض القدير (٥/٢٦٥).

الصعدات تضربون صدوركم، وتبكون على أنفسكم[١]».

وكان يقول أيضًا ﷺ: «مَا مِنْ صَبَاحٍ يصبحه العبادُ إلا وصَارِخٌ يَصرخُ: يَا أَيُّهَا النَّاس لِدُوا للتراب، واجمعوا الفناء، وابنوا للخراب[٢]».

فتفكر أيها العاقل كيف وقف السيد الكامل عند حدِّ عبوديته، وأوضح لنا هذا الحد بحكمته، وتقلَّب ﷺ على بساط القربة في حضرة العبودية[٣]، ولم يلتفت إلى الأغيار

---

(١) رواه الترمذي (٥٥٦/٤)، والحاكم في المستدرك (٥٠٤/٢)، وأحمد في المسند (١٧٣/٥)، وذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (٦٣٤/١).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٣٩٦/٧)، وذكره المناوي في فيض القدير (٤٨٥/٥).

(٣) قال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: (العبودية): وهي الذلة والافتقار وليست بنعت إلهي، ولهذا لما لم يجد أبو يزيد البسطامي شيئًا يتقرب به إلى الله تعالى ليس للألوهية فيه مدخل، قال: يارب بماذا أتقرب إليك؟ فقال الله تعالى له: تقرَّب إليَّ بما ليس لي الذلة والافتقار انتهـــى.

فالعبد معناه الذليل، يُقال: أرضٌ معبَّدة: أي مذللة. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]: أي ليذلوا لي، ولا يَذِلُّ له من لا يعرفه، ولذا فسَّر ذلك ابن عباس بقوله: أي ليعرفوني فهو تفسير باللازم، وإنما خص هذين الجنسين بالذكر؛ لأنه لم يدع أحد الألوهية والتكبر على الله تعالى من سائر المخلوقات غيرهما، ولم يتحقق بمقام العبودية على كماله أحدًا مثل رسول الله ﷺ، وكان عبدًا مخلصًا في جميع الأحوال التي تخرجه عن مرتبته؛ ولذا شهد الله تعالى له بأنه عبد مضاف إليه بقوله: وإنه لما قام عبد الله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١]، ولما أمره تعالى بتعريف مقامه يوم القيامة قال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» بالراء: أى ما قصدت الفخر عليكم بالسيادة، بل أردت تعريفكم بشري لكم؛ إذ أنتم مأمورون باتِّباعي.

فالعبد مع الحق في حال عبوديته كالظل مع الشخص في مقابلة السراج، كلما قرب من السراج عظم الظل، ولا قرب من الله إلا بما هو لك لا له، وكلما بَعُدَ من السراج صغر الظل، ولا يبعدك عن الحق إلا خروجك عن صفتك التي تستحقها، وطمعك في صفته تعالى.

قال الشيخ الشعراني في رسالة الأنوار القدسية في معرفة أدب العبودية: واعلم أن سبب تعدي العبد عن حدوده كونه مخلوقًا على الصورة، ولله تعالى العزة والكبرياء والعظمة فسرن هذه الأحكام في =

بالكلية منذ برز إلى الوجود ﷺ إلى أن انتقل من هذه الدار ﷺ انتهى.

هذه طريق سيد المرسلين، وإمام الناجين، وأين للعاقل الزهو، والعلو بالمستعار؟! وما هذه الدنيا بحذافيرها إلا خيالٌ، ولا أوقاتها إلا زوالٌ.

خُلِقْنَا لأَمْرٍ لَو عَلِمْنَا خفيه   لَمَا حَبَّ مِنَّا المَرء لَيْلَى وَلا لُبْنَى
وَلَكِن جَهِلْنَا فَاسْتَرَاحت نُفُوسُنَا   وَمَا تِلكَ إِلا رَاحَة تُعقُب الحزْنَا

وكيف لا والنبي ﷺ يقول: «**مَا سَكَنَ حُبُّ الدُّنْيَا قَلْبَ عَبْدٍ إلا ابْتَلاهُ اللهُ بخصَالٍ ثلاث: بأملٍ لا يبلغُ مُنْتَهَاه، وفقرٍ لا يُدرك غناه، وشغلٍ لا ينفك عناه**[1]».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدُّنْيَا حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ الآخرة، والآخرةُ حرامٌ عَلَى أهلِ الدُّنْيَا، والدُّنْيَا والآخرة حرامان على أهل الله**[2]».

وحَسُنَ ما قاله بعض العارفين:

إِذَا كُنتُ أعلَم عِلمًا يَقِينًا   بِأَنَّ جميع حَيَاتي كساعة
فَلِمَ لا أكون ضَنِينًا بِهَا   وَأقطعها بَين خَوفٍ وطاعة

= العبد تحقيقًا للواقع، والكامل من العبيد هو الذي لا يصرفه خلقه على الصورة عن الفقر والذلة والعبودية؛ لما يعرف من نفسه من العجز والضعف والافتقار إلى أدنى الأشياء، والسَّالم من قرصة برغوث، وهذا يدركه كل إنسانٍ من نفسه ذوقًا، فليحذر العبد من رؤية نفسه على أحد من رعيته، ولو عبده الذي في رقه؛ لأنه ربما يكون عند الله أحسن منه حالاً، كما ورد في الحديث، وليحذر من قوله: تجعل رأسك برأسي أو مثلك بمثلي أو غير ذلك، فإن هذا كله دليل على الجهل والقساوة والكبر، والله لا يحب المتكبرين. فالزم الذل وترك الزجر لعبدك وخدمك إن كنت عبدًا لله. وانظر: شرح الحكم الكردية للشيخ الشرقاوي (١٣٧) بتحقيقنا.

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٤/٦٨)، والخطيب البغدادي في تاريخه (٣/٣٣٦).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٢/٢٣٠)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/٤٩٣).

وجميل ما قاله مفتي العراق الفاضل محمد فيضي أفندي الزهاوي، وهو:

في الْمـــرايَا رأيْـــت شَيخًا كَبيرًا ... ذَا فـــنونٌ قَـــد جَـــرَّب الأحْوالا
قُلتُ: كَم عِشت قَال: سَبعِين عامًا ... قُلـــت: مَـــاذَا صَنعت فِيهَا فَقَالا
طُعُمَـــات دَفَعـــتَها فَـــضَلات ... وشُـــروبًا أرقـــتها أبـــوالا
وثِـــيابًا لَبِـــستها فَاخِـــرَات ... جُـــدُدًا وانتـــزعتهَا أسمـــالا
ولأبْكِـــي دمًـــا لأني لَـــم أع ... مَـــل مِـــن الصَّالحات لي أعمالا

وما أحسن ما فصَّله المؤلف ﷺ في كتابه «البرهان» حيث قال فيما يناسب هذا الشأن:

المصير إلى الله والرجوع إليه، وكلٌ يعود إلى معدنه، ويستوفى أجله، وتعود عليه المسألة قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، هذه الحبة التي تأكلونها نبتت بتراب مثلكم، كان لهم قوة وبأس شديد، ذهبوا وبانوا وكأنهم ما كانوا.

هَـــذَا تُـــرابٌ لَـــو تَفكَّـــرهُ الْفَتى ... لَـــرَأى عَلَـــيهِ مِـــن الْجِبَاه بُساطا
وَكَأنَّمَـــا ذَرَّاتـــه لَـــو مُيِّـــزَت ... صُـــيِّغَت لألـــسنة الأولى أسْفاطا

ندوس ألسنًا وجباهًا وخدودًا وشفاهًا، فاعتبروا يا أولي الأبصار، هذه الدنيا وهذه أحوالها، وهذه ديارها ورجالها.

بالله عليكم هل بعد هذه الفكرة وأخذ العبرة من طمعٍ بها، وبديارها، وإصلاحها، وأعمارها، أُعمِّر هذا الرواق حتى يسكنه صالح وإبراهيم وأبو القاسم والنساء؟.

أم أُعمِّر بيتًا أسكنه أنا إذا فارقت الأحباب، وتوسَّدت التراب، أهذا الرواق عمَّره أبي بخيله ورجله وأبقاه لي من بعده! لا والله بل الله وهب وأحسن وأكرم وتحنَّن.

هذه المنّة مخصوصة بي، لا والله بل الدنيا يعطيها لمن يحب ولمن لا يحب، والآخرة لا

يعطيها إلا لمن يحب.

رُزق أبي بيتًا ومقامًا وثوبًا وطعامًا، وأنا كذلك وأولادي وعيالي في لوح غيبه المحفوظ بعلمه.

لهم رزقٌ، وهكذا جميع الخلق، فعلامَ هذه الخيالات! وتطرق سبيل الضلالات! الكيِّس من خاف ربه، ودان نفسه، وعمل لما بعد الموت.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] آية اختلف في تفسيرها الرجال:

إرثٌ معنوي تحسن به القربى من الله للعبد إذا توسَّد الأرض، أو الصالحون لإرثها.

وسياسة خلقه على مقتضى استحقاق الخلق، فإن الأعمال عين العمال.

أجل أعمالكم عمالكم. «وكما تكونوا يُولى عليكم[1]».

﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف:١٢٨] بينة على ما ذكر.

وفسرها جماعةٌ بأرض الجنة، والكل على هدًى.

أي أخي: أما تنظر الطفل إذا وُلد يبرز إلى الدنيا قابضًا كفه حرصًا عليها، وإذا خرج باسطًا كفه معترفًا بفراغ يده من الأمر العارض الذي حرص عليه، كفى بالموت واعظًا، كفى بالموت واعظًا.

أَبْكِي ومِثْلِي مَن يَبكي إِذَا سَبَقَت ... قَوَافِل القَوم أَهْل العِلم والعَمل

بُكَاء قَومٍ لِلقَيا الوالِهِيْن بِهِ ... وأنَّني الْخَائف الْبَاكِي مِن الزَّلل

انتهى»[2].

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٢٦٥/١)، والعجلوني في كشف الخفاء (١٦٤/١).

(٢) انظر: البرهان المؤيد لسيدنا الرفاعي (ص٤٨).

فانظر كيف طهَّر الله أحبابه من الحجاب[١] بالمستعار، وتخلّق بأخلاقهم، وأخلص في محبتهم، فالمرء مع من أحب.

الحكمة الخامسة

قال المؤلف ﷺ:

[لَيْسَتْ النَّائِحَة الثَّكْلَى كَالنَائِحَة المُسْتَأجَرَة].

أراد بذلك ﷺ أن الدخيل في القوم بلا صدقٍ ولا علمٍ ولا عملٍ لا يُعدُّ منهم، ولا يكون مثلهم، ويعجبني ما ذكره صاحب كتاب: (آداب الأقطاب) مولانا علي بن محمد الكازروني الرفاعي قدَّس سره في مقدمة كتابه، حيث يقول:

سألتني زادك الله توفيقًا، ويسَّر وفتح لك إلى كل خير طريقًا، أن أذكر لك طرفًا من آداب التصوُّف وقواعده، ونبذة من أحواله ومراشده، فأجبتَ إلى ذلك إجابة معترف بالتقصير، معتمد على اللطيف الخبير، وسأرشدك لموضع سدادك، وأدلُّك على إرشادك، وإن كان هذا فنٌ قد طُوي بساطه، وانحل رباطه، ونُسي رسمه، و لم يبقَ إلا اسمه.

ذهبت الآثار، وعفَت الديار، ونُسيت الآداب، وعُمِّي الصواب، وطُمست تلك العبارات، واضمحلَّت تلك الإشارات، وعُدم أهل الطريقة على الحقيقة وانقرضوا، وطُوي بساط الأنس بهم، فليت شعري أين مضوا.

أسْـــألكم عَـــنهَا فَهَـــل مِن مُخبرٍ فَمَـــا لِـــي بِنِعَمٍ بَعد أن رَحَلُوا عِلم

---

(١) ولنذكر تعريف الشيخ القاشاني للحجاب: هو كل ما ستر مطويك عن عينك، وذلك منك، ومن انحصارك في كل ما تراءى لك من عالم النور، أو الظلمة، لا من غيرك.

وقال سيدي ماء العينين: وقال ابن عطاء الله رحمه الله: الحجاب حجـــابان: حجاب بعد، وحجاب إبعاد، فحجاب البعد لا تقريب فيه أبدًا، وحجاب الإبعاد يُودب ثم يُقرب كآدم عليه السلام، ثم لتعلم أن المحجوب إنما هو العبد عن الله، لا الله عن العبد، فتعالى الله أن يكون معه ما يحجبه، بل المحجوب العبد ببعض تصاريف الله تعالى. وانظر: شرح الكبريت الأحمر (ص٦٨) بتحقيقنا لأول مرة.

فَلَــو كُنتُ أدرِي أيْن خيّم أهْلها وأي بِــلاد الله إذ رَحَلُــوا أمُّــوا
إذًا لــسلكنا مــسلط الرِّيح خَلفها وَلُو أصبحت نعم وَمن دُونهَا النَّجم

أطفئت مصابيح القوم فأظلم لفقدهم الكون، وحصلنا من المعاني على الصور، وبينها وبينهم بونٌ، ليس التكحل في العينين كالمكحل، تشبه بالقوم من ليس منهم، وقام في مقامهم من لا يغني عنهم.

رَضُــوا بِالطّيلسان إذ اكْتسَوهَا وَتَفخِــيم البَــرَانس والعِمَامــة
كَــذا دحج البيوت لَهُنَّ رِيْش ولكــن لا يطــرن مَــع الحمامَة

اقتصروا على تحسين الظاهر مع سماجة الخواطر وقبح السرائر، وخبث الضمائر، فضح التطبع شيمة المطبوع، حسنت الأشكال، وقبحت الخلال، وتخيل لمن خلف أنه يقوم مقام السلف، وأين الثريا من يد المتطاول المتناول! أين البقر من الأسد! أين الضبع من أبي لبد! طاحت والله بهم طوائح الأقدار، فلم يبقَ سوى الآثار.

تلك أمة قد خلت فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً.

قِــف بِالــديَار فَهَــذِه آثَارهم تَبكِــي الأحِــبة حَــسْرَةً وتَشَوُّقا
كَــم قَد وَقَفتُ بِها أسَائِل مُخبِرًا عَــن أهْلــها أو صَادقًا أو مُشفِقا
فَأجَابَنِي داعِي الــهَوى فِي رَسمهم فَارقْت مَن تــهوى فَعَزَّ المــُلتقى

أين تلك الأحوال والمقامات؟ ذهبت مع من ذهب من القوم ومات، عجز وبقيت في خلف كجلد الأجرب.

كان طريق القوم عدم النوم، واغتنام الأسحار، ودوام الأفكار، والخشوع بين يدي الواحد الجبَّار، لا جرم أنه رفعت لهم أعلام الأعلام، برضا الواحد العلاَّم، فقبورهم تُزار، ومشاهدهم تحط بها الأوزار.

لا الــدَّار بَعدِهِم دَار السُّرور وَلا تِلكَ الــمَنَازل والأوطَان أوطَانُ

عزفت أنفسهم عن شوائب أكدار هذه الدار فتركوها، وقاموا بالعبودية فأحسنوا الطريقة وسلكوها، وقاموا في مقام الأنس بمحبوبهم، فظفروا في الآخرة بمطلوبهم.

قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]، فهم جلساء الله وأحباؤه وخواصه وأولياؤه، إن قاموا فبالله، وإن قعدوا فلله، وإن نطقوا فمن الله، وإن سكنوا شغلوا بالله.

قال شيخنا السيد علي ممهد الدين الرفاعي فيهم:

رِجَالٌ إِذَا الدنيَا دجت أشْرقت بِهِم ... وَإِن أجدبَت يَومًا بِهِم يَنْزِل القطر
أَقَامُوا بِظَهر الأرضِ فَاخضرَّ عُودُهَا ... وَحلوا بِبَطن الأرضِ فَاستَوحَش الظَهر

فهذه صفة القوم فأين مثلهم اليوم؟

وقد كثر في زماننا المتسمُّون بهذه الطائفة، والمتلبسون بلباسهم، والمتَّسمون بسمتهم، فلوَّثوا المذهب، وكدَّروا صافي شربه.

ألا ترى أنهم يتصدرون ويتشدَّقون، ويميلون إلى تقبيل الأكف، والاحترام، واجتماع المريدين، ومخاطبتهم لهم بالمشيخة، فنقضوا بذلك أركان التصوف، وغيّروا معانيه، واتخذوا بيوت العبادة حوانيت السيادة، واكتفوا بلبس المرقَّعات والمصبغات، وتقصير الأثواب مع إهمال الآداب إلى آخر ما قال.

وأحسن منه ما قاله سيدنا الغوث الأكبر، والعلم الأشهر، مولانا المؤلف ﷺ في كتابه «البرهان المؤيد» وهو:

«أيها المتصوف لما هذه البَطالة، صِر صوفيًا حتى نقول لك: أيها الصوفي.

أي حبيبي. تظن أن هذه الطريقة تورث من أبيك، تسلسل من جدك، تأتيك باسم بكر وعمر، وتصير لك في وثيقة نسبك، تُنقش لك على جيب خرقتك، على طرف تاجك، حسبت هذه البضاعة ثوب شعر، وتاجًا، وعكازًا، ودلقًا، وعمامةً كبيرةً، وزيًا

صالحًا، لا والله إن الله لا ينظر إلى كل هذا ينظر إلى قلبك، كيف يفرغ فيه سره وبركة قربه، وهو غافلٌ عنه بحجاب التاج، بحجاب الخرقة، بحجاب السبحة، بحجاب العصا، بحجاب المسوح.

إيش هذا العقل الخالي من نور المعرفة.

إيش هذا الرأس الخالي من جوهر العقل، ما عملت بأعمال الطائفة، وتلبس لباسهم يا مسكين.

يا أخي. لو كلفت قلبك لباس الخشية، وظاهرك لباس الأدب، ونفسك لباس الذل، وأنانيتك لباس المحو، ولسانك لباس الذّكر، وتخلّصت من هذه الحجب، وبعدها تلبست بهذه الثياب.

كان أولى لك ثم أولى، لكن كيف يُقال لك هذا القول وأنت تظن أن تاجك كتاج القوم، وثوبك كثوبهم، كلا الأشكال مؤتلفة والقلوب مختلفة، لو كنت على بصيرة من أمرك خلعت أباك وأمك وجدك وعمك وقميصك وتاجك وسريرك ومعراجك، وأتيتنا بالله لله، وبعد حسن الأدب لبست، وأظنك بعد الأدب تقطع نفسك عن الثوب والعوارض القاطعة.

أي مسكين. تمشي مع وهمك، مع خيالك، مع كذبك، مع عجبك وغرورك، وتحمل نجاسة أنانيتك، وتظن أنك على شيءٍ، وكيف يكون ذلك، تعلم علم التواضع، تعلم علم الحيرة، تعلم علم المسكنة والانكسار.

أي بطّال. تعلمت علم الكبر، تعلمت علم الدعوى، تعلمت علم التعالي.

إيش حصل لك من كل ذلك تطلب هذه الدنيا الجائفة بظاهر حال الآخرة، لبئس ما صنعت، ما أنت إلا كمشتري النجاسة بالنجاسة، كيف تغفل نفسك بنفسك، وتكذب على نفسك وأبناء جنسك، لا يقرب المحب من محبوبه حتى يبعد من عدوه.

رمى بعض المريدين ركوته في بعض الآبار ليستقي الماء، فخرجت مملوءةً بالذهب، فرمى بها في البئر وقال: يا عزيزي وحقك لا أريد غيرك.

من أثبت نفسه مريدًا صار مرادًا، من أثبت نفسه طالبًا صار مطلوبًا، من عكف على الباب دخل الرحاب، ومن أحسن القصد بعد الدخول تصدر في غرفة الوصلة.

دخل علي كرَّم الله وجهه ورضي الله عنه مسجد رسول الله ﷺ، فرأى أعرابيًّا في المسجد يقول: إلهي أريد منك شويهة، ورأى أبا بكر الصديق ﷺ في زاوية أخرى يقول: إلهي أريدك.

شتَّان ما بين المرادين، شتَّان ما بين الهمتين.

تلعب الآمال بالعقول، تلعب بالهمم، كلٌّ يطير بجناح همته إلى أمله ومقصد قلبه، فإذا بلغ غاية همته وقف فلم يجاوزها.

قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]، على نيته وهمته انتهى»[1].

الحكمة السادسة

ثم قال المؤلف ﷺ:

[كَمْ طَيَّرَتْ طَقْطَقَةُ النِّعَالِ حَوْلَ الرِّجَالِ مِن رأسٍ، وكَمْ أَذْهَبَتْ مِن دِيْنٍ].

أراد بذلك عجب المرء وغروره بالقوم الذين يحفونه، فيتكبر بطقطقة نعالهم حوله على الخلق، وينسى كونه من تراب مضغة ابتداؤه، وجيفة انتهاؤه، وهو والذين حوله ترابٌ، يعودون إلى الترب.

وقد صح أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بَصَقَ يومًا على كفِّهِ، ووضع إصبعه عليها، فقال: «**يقول الله: يا ابن آدم أتعجزني وقد خلقتك مثل هذه؟**[2]».

---

(١) انظر: البرهان المؤيد لسيدي أحمد الرفاعي (ص٢٧).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢/٣٢)، وابن سعد في الطبقات (٧/٤٢٧).

وفي حديثٍ آخر: «**لا ينظر الله إلى مَنْ جَرَّ إزاره بطرًا**[١]».

وقال ﷺ: «**مَنْ تَعَظَّم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبانٌ**[٢]».

وقد صدرت أوامره الشريفة بالتواضع للمتواضعين، والتكبر على المتكبرين.

منها: قوله ﷺ: «**إذَا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبرين من أمتي فتكبروا عليهم، فإن ذلك لهم مذلة وصغار**[٣]».

وجاء في الخبر أنه خرج ﷺ يمشي إلى البقيع فتبعه أصحابه، فوقف وأمرهم أن يتقدموه ومشى خلفهم.

فسُئل عن ذلك فقال: «**إني سمعتُ خَفْقَ نِعَالكم فأشفقت أن يقع في نفسي شيءٌ من الكِبَر**[٤]».

قلت: وقد وقع ذلك منه ﷺ تعليمًا للخلق، وإرشادًا للأمة، وتنبيهًا لهم، وإلا فهو المعصوم المطهر من كل عيب عليه صلوات الله وسلامه.

وقد أحسن سيدنا المؤلف ﷺ حيث يقول في كتابه «البرهان المؤيد»:

الله الله بالأدب مع الله فإن خلق الله حجب وأبواب، فإن أدركتم سر الأدب مع خلق الله فُتحت لكم أبواب أبواب القبول عند الله، وإن جهلتم أمر الأدب مع خلق الله حُجبتم بالخلق عن الله.

ومن ثَمَّ اشتغل أهل العرفان والذوق الخالص بجبر القلوب، ووضعوا الخدود على الطرقات تحت الأرجل، وطاقت أرواحهم في حضرات القبول بهذه الأجنحة المعنوية،

---

(١) رواه أحمد (٤٠٩/٢)، والنسائي (٤٩١/٥)، وابن حبان (٢٦٢/١٢).

(٢) رواه أحمد (١١٨/٢)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣٥٧/٣).

(٣) لم أقف عليه هكذا.

(٤) رواه ابن ماجه (٩٠/١)، والطبراني في الكبير (٢١٦/٨) بنحوه.

فعرفوا الحق بالخلق، ونزهوا الحق عن الخلق، «أنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلي[١]»، نصر قدسي يدلكم كيف يعرف الحق بالخلق.

ولهذا قال النبي ﷺ : «تَفَكَّرُوا في خَلْقِ الله ولا تَفَكَّرُوا في الله[٢]».

وذلك الفكر المأمورون به فكر الأدب مع الصانع في مصنوعاته جلّ وعلا انتهى.

وقد رُوي أن أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ رأى رجلاً يمشي وخلفه جماعة يتبعونه، فعلاه بالدرة وقال له: يا هذا أهلكت نفسك والذين معك.

فمن ثم علم أن العجب قاطع عن الله، ومنه تحصل النفرة عند الخلق من صاحبه وربما يؤدي إلى أشد الحرج وإتلاف المهج.

* * *

الحكمة السابعة

ثم قال المؤلف ﷺ:

[لَفْظَتَان ثَمِلَتَان فِي الدِّيْنِ: القَوْلُ بِالوِحْدَةِ والشَّطْحُ المجَاوِزُ حَدَّ التَّحَدُّثِ بالنِّعْمَةِ].

قلت: وقد ابتلي بالقول بالوحدة المطلقة والشطح جماعة من السالفين، وحذا حذوهم قوم من أهل البدعة في عصرنا أيضًا فضلُّوا عن الطريق وارتكبوا أشد المآثم وانتهوا إلى أقبح الغايات.

فمنهم جماعة ذهبوا مذهب الحلولية.

ومنهم جماعة أسقطوا الحلول ونفوا رتبة المخلوقية وألحقوها برتبة الخالقية، وحاروا بفهم الكيفية.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/٢٣٤)، والمناوي في فيض القدير (١/٥١٩).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٢/٥٦)، والرافعي في التدوين (١/٢٨٠).

فالقول في بعض السالفين أنما هو تأويل ما يمكن تأويله من كلماتهم، وإنكار نسبة ما لا يمكن تأويله إليهم؛ لكثرة تداول الأيام، وإمكان الافتراء عليهم من أصحاب الزور والبهتان.

هذا إن كانوا من أعيان الرجال وأصحاب المقامات والأحوال، وإلا فلا تتكلف لتأويل كلمات تخالف ظاهر الشريعة أبدًا.

على أن الحق أحق أن يتّبع.

وانظر كيف يقول سيدنا الإمام الرباني القطب عبد الوهاب الشعراني(١) في كتابه «الأنوار القدسية» بما نصّه:

فلو رأينا الصوفيّ يتربع في الهواء لا نعبأ، وإلا أن امتثل أمر الله تعالى واجتنب نهيه في المحرمات الواردة في السُّنة مخاطبًا بتركها كل الخلق المكلفين، لا يخرج عن ذلك أحد منهم.

ومن ادَّعى أن بينه وبين الله تعالى حالة أسقطت عنه التكاليف الشرعية من غير ظهور أمارة تصدِّقه على دعواه، فهو كاذبٌ كمن يشطح من شهود في حضرة خيالية على الله وعلى أهل الله ولا يرفع بالأحكام الشرعية رأسًا، ولا يقف عند حدود الله تعالى مع وجود عقل التكليف عنده، فهذا مطرود عن باب الحق، مبعد عن مقعد الصدق، وحرام

---

(١) هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن محمد بن زوفا بن الشيخ موسى، ولد على أصح الروايات وأشهرها في ٢٧ رمضان عام ٨٩٨ هـ بيلدة قلقشندة وهي قرية جده لأمه، ثم انتقل بعد أربعين يومًا من ولادته إلى قرية أبيه ساقية أبي شعرة وإليها انتسب، وعُرف بهذا اللقب واشتهر به وإن كان هو قد سمّى نفسه في مؤلفاته بالشعراوي، توفي والده قبل أن يبلغ العاشرة، فنشأ يتيمًا من الأبوين، وكان الله وحده كما يقول هو نصيره ووليه، جاء إلى القاهرة عام: ٩١٠ هـ، وكان صوفيًا في منهجه أخذ نفسه به طوال حياته، يقول في المنن: إن من منن الله عليَّ أن ألهمني مجاهدة نفسي من غير شيخٍ منذ طفولتي.

من تصانيفه: الدرة المنثورة في زبد العلوم المشهورة، وشرح جمع الجوامع للسبكي، والمقدمة النحوية في علم العربية، والبحر المورود في المواثيق والعهود.

على الفقيه وغيره أن يسلِّم لمثل هذا.

وحرامٌ على هذا أن يتكدَّر من نصحه؛ لأنه نصحه بما يعلم وبما بلغ إليه عقله.

وحرامٌ على الفقيه أن يتكدَّر من نصح الولي؛ لأنه أعلى منه فهمًا في أحكام الله تعالى وقد نصحه فيما وصل إليه عمله.

ولا يتوهم أن علم الأولياء وغوصهم في فهم الأحكام يتوقف على الآلات عند غيرهم، كالنحو واللغة والمعاني ونحو ذلك، فإن الحق سبحانه وتعالى لا تقييد عليه فيعطي من شاء ما شاء كيف شاء فافهم.

وذكر الإمام الشعراني أيضًا في كتابه «الدرر واللمع» ما نصَّه:

سمعت سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: إياكم أن تقبلوا هدية ممن فارق صحبة شيخه الذي ربَّاه وأتاكم ليصحبكم، وتقبلوا عليه، وإن كنتم أعرف بأحوال الطريق من شيخه من كل من فارق شيخه فقد نادى على نفسه بنقض العهد وعدم الوفاء بحق الصحبة، اللهم إلا أن تكون مفارقته لشيخه بحق فلا بأس بقبول مثل هذا كما فعلت به مرارًا في حق من صحب أصحاب الشطح، كالذي يجري على مشاهد أهل الوحدة المطلقة تقليدًا من غير حال غلب عليه، ويقول لمريده: إياك أن تصلي وتعبد ربك كما يفعل المعجبون؛ فإن مثل هذا قد خرج عن الإسلام بالكلية، ويجب على كل فقير أن ينفر منه الناس ويجدد إسلام ذلك المريد الذي كان صحبه واعتقد ما يعتقده، فكيف ينبغي لمتورِّع أن يقبل هديته مع أنه لا يحلل ولا يحرم.

وسمعت سيدي عليًّا الخواص رحمه الله[1] يقول: إياكم وقبول هدية ممن يعتقد الوحدة

---

(١) هو الولي الكامل العارف بالله تعالى سيدي عليٌّ الخوَّاص البرلسي، شيخ المصنِّف رضي الله عنهما، وقد ترجمه في «الطبقات» قائلاً: كان ﷺ أميًّا لا يكتب ولا يقرأ، وكان يتكلم على معاني القرآن العظيم والسنة المشرفة كلامًا نفيسًا، تحيَّر فيه العلماء، وكان محل كشفه اللوح المحفوظ عن المحو والإثبات، فكان إذا قال قولاً لابدَّ أن يقع على الصفة التي قالها، وكنت أرسِل له الناس يشاورونه عن أحوالهم، فما كان قطُّ يحوجهم إلى الكلام، بل كان يخبر الشخص بواقعته التي أتى لأجلها قبل =

المطلقة، فإنه خرج عن طريق الإسلام انتهى[(١)].

وقال سيدنا المؤلف ﷺ في كتابه «البرهان المؤيد[(٢)]»: ينقلون عن الحلاج أنه قال: «أنا الحق».

أخطأ بوهمه لو كان على الحق ما قال أنا الحق.

يذكرون له شعرًا يوهم الوحدة كل ذلك، ومثله باطل ما أراه رجلاً واصلاً أبدًا، ما أراه شرب، ما أراه حضر، ما أراه سمع إلا رنةً أو طنينًا فأخذه الوهم من حال إلى حال.

من ازداد قربًا و لم يزدد خوفًا فهو ممكور.

إيَّاكم والقول بهذه الأقاويل إن هي إلا أباطيل درج السلف علي الحدود بلا تجاوز بالله عليكم، هل يتجاوز الحد إلا الجاهل؟ هل يدوس عنوة في الجب إلا الأعمى؟

ما هذا التطاول وذلك المتطاول ساقط بالجوع، ساقط بالعطش، ساقط بالنوم، ساقط بالوجع، ساقط بالفاقة، ساقط بالهرم، ساقط بالعناء.

أين هذا التطاول من صدمة صوت: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦] [(٣)].

=

أن يتكلم، فيقول: طلّق، مثلاً، أو شارك، أو فارق، أو اصبر، أو سافر، أو لا تسافر، فيتحير الشخص، ويقول: من أعلم هذا بأمري اهـ.

(١) قلت: وبقية النص: وإياكم وقبول هدية من مريد فارق شيخه في حظ نفس وأتى إليكم بهدية لتصحبوه وتربوه فإنه في مقام شك وريبة وحيرة وربما سرى في باطن من قبل هديته أو أكل من طعامه مثل حاله في الشك والحيرة. وانظر: الدرر واللمع في بيان الصدق في الزهد والورع (ص ١١٠) بتحقيقنا لأول مرة، طبع دارة الكرز.

(٢) انظره فيه (ص٢١).

(٣) تنبيه: يقول الشيخ الشرقاوي أثناء كلامه على المتصوفة وأنواعهم: وفرقة أخرى لم يلتفتوا إلى ما يُفاض عليهم من الأنوار في الطريق، ولا إلى ما تيسره لهم من العطايا الجزيلة، و لم يعرجوا على الفرح بها جادين في المسير، حتى تأربوا فوصلوا إلى حد القربة إلى الله تعالى فظنوا أنهم وصلوا

=

=

وغلطوا، فإن لله تعالى سبعين حجابًا من نور لا يصل السالك إلى واحد من تلك الحجب إلا ظن أنه قد وصل، ولا يصل السالك إلى تلك الأنوار والحجب ما لم يخرج عن حجاب نفسه، ويكون هو أيضًا ربَّانيًا بل هو نور من أنوار الله تعالى، أعني بسير القلب والروح فيه يتجلى له حقيقة الحق، حتى إنه ليتسع لجملة العالم ويحيط به ويتجلى فيه صورة الكل، حتى قيل أنه اللوح المحفوظ فإذا انتهى إلى ذلك السالك أشرق نوره إشراقًا عظيمًا؛ إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه، وقد كان في أول الأمر محجوبًا بمشكاة هي كالساتر له كما دلّ عليه القرآن فإذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله تعالى ربما التفت صاحب ذلك القلب، ورأى من جماله الفائق ما يدهشه فربما سبق للسكر والدهشة إلى لسانه فقال: أنا الحق، فإن أخذ الحق بيده ومدَّته الألطاف الإلهية سار ولم يقف وإلا هلك، وربما التبس المتجلي بالمتجلي فيه كما يلتبس لون ما يتراءى في المرآة بالمرآة فيظن أنه لونها، وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج فيحصل الغرور، وبهذه العين نظرت النصارى للمسيح، لما رأوا إشراق نور الله تعالى قد تلألأ منه فغلطوا عند رؤيته كمن نظر كوكبًا في مرآة، أو ما فطن أن الكوكب في المرآة أو الماء فيمد يده ليتناوله.

وإلى تلك الحجب النورانية الإشارة لقول الخليل ﷺ: ﴿فلما جنَّ عليه الليلُ رأى كَوكبًا قال هذا ربي﴾: أي نور من أنوار الله وهو أول الحجب؛ إذ هي على الطريق السالك ولا يتصور الوصول إلا بعبورها، وبعضها أصغر وبعضها أكبر بقدر القرب والبعد، وأصغر الأنوار السماوية هي الكواكب فيستعار لفظ الكوكب لأول تلك الأنوار؛ لأنه أصغرها وأعظمها الشمس وبينهما القمر، فلم يزل إبراهيم يترقى من نور إلى نور وحجاب بعد حجاب، وكلما أظهر له شيء من الأنوار الإلهية ظن أنه قد وصل، فيقول: هذا ربي فينكشف له بنور النبوة والتوفيق الإلهي أن وراءه أمورًا، فكلما انكشف نور ظهر للأول درجة الانحطاط عن ذروة الكمال، واطلع على أن له نهاية فيقول: ﴿لا أحب الآفلين﴾، ولم يزل كذلك إلى أن تجاوز ما لا ينتهي، فلما انتهى إلى جنات لا نهاية لها وانقطع عمله عما دون ذلك قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام:٧٩]، وانظر: شرح الحكم الكردية للشيخ الشرقاوي (ص٢٢٠) بتحقيقنا لأول مرة، طبع دارة الكرز.

وروى أن الحلاج مرّ يومًا على الجنيد، فقال له: أنا الحق! فقال الجنيد: أنت بالحق أية خشبة تفصد فتحقق فيه ما قال الجنيد: لأنه صلب بعد ذلك. وانظر كتابنا الإمام الجنيد (ص٧١).

وقال ﷺ في محل آخر من كتابه «البرهان[1]» بلغني عن بعض إخواننا رجالَ العصرَ أنه يقول:

عَقَــدتُ بِبَابِ الديْرِ عُقدَةَ زِنَارِي   وَقُلتُ خُذُوا لي مِن فَقِيهِ الحمى ثَاري

يريد بذلك معاني أخرى.

إياكم والقول بمثل هذه الأقاويل، حسن الظن يلزمنا بسيدنا الشيخ، ولكن أدبنا مع الدين ألزم، ووقوفنا مع الحق أهم، لا نعقد الزنار، ولا نمر على باب الدير، ونقبل يدَ الفقيه ورجله، وتطلب منه علم ديننا ونقول:

طلب الشيخ مقاصد سترها بهذه الألفاظ، وليته لم يطلبها و لم يسترها ويقول عوضًا عما قال:

حَلَلــتُ بِبَاب الشَّرع عُقدَةَ زنَاري   وَطَهُــرت بِالفقــه الإلَهِي أســرَارِي

ومَــا الديــر والــزنّار إلا ضَــلالَة   ومَا الشَّرع إلا الباب لِلوَصلِ بِالبَارِي

نعم حالة أهل الحب تأخذ القلب فيطيش العقل فيتكلم اللسان كلام من جُنَّ، أو خمر، أو غلا دمه، أو أغشي عليه، فدعوا الرجل وربه، وهذا يكفيه منكم، وتمسَّكوا بالحبل المتين الذي من تمسك به لن يضل أبدًا.

هذه الكلمات ومثلها من الشطحات التي تتجاوز حدَّ التحدث بالنعمة مَثل صاحبها كمثل رجل نام في بيت الخَلاء فرأى في منامه أنه جلس على سرير سلطنة، فلما استيقظ خجل وعرف مكانه.

الله الله بالوقوف عند الحدود عُضُّوا على سنة السيد العظيم بالنواجذ.

مَــــالي وألفَـــاظ زيـــدٍ   وَوهـــم عمـــرو وبكــــر

وَجــهُ الــشَّريعَةِ أهــدَى   مِــن سِــرٍّ ذَاكَ وَسِــرِّي

---

(١) انظره فيه (ص٤٦).

«صدق الله، وكذب بطن أخيك[١]» انتهى.

وذكر الإمام الشعراني في كتابه «الأنوار القدسية» أن سيدي أبا الحسن الشاذلي قُدِّس سرُّه يقول: «احذر أن يكون إبليس أعلى منك في الأدب مع الله تعالى».

قيل: وكيف ذلك؟ فقال: لأنه لم ينازع الله تعالى في وصف من أوصافه قط، وقال: إني أخاف الله رب العالمين، وغاية أمره أنه خالف الأمر فاستحق اللعنة والطرد، ومخالفة الأمر أهون من طلب العبد أن يكون شريكًا لله ﷻ فيما يستحقه على عباده انتهى.

والموقع للعبد في هذه المصائب حب الرئاسة، ومبادرة التصدر لهذا الباب قبل تأهله له.

وقد كان أهل العصر الخالي رضي الله تعالى عنهم، لا يتصدر أحد منهم لهذا الباب إلا بعد رسوخه وتمكُّنه في مقام البقاء، وليس بعده مقام إلا القطبية؛ لأنه حينئذٍ يصدق عليه حديث: «فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق[٢]» الحديث.

فلا ينطق حتى ينطق كما كان حال سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي ﷺ[٣]، فيأمن حينئذٍ من الدَّعوى، ويسدد ويحفظ في أقواله وأفعاله.

ومن ادَّعى وصوله إلى هذه الدرجة فلا تنكر عليه بل تكل أمره إلى الله تعالى، فإن يك

(١) هذا نص حديث رواه البخاري (٢١٥٢/٥)، ومسلم (١٧٣٦/٤).

(٢) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (١٩٥/٢).

(٣) هو السيد الجليل الحسيب النسيب أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى بن عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى، ابن أمير المؤمنين الحسن السبط، ابن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وُلد سنة سبعين وأربعمائة، وتُوفي سنة إحدى وستين وخمسمائة، وله من العمر إحدى وتسعون سنة.

وانظر في ترجمته: طبقات الشعراني الكبرى (١٠٨/١)، ونور الأبصار للصبان (٢٢٤)، والنجوم الزاهرة (٣٧١/٥)، والشذرات (١٩٨/٤)، وسر الأسرار، وفتوح الغيب، وقلائد الجواهر، ومعدن الأسرار، وخلاصة المفاخر، والسيف الرباني، والروض الزاهر، جميعهم بتحقيقنا.

كاذبًا فعليه كذبه، وإن يك صادقًا كنّا قد لزمنا معه الأدب.

ومواهب الله سبحانه وتعالى لا تنحصر على عباده، وظهور الكرامات ليست بشرط في الولاية إنما يشترط امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، فيكون أمره مضبوطًا على الكتاب والسُّنة، فمن كان كذلك فالقرآن شاهد بولايته، وإن لم يعتقد فيه أحد ولا كان له أتباع ولا مريدون انتهى.

وقال الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي قُدِّس سرُّه(١) في فتوحاته في باب معرفة الشطح وأسراره ما نصَّه:

وحاشا أهل الله أن يتميزوا عن الأمثال أو يفتخروا؛ ولهذا كان الشطح رعونة نفس، فإنه لا يصدر من محقق أصلاً.

فإن المحقق ما له مشهود سِوَى ربه وعلى ربه ما يفتخر وما يدعي، بل هو ملازم عبوديته مهيأ لما يرد عليه من أوامره، فيسارع إليها وينظر جميع ما في الكون بهذه المثابة، فإذا شطح انحجب عمَّا خلق له وجهل نفسه وربه، ولو انفعل عنه جميع ما يدعيه من القوة فيحيي ويميت ويولي ويعزل وليس عند الله بمكان، بل حكمه في ذلك حكم الدواء المسهل أو القابض، يفعل بخاصية الحال لا بالمكانة عند الله كما يفعل الساحر بخاصية الصنعة في عيون الناظرين، فيخطف أبصارهم عن رؤية الحق فيما أتوا به.

فكل من شطح فعن غفلة شطح، وما رأينا ولا سمعنا عن ولي ظهر منه شطح لرعونة

---

(١) هو من تغني معرفته عن الإشارة إليه، وإن كانت معرفته مستحيلةً على غير أبناء جنسه، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] فهو ممن ورثوا : «لا يعرف قدري غير ربِّي»، فكان من موروثه ﷺ مُربَّى ولغيره مُربي، سُتروا في الدنيا؛ تخلقًا بأخلاق سيدهم، خاتم الولاية المحمدية، حجَّة الله على أوليائه، العين التي يشرب بها عباد الله، الولي، الكامل، المقرَّب، السند، العالم بالله تعالى، المؤيَّد من الله ورسوله في جميع شئونه، سيدنا محمد بن علي بن محمد الطائي الأندلسي، المعروف بالشيخ ابن العرب، صاحب الفتوحات والفصوص والمشاهد القدسية وغيرها ما لا يحصى ﷺ، ونفعنا به في الدارين، آمين، وأماتنا على محبته ومحبة جميع الصالحين، آمين.

نفس وهو ولي عند الله إلا ولا بدَّ أن يفتقر ويذل ويعود إلى أصله، ويزول عنه ذلك الزهو الذي كان يصول به.

فتلك لسان حال الشطح. هذا إذا كان بحق فهو مذموم، فكيف لو صدر من كاذب.

فإن قيل: وكيف صورة الكاذب في الشطح مع وجود الفعل والأثر منه؟.

قلنا: نعم ما سألت عنه، فأما صورة الكاذب في ذلك، فإن أهل الله ما يؤثرون إلا بالحال الصادق إذا كانوا أهل الله، وذلك المُسمَّى شطحًا عندهم حيث لم يقترن به أمر إلهي أمر به كما تحقق ذلك من الأنبياء عليهم السلام.

فمن الناس من يكون عالـمًا بخواص الأسماء فيظهر بها الآثار العجيبة والانفعالات الصحيحة، ولا يقول: إن ذلك عن أسماء عنده، وإنما يظهر ذلك عند الحاضرين أنه من قوة الحال، والمكانة عند الله والولاية الصادقة، وهو كاذب في هذا كله.

وهذا لا يُسمَّى شطحًا ولا صاحبه شاطحًا، بل هو كذب محض ممقوت.

فالشطح: كلمة صادقة صادرة عن رعونة نفس عليها بقية طبع تشهد لصاحبها ببعده من الله في تلك الحال، وهذا القدر كاف في معرفة حال الشطح.

وقال قُدِّس سِرُّه في الجزء الأول من فتوحاته في الباب التاسع والثلاثين: حكي عن بعضهم أنه قال: أقعد على البساط[1]. يريد بساط العبادة.

وإياك والانبساط: أي التزم ما تعطيه حقيقة العبودية من حيث أنها مكلفة بأمور حدَّها لها سيدها، فإنه لولا تلك الأمور لاقتضى مقامها الإدلال والفخر والزهو من أجل مقام من هو عبد له ومنـزلته، كما زها يومًا عتبة الغلام وافتخر فقيل له: ما هذا الزهو الذي نراه في شمائلك مما لم يكن يعرف قبل ذلك منك؟ فقال: وكيف لا أزهو وقد أصبح لي مولى

---

(١) نقلاً عن مدارج السالكين لابن قيم (٢/٣٧٤)، وعقب سيدي عبد الوهاب الشعراني في رسالته الفتح في تأويل الشطح (ص٧٨) ما يضاهي كلام المصنف.

وأصبحت له عبدًا.

فما قيض العبيد عن الإدلال؟ وأن يكونوا في الدنيا مثلما هم في الآخرة، إلا التكليف فهم في شغل بأوامر سيدهم إلى أن يفرغوا منها فإذا لم يبقَ لهم شغل قاموا في مقام الإدلال الذي تقتضيه العبودية، وذلك لا يكون إلا في الدار الآخرة، فإن التكليف لهم مع الأنفاس في الدار الدنيا.

فكل صاحب إدلال في هذه الدار فقد نقص من المعرفة بالله على قدر إدلاله، ولا يبلغ درجة غيره ممن ليس له إدلال أبدًا، فإنه فاتته أنفاس كثيرة في حال إدلاله غاب عما يجب عليه فيها من التكليف الذي يناقض الاشتغال به والإدلال، فليست الدنيا بدار إدلال.

ألا ترى عبد القادر الجيلي مع إدلاله لما حضرته الوفاة وبقي عليه من أنفاسه في هذه الدار ذلك القدر الزماني، وضع خده في الأرض، واعترف بأن الذي هو فيه الآن هو الحق الذي ينبغي أن يكون العبد عليه في هذه الدار، وسبب ذلك أنه كان في أوقات صاحب إدلال لما كان الحق يعرفه به من حوادث الأكوان.

وعصم الله أبا السعود تلميذه من ذلك الإدلال فلازم العبودية المطلقة مع الأنفاس إلى حين موته، فما حكي أنه تغيَّر عليه الحال عند موته كما تغيَّر على شيخه عبد القادر.

وحكى لنا الثقة عندنا، فقال: سمعته يقول: طريق عبد القادر في طريق الأولياء غريب، وطريقنا في طريق عبد القادر غريب ﷺ. وعن جميعهم ونفعنا بهم، والله يعصمنا من المخالفات.

وإن كانت قدِّرت علينا فالله أسأل أن يجعلنا في ارتكابها على بصيرة حتى يكون لنا بها ارتقاء درجات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل انتهى.

وقال سيدي عبد الوهاب الشعراني قُدِّس سرُّه في كتابه «**الأنوار القدسية**»:

ومن شأنه: أي الفقير العارف إذا استفتي على شخص من الفقراء في أمور لا تُدرك إلاّ بالذّوق ألا يبادر إلى الإنكار، بل يتحيل في الرد عنه ما أمكن.

هكذا كان شأن شيخ الإسلام زكريا، والشيخ عبد الرحيم الأنباسي رضي الله عنهما، فإن رأى ذلك الأمر يلزم منه فساد ظاهر الشريعة أفتى ولام عليه؛ لأن صاحب هذا الكلام ناقص فليس من أهل الاقتداء ونصرة الشرع أولى من الأدب معه بخلاف كُمَّل الأولياء كأبي يزيد البسطامي وعبد القادر الكيلاني رضي الله عنهما وأضرابهما، فيؤول كلامهم ما أمكن انتهى.

والذي أراه أن ما صدر عن سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلي قُدِّس سرُّه ونفعنا الله به من الكلمات التي رؤيت بمرأى الشطحات فهي مؤوَّلة متصرفة عن مقام الشطح على الغالب.

وأما بعض الكلمات التي لا تقبل التأويلات فهي نسبت إليه، ولم تكن منه ﷺ على الأصح، كالكلمات التي سمَّاها واضعها عليه من الله ما يستحق بالغوثية والمعراجية وأسندها إلى الشيخ ﷺ، وأخذ به نزه الله مقامه إلى مذهب الحلولية وأهل الوحدة المطلقة[1]، فهي بهتان وافتراء محض عليه قُدِّس سرُّه.

---

(١) قال الشيخ الشعراني: ومن أخلاقهم: التحفظ من دخول مقام التوحيد ذوقًا، فإن فيه غوائل تخالف إجماع سائر الملل، وهو اعتقاد الوحدة المطلقة، حتى أن بعضهم قال: إن حقيقة الروح هو الله، وحقيقة إبليس هو الله، وأنه يجب طاعة النفس وطاعة إبليس في كل شيءٍ أمر العبد به، وهذا أعظم مراتب الجهل والخرافات.

فإن العبد لا يلحق مرتبة السيد أبدًا بالإجماع، ولو تأمَّل القائل بذلك في قوله لوجده كلامًا غير معقولٍ، كيف يقول بالوحدة المطلقة ويثبت هناك عبدًا يعصي مثل إبليس أو غيره، فتعوّذ بالله من اعتقادٍ يخالف اعتقاد سائر الملل، وتعالى الله عمَّا يقول الجاحدون علوًّا كبيرًا. وقد عجز العقلاء كلهم أن يتكلموا بلسان فرد لا ثاني معه، واعترفوا بالقصور عن ذلك، فإنه يبطل رسالة جميع الرسل، ويبطل أحكام جميع الكتب؛ لأنها كلها إنما جاءت إلا تثنية رب وعبد، كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «فرائد القلائد في علم العقائد»، وذكرنا فيه أن جميع الأكابر من الأولياء ملازمين لآداب =

وإنه ﷺ من أعظم من تحقق بقدم الاتباع للنبي ﷺ في الأقوال والأفعال، وقد دلّت عليه إرشاداته وكمالاته وعباداته.

=

العبودية، لم يخرج أحدٌ منهم إلى قضاء ساحة الربوبية للناس في كل عصرٍ، حتى أن بعضهم أعطاه تعالى حرف (كن) في هذه الدار، فلزم الأدب، ولم يتصرف به فيها، وقال: لا أزاحم أوصاف الربوبية.

ومنهم: أبو السعود بن الشبل، الذي شهد فيه الشيخ محيي الدين بن العربي أنه أكمل من شيخه الشيخ عبد القادر الجيلي ﷺ، وما أعطى الله تعالى عباده علم التوحيد إلا ليعلموا به أنه تعالى إلهٌ واحدٌ، لا ليتصرفوا فيه فيما ليس لهم، فإنه يخالف أوصاف العبودية التي بها تقربة العبد من حضرة ربه.

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: من حين خلق الله تعالى الخلق فهم معه بلا وصلٍ ولا فصلٍ؛ إذ الوصل والفصل لا يكون إلا مع المجانس، ولا مجانسة بين الله تعالى وبين خلقه بوجهٍ من الوجوه، وما تعلق علمه تعالى بهم إلا وهم مفصولون عنه.

قال لهم: كونوا، فكانوا ولو كانت حقائقهم موجودة، كما يقول من يقول بقدم العالم ما كانوا يحتاجون إلى قول (كن)؛ لأن قول (كن) لا تتوجه إلا على معدومٍ لتوجده، فقد أخطأ والله من قال بعضه يعشق بعضًا فهو المعشوق والصب إن كان قال ذلك عن صحوٍ، وإن كان قاله عن سكرٍ فالسكران غير معتبر العبادة.

وأما ما يستدل إليه أصحاب شطح من نحو قوله ﷺ: «ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطلٌ، وكل نعيمٍ لا محالة زائلٌ، وأنها أصدق كلمة قالها شاعر لبيد».

فلا يصح دليلاً للقائلين بالوحدة المطلقة؛ لأنه صرّح بأن مع الله تعالى خلق، ولكن وجودهم بإمداد الله تعالى لهم بالوجود، لا مستقلاً بأنفسهم.

ومن كان وجوده بغيره فهو كالباطل؛ لأنه باطلٌ من كل وجهٍ.

فافهم يا أخي، واعرض هذا التقدير الذي قررناه على مريدي عصرك تعرف حالهم، ولا تنسَ نفسك، والحمد لله رب العالمين. وانظر: الكوكب الشاهق (ص١٠٤) بتحقيقنا.

وأما من نسب إليه من قوله: (قدمي على رقبة كل ولي لله) فما هو إن صحَّ إلاّ مؤوَّلٌ بتأويل شرعي حصل فيه الإيهام لا غير، وتمسك بظاهر جماعة من أهل الغلو في الشيخ الذين اتخذوه حرفة لإعلاء أنفسهم وجلب مصالحهم.

وانظر ما قاله الإمام أبو حيان في تفسيره «البحر المحيط» في معنى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] قدم صدق.

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس وابن زيد: هي الأعمال الصالحة من العبادات.

وقال الحسن وقتادة: هي شفاعة محمد ﷺ.

وقال زيد بن أسلم وغيره: هي الفوز بمحمدٍ ﷺ.

وقال ابن عباس وغيره: هي السعادة السابقة لهم في اللوح المحفوظ.

وقال مقاتل: سابقة خير عند الله قدموها.

وإلى هذا المعنى أشار وضاح اليمن في قوله:

مَالَكَ وضَاحِ دَائِمِ الغَزَل ... أَلَسْت تخشَى تَقَارُب الأجَل
صَلِّ لِذِي العَرشِ واتَّخِذ قدمًا ... يُنَجِّيك يَوم العثار والزَّلل

وقال قتادة أيضًا: سلف صدقٍ.

وقال عطاء: مقام صدقٍ.

وقال أيضًا: إيمان صدقٍ.

وقال الحسن أيضًا: ولد صالح قدموه.

وقيل: تقديم الله في البعث لهذه الأمة، وفي إدخالهم الجنة كما قال: نحن الآخرون السابقون يوم القيامة.

وقيل: بقدم شرف[1].

ومنه قول العجاج:

ذَلَّ بَنُو العَوَام مِن آل الـحِكَم وَتَـرَكُوا المُـلك لِملك ذِي قِدَم

وقال الزجاج: درجة عالية وعنه منـزلة رفيعة ومنه قول ذي الرمة.

لَكُـم قَـدَم لا يَنكِرِ الـنَّاس أنَّهَا مَع الحَسَب العَادِيّ طمت عَلَى البَحرِ

وقال الزمخشري: قدم صدق عند ربهم سابقة وفضلاً ومنـزلة رفيعة، ولما كان السَّعي والسَّبق بالقدم سُمِّيت المسعاة الجميلة والسابقة قدمًا، كما سُمِّيت النعمة يدًا؛ لأنها تعطى باليد، وباعًا؛ لأن صاحبها يبوع بها، فقيل: لفلان قدم في الخير.

وإضافته إلى صدق دلالة على زيادة فضل، وإنه من السوابق العظيمة.

وقال ابن عطية: والصدق في هذه الآية بمعنى الصلاح، كما تقول: رجل صدق.

وعن الأوزاعي قدم بكسر القاف تسمية بالمصدر انتهى.

فإذا نظرت لتفسير هذه المعاني رأيت أن الشيخ قُدِّس سرُّه أراد بذلك الأعمال الصالحة من العبادات أو شفاعة النبي ﷺ، أو السعادة السابقة لجنس الأولياء.

وكأنه يقول سعادتِي السابقة، كما أنها طوق مِنَّة من الله طوَّق الله به عنقي، فكذلك هو طوق يعلو عنق كل وليٍّ لله، أو أراد بذلك سابقة خير قدمها عند الله باتباع رسول الله ﷺ، وهي كذلك شاملة للجنس على أن أمر الإتباع نافذ على رقبة كل ولي.

أو أراد بقوله: سلفه الصادق، أو مقام الصدق، أو إيمان الصدق، أو منـزلة الاتباع الرفيعة ودرجة الاقتداء المتبعة، وكل ذلك شامل لقائله إن كان من جنس الأولياء.

ولا ريب في أن الشيخ قُدِّس سرُّه من أعيان الأولياء الكرام رضي الله عنهم، وإلا

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٧٨/٨).

فتأويل الجهلة من أصحاب الإفراط بمحبة الشيخ ﷺ هذه المقولة وتفسير معناها، مع عدم ملاحظة الدقائق الشرعية، وحفظ حرمة جنس الأولياء أهل المراتب العليَّة، وإهمال رعاية ما نصَّ من تكريم النوعية الآدمية، والجزم على مضمر سر هذه الكلمة بقدم الرجل المركب من لحم وعظم ضلال وغلو من أولئك الجهلة المفرطين واستخفاف بأولياء الله تعالى.

ويعجبني ما نقله السيد الفاضل نعمان أفندي الآلوسي الحسيني القادري في كتابه **«غالية المواعظ»** بما نصَّه:

واستخفاف العلماء إنما يكون كفرًا إذا كان عاملاً بعلمه؛ لأن من لم يعمل بعلم لا يستحق التعظيم، ومن قال لفقيه أخذ شاربه ما أعجب قبحها أو أشد قبحًا قصَّ الشَّارب أو لفَّ العمامة تحت الذقن.

قال في الظهيرية: يكفَّر؛ لأنه استخفاف في العلماء.

ومن قال: قصصت شاربك وألقيت العمامة على العاتق استخفافًا كفر. كذا في الخلاصة للحميدي انتهى.

فأين هذا الاستخفاف من استخفاف من يصرف كلمة الشيخ ﷺ لقدم الرجل، ويقصد بذلك تحقير أولياء الله الذين طالما خشعت أعناقهم لله، واشتغلت ألسنتهم بذكر الله، وتعفَّرت جباههم بتراب السجود لله فهل ذلك إلا من الجهل والعناد، وإرادة العلو في الأرض والفساد.

وحاشا الشيخ قُدِّس سرُّه أن يقصد هذا المعنى على شرط صدور هذه الكلمة منه، فإنه من أكمل من تحقق بشريعة جده ﷺ، وقد عبَّر عنه العلماء الأعلام بشيخ الإسلام فكيف يصدر من مثله هذا التجاوز على جنسه، والطاعن في جنسه كالطاعن في نفسه، وليعلم أن مرتبته قدِّس سرُّه الكمال والعمل بشريعة النبي الطاهر في الأقوال والأفعال.

فعليك يا أخي بإجلال منـــزلته، وإعلاء شرفه ومرتبته، ولا تنظر لأقوال السفهاء

الممقوتين الذين ينسبون ما لا يرضاه إليه، ويصرفون لأغراضهم مؤاخذة ظاهر الشريعة عليه، وأنّى لهم ذلك وهو وسيع الرحاب ومحفوظ الجناب، وقد تخلق ﷺ بأعظم أخلاق الفقراء وتمكن فيها تمكن العاملين من العلماء.

قال سيدنا عبد الوهاب الشعراني قُدِّس سرُّه في كتابه «الدرر واللمع» ما نصَّه:

وأما السيد عبد القادر الجيلي ﷺ فمكث في بداية أمره نحو خمس وعشرين سنة يلبس من شراميط الكيمان، ويأكل من قمامات البقول التي يرميها الناس في المزابل، أو تسقط منهم في موارد الماء حتى وسَّع الله عليه بالحلال انتهى[1].

فانظر لمبالغته في الورع ووقوفه عند حدود الله، وتمكُّنه بالأعمال الصالحة المرضية عند الله، وإنك إذا طالعت سيرته الزكية تعلم ما له من المجاهدات وعظيم العبادات، وتعتقد اعتقادًا جازمًا أنه من خواص المتمكنين الواقفين عند ظاهر الشريعة الغراء، ومن أعظم الناصرين لسُنَّة جده سيد الأنبياء.

ولا يخفى أن جماعة من الشاذلية ابتلوا بإسناد ما هو أعظم من هذه الكلمة إلى الأستاذ أبي الحسن الشاذلي قُدِّس سرُّه وهي قولهم أنه قال: قدمي على جبهة كل وليٍّ لله.

---

(١) ثم قال عقب ما ذكر المصنف: وقد بلغت بحمد الله تعالى في الورع من حداثة نفسي حتى كنت لا أمرُّ تحت ظل عمارة أحدٍ من الولاة وحاشيتهم، فضلاً عن الجلوس فيها لصلاةٍ أو غيرها. وسبقني إلى ذلك الشيخ أبو إسحاق الشيرازي. والشيخ تقي الدين الحصني شـارح أبي شجاع. وأنا أحمد الله على ذلك إلى وقتي هذا، وإنما اختلف عليَّ المشهد فقط، فكان مشهدي أول دخولي في طريق صحبة ورع القوم غلبة شهود المُلْكِ للخلق مع غفلتي عن شهود الملك للحقِّ تعالى.

ومشهدي الآن مع ورعي عكس ذلك؛ إذ المعرفة بأن المُلك لله لا تطفئ نور الورع لأجل الجزء البشري، الذي يشهد الملك للخلق، كما أجمع عليه القوم، فما خرج أحدٌ عن مطالبته بالورع لا في حال بدايته، ولا في حال نهايته، بل هو تحت تحجير الشارع حتى يموت، وانظر: الدرر واللمع في بيان الزهد والورع (ص٣١) بتحقيقنا.

وابتلي رجال الطريقة التجانية المعروفة في المغرب الآن بإسنادهم إلى الشيخ أحمد التجاني صاحب طريقتهم، أنه قال: قدماي هاتان على هامة كل وليّ لله.

فإذا أمعنت النظر فيما سبق من التفصيل ترى أن الكلمة المنسوبة للقطب الجيلي ﷺ مع جلالة قدره ورفعة مقامه، وقبول كلمته التأويل، قال فيها القوم ما قالوا.

فما بالك بالكلمات التي تُنسب لمن لم يبلغ منـزلة هذا الإمام الجليل مما هو دونه شهرة ومكانة من الأولياء، والمؤاخذة الشرعية حافة بكلماتهم من كل جهة فهل الإنكار صحة النسبة المسندة إليهم حفظًا لمقامهم وإجلالاً لمرتبتهم، وردّها بالكلية على محصنيها ومعتقديها تعظيمًا لجنس الأولياء، فإن الجنس أجلّ وأفضل من الفرد كيف كان.

فاعمل بهذا يا أخي فهو طريق الصواب، وقل للسفهاء المتشيِّخة الذين لا يميِّزون بين الحلال والحرام قبل تفكهكم بالكلمات المنسوبة إلى الشيخ ﷺ، وأمثاله وصرفها بفهمكم السَّقيم إلى الوجه المردود شرعًا.

عاملوا الله كما عاملوه، وأصدقوا الله كما صدقوه، وجاهدوا في الله كما جاهدوا في الله، وتشبثوا بذيل الاتّباع من غير ابتداع، وارجعوا عن نسبة القوم إلى التجاوز فإنهم أدبهم الله وحماهم وصان حماهم.

وما أحسن ما قاله سيدنا المؤلف ﷺ في كتابه «البرهان المؤيد»[1]:

وهو العبد متى تجاوز حدَّه مع إخوانه يعد في الحضرة ناقصًا، التجاوز علم نقص ينشر على رأس صاحبه يشهد عليه بالدعوى، يشهد عليه بالغفلة، يشهد عليه بالزهو، يشهد عليه بالحجاب، يتحدث القوم بالنعم لكن مع ملاحظة الحدود الشرعية، الحقوق الإلهية تطلبهم في كل قول وفعل، الولاية ليست بفرعونية ولا بنمرودية.

قال فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

---

(١) انظر: البرهان (ص٥٢).

وقال قائد الأولياء وسيد الأنبياء ﷺ: «لست بملك نزع ثوب التّعالي والإمرة[١]».

والفوقية كيف يتجرأ على ذلك العارفون والله يقول: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وصف الافتقار إلى الله وصف المؤمنين قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥]، هذا الذي أقوله علم القوم تعلّموا هذا العلم فإن جذبات الرحمن في هذا الزمان قلّت انتهى.

ومن العجب ما ذكره الشيخ نور الدين علي صاحب البهجة القادرية[٢]، وتمسّك به جماعة من الشاذلية والتيجانية وهو قوله: إن الكلمة التي نحن بصدد تأويلها لسان القطبية.

قلت: يُقال للشيخ المذكور، ولمن وافقه من الفرقتين المذكورتين: أَهَلْ خلت الأمة المحمدية من الأقطاب؟ وما أحرز مقام القطبية إلا هؤلاء الثلاثة الذين ذكرتموهم قُدّست أسرارهم على أن هذا اللسان لم ينقل عن غيرهم أبدًا.

فما أدري ماذا يكون جوابهم.

والأعجب أنهم قالوا: إن هذا اللسان يتكلم به الكامل من الأقطاب دون غيره.

فقلت: غاب عن أذهانهم أن من عهد أكمل الأقطاب المحمديين.

وأفضل المخلوقين بعد النبيين والمرسلين، سيدنا الخليفة الأول الصديق الأكبر ﷺ إلى عهد من أسندوا إليهم هذه الكلمات قُدّست أسرارهم، سكت الأكملون المتقدمون الذين لا شبهة في صحة أكمليتهم ورجحانهم بحق على الخلق كبارًا وصغارًا، ولم ينطق واحدٌ منهم بمثل هذه الكلمات، فهل للشيخ ريبة في كمالهم؟ حمانا الله.

فكذلك إذا سُئل بهذا السؤال: ما أدري كيف يقول؟.

ومن العجائب أن قومًا أرادوا صرف هذه الكلمات على ظاهرها، وإدخالها في باب

---

(١) لم أقف عليه هكذا.

(٢) وهو كتاب بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في بعض مناقب القطب الرباني الجيلاني (بتحقيقنا).

التحدث بالنعمة.

والحال أن ما جاء في السُّنة من باب التحدث بالنعمة مشهور، وفي كتب السُّنة مسطور.

ولله دُرّ سيد الأقطاب شيخنا المؤلف فإنه أوضح في كتابه «البرهان» سرائر هذا الشأن، وكشف به أستار الحقائق وبيَّن وجه الأدب مع المخلوق والخالق.

وقد عرف وأوضح ﷺ في كتابه المذكور أمر التحدث بالنعمة فقال:

أي أخي. انظر كيف كان نبيك عليه أفضل الصلوات والتسليمات، وكيف قال، وكيف خالق الناس برًّا وفاجرًا، واعمل بعلمه وقل بقوله، وتخلّق بخلقه ﷺ، إن كنت لا تعلم فاسأل العلماء.

قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

يتحدث القوم بالنعم؛ اعترافًا بنعمة المنعم وشكرًا لها، وحثًا للناس على العمل لتحصل لهم هذه البركة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

يقول المتحدث بالنعمة: أطلعني ربي على كذا وعلمني كذا، ووهبني من الخير والبركة كذا، ولكن لا يقول أنا خير منكم، أنا أجلُّ منكم، أنا أشرف منكم.

هذه كلمات دعوى تكون من رعونة النفس، ينطق بها لسان الأحمق، ما الذي خيرني عليك، وأجلّني وشرّفني صلاة وصوم وغيرها من العبادات، لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون لولا امتثال قوله تعالى: ﴿اشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] لخاط العاقل فمه بمخيط.

أي أخي. تفتخر بأبيك آدم عليه السلام، الصفوة الأولى كفر أكثر أولاده، وكذلك أكثر

الأنبياء والمرسلين تفتخر بعلمك، إبليس حل كل عويص، حل وقرأ صحاف الموجودات.

تفتخر بما لك، قارون هلك بماله.

تفتخر بملكك لم يغن ملك فرعون عنه من الله شيئًا ما هلك إبراهيم عليه السلام بعد أن تجرد إلى ربه.

ما ذل موسى عليه السلام بعد أن فرش بساط ذله بين يدي خالقه.

ما ضاع شأن يونس عليه السلام بعد أن قال بصدق الالتجاء: لا إله إلا أنت سبحانك.

ما خاب يوسف عليه السلام بعد أن استسلم لقضائه معتمدًا عليه.

هكذا النبيون، هكذا المرسلون، هكذا الصِّديقون، هكذا الصَّالحون، لا تبديل لكلمات الله انتهى(١).

وقال الإمام عبد الوهاب الشعراني قُدِّس سرُّه في كتابه «الجواهر والدرر»:

وسمعته يعني شيخه رضي الله عنهما يقول: قال لي بعض أهل الكتاب: نحن جعلنا مع الله إلها آخر وأنتم جعلتم آلهة لا تحصى. فقلت: ما هي؟ قال: تقولون بألوهية الأسباب. فقلت له: هذا باطل عنَّا، وإنما هذا كلام من هو خارج عن الصراط المستقيم، فقال: إذا أنصفتم فنحن أقل شركًا بالله تعالى منهم.

فعليك يا أخي باتِّباع العلماء العاملين من السلف والخلف، وإيَّاك وما انتحله غلاة المتصوفة، والله يتولى هداك انتهى.

قلت: وأظن أن القائلين بألوهية الأسباب أقل شركًا من القائلين بألوهية الأشياء، أعني أصحاب الوحدة المطلقة؛ ولهذا حذر القوم العارفين من سماع كلماتهم، والقول بأقوالهم.

وانظر كيف يقول سيدنا المؤلف رضي الله عنه في كتابه (البرهان): صموا أسماعكم عن علم

---

(١) انظر: البرهان المؤيد (ص٤١).

الوحدة وعلم الفلسفة وما شاكلهما، فإن هذه العلوم مزالق الأقدام إلى النار حمانا الله وإياكم الظاهر الظاهر، اللهم إيمانًا كإيمان العجائز.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ذرهم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] انتهى.

ومن المعلوم أن فتاوى العلماء وأئمة الدين طافحة بتكفير من يعتقد الوحدة المطلقة والأمر وفاقي بين العلماء لا نزاع فيه نسأل الله الحماية.

وأما أصحاب الشطح فالقول فيهم بالنظر إلى الكلمات التي تُروى عنهم، فإن كانت تقبل التأويل وقائلها رجل عارف متمكن في دينه أخذته سكرة الحب فتكلم كلمة يصح فيها التأويل نؤول كلامة على شرط درء الحدود بالشبهات عملاً بقوله ﷺ: «**ادرءوا الحدود بالشبهات وأقيلوا الكرام عثراتهم إلا في حد من حدود الله**[1]».

ونرى أن الرجل المتمكن الكامل أجلّ منـزلة وأرفع مكانة من الشطاح، كيف كان لتحققه في مقام العبودية الذي هو أشرف المقامات وأرفع الدرجات، وهذا الذي اختاره أئمة هذا الدين سلفًا وخلفًا.

***

الحكمة الثامنة

ثم قال المؤلف ﷺ:

[دَفترُ حَالِ الرَّجُلِ أصْحَابه].

قد وافقت هذه الحكمة المباركة مضمون ما جاء في الخبر الشريف أن المرء على دين خليله.

وقال الإمام الشعراني في كتابه «الجواهر والدرر»: إنهم يعني أهل الله يقولون: من لم

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٧٤/١).

يجتمع بشيخ مات فليجتمع على تلامذته يحيط به علمًا انتهى.

ولينظر كيف يقول سيدنا المؤلف ﷺ في كتابه «البرهان»:

حالة الشيخ كمالاً كانت أو نقصانًا تظهر في أتباعه ومريديه بطنًا بعد بطن، فإن كانت حالة كمال علا بها حال الكامل وذاد بها حال الناقص، وإن كانت حالة نقص نقص بها حال الكامل، وذهب بها حال الناقص، إلاّ إن وهب الكريم فلا تأثير للأحوال.

إيَّاكم وإبقاء أثر بنقص حال كُمَّل أتباعكم ويذهب حال ناقصهم الرجل من تظهر أثاره بعده قال الرجال:

إنَّ آثارَنَــــا تَــــدُل عَلَيــــنَا فَانظُــرُوا بَعــدنَا إلى الآثَـــارِ

اتركوا بعدكم الذل والانكسار، والتجرُّد من الدعوى، والخروج من حيطة الاستعلاء، والتذلُّل بباب المولى، ومحبة الفقراء والعلماء، وموافقة الأقدار بالتسليم إلى الله والتمسك بسنة رسوله ﷺ.

وإياكم والغرة بالوقت، فما هو عند العارف بشيء إلا إذا لم يصرفه في غير الطاعة، ويأخذ منه ما يثلج صدره، أجل من سنَّ سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنَّ سُنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ما بقي من قوم سليمان عليه السلام أحد ذهب ملكه ونسخت شريعته، ونبينا عليه أفضل الصلاة والسلام لا يذهب شأنه ولا تنسخ شريعته بإذن الله.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ المِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٠].

وصف سليمان نازعه وصف الملك الديان فطمسه، قال تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦].

ووصف النبي ﷺ لما كان العبدية إعانة وصف الربوبية فدام ذكره وعلا أمره، ﴿وَاللَّهُ يَعْــصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]، وقد ترون أن الملوك وذرارهم وحواشهم تذهب، ورسومهم تنقلب والرعية على حالها.

هؤلاء نازعتهم صفة الربوبية لما رأوا المالكية فزالوا، وهؤلاء صانتهم صفة الربوبية لما

تحققوا بمنـــزلة المملوكية فداموا.

قال سيدي الشيخ منصور: صحيفة حال الشيخ اتباعه لهم من حاله وخلقه شمة لا بدَّ أن تفعل كيف كانت إلا إذا غلبها حال سماوي اختص به التابع فربما يعلو منـــزلة شيخه ﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٠].

ترى في أصحاب الحلاَّج حب القول بالوحدة[1].

ترى في أصحاب أبي يزيد رحمه الله حب الإغماض والتكلُّم بالرقائق.

ترى في أصحاب الجنيد ﷺ حب الجمع بين لسان الطريقة والشريعة.

ترى في أصحاب السلماباذي حب المعالي لما كان عليه من المنـــزلة.

ترى في أصحاب سيدي الشيخ أبي الفضل حب الوحدة إلى الله بالذل لله والخلق.

وقد تنعكس هذه القاعدة في البعض، ولكن يكون ذلك بالاختصاص؛ قال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥].

معروف الكرخي، وداود الطائي، والحسن البصري، ومن تأدَّب بصحبتهم من هذه الطائفة رضي الله عنهم اختصروا أسباب السير على كلمتين: التمسُّك بالشرع، وطلب الحق وحدة انتهى[2].

ويناسب هذا قول بعضهم:

عَنْ المَرء لا تَسأل وَسَل عَن قَرينه فَكُـــل قَـــرينٍ بِالمُـــقَــارن يقتَدي

ويحسن هنا أن نذكر للمتبرك جماعة من أصحاب سيدنا المؤلف وأصحابهم؛ ليتنبَّه اللبيب ويفهم جلالة قدره، وعلو شأنه وأمره.

وقد عقدت لأصحابه الكرام وأصحابهم الأعلام بابًا مستوفيًا مخصوصًا في كتاب «قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر».

---

(١) قد بينا الخلاف في ذلك، وحمل أحوال الشيخ الحلاج قدس سره على التأويل، وأنه من قبيل الشطح عند القوم.

(٢) انظر: البرهان (ص٤١).

اتفق المؤرخون كافّةً على أن تلامذته ﷺ لا تُحصى.

وأطبق الصوفية وأعيان علماء السادة الرفاعية على أن خلفائه وخلفائهم بلغت عددهم مائة وثمانين ألفًا حالة حياته ﷺ.

فمن الذين تخرج بصحبته الإمام الأجل أبو شجاع الشافعي الفقيه شيخ مجتهد المذهب الشافعي الإمام عبد الكريم الرافعي.

ومنهم: الشيخ أبو الفرج عمر الفاروقي، ثم الكازروني الواسطي، وعنه أخذ ولده الإمام أبو إسحاق إبراهيم، وعنه ولده عز الدين أحمد الفاروقي الكازروني.

وعنه جماعة أعاظم من جملتهم: برهان الدين العلوي، وعماد الدين أبو العلم محمد الجندي، والنجم الأصفهاني، ورضا الدين الطبري، وتتصل به أيضًا نسبة الإمام جلال الدين السيوطي، والإمام الشعراني وغيرهم.

وناهيك بهذه الطبقة المباركة من طبقة.

ومنهم: أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن سيد بونة الخزاعي، وعنه أخذ القطب أبو محمد عبد الرحمن المدني العطار المشهور بالزيات، وعنه أخذ القطب عبد السلام بن بشيش ويقال: مشيش

وعنه أخذ القطب أبو الحسن الشاذلي قُدِّس سرُّه، وتتصل نسبة الشاذلي أيضًا بالشيخ عبد السلام بن مشيش عن القطب الكبير برى العراقي عن الغوث الأكبر سيدنا المؤلف ﷺ، وعن الشيخ بري المشار إليه لبس الخرقة الرفاعية سيدنا القطب السيد أحمد البدوي(١)، كما صرَّح بذلك الشعراني في الطبقات الوسطي.

---

(١) شهرته ﷺ في جميع الأرض تُغني عن تعريفه، ونذكر جملة من أحواله تبرُّكًا به فنقول: مولده بمدينة فاس بالمغرب؛ لأن أجداده الكرام انتقلوا أيام الحجّاج إليها حين أكثر القتل في الشرفاء.

قال بعض العارفين: أنه حصلت له جمعيّة على الحق تبارك وتعالى فاستغرقته إلى الأبد، ولم يزل حاله يتزايد إلى عصرنا هذا.

انظـــر: كتاب العظة والاعتبار آراء في حياة السيد البدوي الدنيوية وحياته البرزخية لسيدي أحمد محمد حجاب، بتحقيقنا، والسيد البدوي لأستاذنا الدكتور جودة المهدي حفظه الله.

ومنهم: القطب الجليل الشيخ حسن القطناني علم الديار الشامية، والحافظ الشيخ تقي الدين الواسطي، والإمام أبو الفتح الواسطي نزيل الإسكندرية شيخ مشايخ الإسلام عبد العزيز الديريني، وعلي المليجي، وعبد السلام الإقليبي رضي الله عنهم أجمعين.

ومنهم: الشيخ تقي الدين الفقير النهروندي الواسطي شيخ أشياخ الشيخ أبي الحسن الشاذلي، قُدِّست أسرارهم.

ومنهم: الشيخ أبو بدر العاقولي الواسطي، والشيخ عمر الهروي الشافعي، والشيخ علي بن نعيم البغدادي، والشيخ الجليل قطب الرجال العارف الربّاني الشيخ حياة بن قيس الحراني وأمثالهم رضي الله عنهم أجمعين ونفعنا بهم والمسلمين.

وأقول فيه متبرّكًا مرتجلاً:

أبو العَلَمين الغَوث ذُو القَدَم التي ... عَلى أَثَرِهَا الأفراد لله تَذهَب

عِصَابته زَهر النُّجُوم وأنّهم ... متى غاب منهم كوكبٌ لاحَ كوكبُ

***

الحكمة التاسعة

ثم قال المؤلف ﷺ:

[تَعِبَ النَّاسُ وحِسَابِهم عَلَى الرِّئَاسَةِ والشَّهْوَةِ، وفِيْهِمَا الغَايَات].

لا يخفى ما في هذه الحكمة الشريفة من المضامين اللطيفة المستنبطة من أصل السُّنة السنية المحمدية والشرعة الطاهرة الأحمدية.

وانظر كيف يقول رسول الله ﷺ في الرئاسة وطلب التعالي على الناس والحرص على الإمارة:

«إنكم تحرصون على الإمارة وإنها حسرة يوم القيامة وندامة إلا من أخذها

بحقها[١]».

وجاء في حديث آخر: «**حُب المال والشرف: ينبتان النفاق في القلب**[٢]».

وقال ﷺ: «**من جعل قاضيًا بين الناس فقد ذبح بغير سكين**[٣]».

وقد جرب أن طلب الرئاسة محفوف بالمتاعب والأخطار، وقلَّ من ينجو فيه من النوائب والأكدار، وإذا صفا الأمر نادرًا لرجل من أصحاب الرئاسة قل أن يجمع بين الدنيا والآخرة.

وأما الشهوة: فهي أم القبائح وحب الرئاسة مادة من مواد الشهوة.

قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ**﴾ [آل عمران:١٤]: إن الشهوات ها هنا هي الأشياء المشتهيات، سُمّيت بذلك على الاستعارة للتعلق والاتصال، كما يُقال: للمقدور قدرة وللمرجو رجاء وللمعلوم علم، وهذه استعارة مشهورة في اللغة يُقال: هذه شهوة فلان: أي مشتهاة.

قال صاحب الكشاف[٤]: وفي تسميتها بهذا الاسم فائدتان:

إحداهما: إنه جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها مشتهاة محروصًا على الاستمتاع بها.

والثانية: إن الشهوة صفة مسترذلة عند الحكماء مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمة. فكان المقصود من ذكر هذا اللفظ التنفير عنها انتهى.

وثابت بالأدلّة العقلية أن الشهوات أبواب المصائب في النفس والمال والدين.

---

(١) رواه مسلم (٣/١٤٥٧)، والبيهقي في الكبرى (١٠/٩٥).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣/٤٧٤)، وابن حبان (٨/٢٤) بنحوه.

(٣) رواه أحمد (٢/٢٣٠)، وابن ماجه (٢/٧٧٤).

(٤) انظره فيه: (١/١٦٨).

وأضر مواد الشهوة حب الرئاسة، فإن طالب الرئاسة قد يتجاوز الحدود الدينية ويكذب ويظلم ويغدر ويفعل ما لا يجوز فعله لأغراضه الدنيَّة، ولذلك حذّر أئمة الدين من الرئاسة، وأمروا إخوانهم وأحبائهم بالتباعد عن طلبها.

وقد نقل القطب عبد الوهاب الشعراني قُدِّس سرُّه في كتابه: «**الأنوار القدسية**» أن سيدنا المؤلف الغوث الأكبر السيد أحمد الرفاعي ﷺ قال لبعض تلامذته:

كن دائما ذَنَبًا ولا تكن رأسًا، فإن الضربة أول ما تقع في الرأس.

ويعجبني ما قاله الفاضل السيد صالح أفندي المنير الحسيني مما يناسب هذا الشأن:

مَهمَا استَطَعت فَلا تَكُن رأسًا وإن رَغَبتْ بِهَذَا الأمـر جَلّ النـاس

أو مَـا تَرَى السَّياف لَيسَ بِقَاطِعٍ أبـدًا وَقَـاك الله غَـير الـرَّأس

الحكمة العاشرة

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[كُلُّ حَقِيْقَةٍ خَالَفَتْ الشَّرِيْعَة فَهِيَ زَنْدَقَةٌ].

قد ألزمنا القرآن باتّباع هذا النبي الكريم، وحذّر من مخالفته ﷺ [1].

---

(١) قال الشيخ الشعراني: فإن الغالب على هؤلاء مخالفتهم لطريق من تلقبوا بلقبه أو انتسبوا إليه، فإن المنقول عن جميع أشياخ الخرق كلها التقيُّد بالكتاب، كسيدي عبد القادر الجيلي، وسيدي أحمد الرفاعي، وسيدي أحمد البدوي، وسيدي إبراهيم الدسوقي.

وغيرهم من المشايخ حتى كان سيدي إبراهيم يقول: من لم يحبس نفسه في قمقم الشريعة، ويختم عليها بخاتم الحقيقة فليس هو مني، وأنا بريءٌ منه في الدنيا والآخرة.

وكان سيدي أحمد بن الرفاعي ﷺ يقول: أجمع أهل الطريق على أن كل حقيقةٍ ردَّتها الشريعة فهي زندقة.

=

قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ

=

وقالوا: الشريعة هي أحكام العبودية، والحقيقة هي حقيقة العبودية.

وكان أبو القاسم الجنيد رحمه الله يقول: طريقتنا هذه مشيَّدةٌ بالكتاب والسُّنة، فمن لم يفهم القرآن والحديث لا يجوز الاقتداء به عندنا.

وكان يقول: إذا رأيتم شخصًا قد ترفع في الهوى فلا تلتفتوا إليه حتى تنظروا حاله عند الأمر والنهي.

وكان يقول: من ادَّعى أن أحدًا من أهل الله وصل إلى حالةٍ يسقط عنه فيها أحكام الشريعة مع عقله فهو كاذبٌ، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من هذا انتهى.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: ما وصل أحدٌ إلى درج الحقيقة إلا وجب عليه التقيُّد بحقوق العبودية وحقيقتها، وصار مطالبًا بآدابٍ كثيرةٍ ليس هي على غيره.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: كل من خلع من عنقه رقبة التكليف فقد خامر باطنه الزيغ والتحريف.

وكان يقول: كل من ادَّعى أنه أخلص مع الله ضميره وقال رتبته في الحقيقة تنـــزَّه بها عن الحاجة إلى التقييد بظاهر الشريعة، والوقوف على حد مراسمها، وجعل التقيُّد بالشريعة إنما هو للعوام المنحصرين في ضيق الاقتداء، فاعلموا أنه مفتونٌ في دينه، وهو من أهل الإلحاد والزندقة، فإيَّاكم أن تصحبوا مثل هذا وتعتقدوه؛ فإن ظلمة أنفاسه سمٌّ قاتلٌ لقلوب المرتدين، أو لا يعلم هذا المغرور أن الشريعة هي ظاهر لب حقيقتها، ولا تربو الحبة وتثمر وتنعقد إلا بالاستمداد من ظاهر الظاهر، وأطال في ذلك.

قال: والضابط في تمييز الصادقين عن بيان الكاذبين إقامة الأعمال كلها على قانون الشريعة، ومتابعتهم لآدابها، والتأدب بآداب أهل الطريقة على وفق سير المشايخ من السلف الصالحين.

فاعرض يا أخي ما ذكرته من أحوال الصادقين من المريدين والأشياخ تعرف حال أهل زمانك، ولا تنسَ نفسك، انظر: الكوكب الشاهق (ص٣٥) بتحقيقنا.

أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقال ﷺ: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن تآمر عليكم عبدٌ فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديين عُضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدّثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**[١]».

وانظر ما قاله المؤلف ﷺ في كتابه «البرهان» ما نصُّه:

إياكم ومحدثات الأمور، قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**[٢]».

«**عاملوا الله بالتقوى، وعاملوا الخلق بالصدق وحسن الخلق، وعاملوا أنفسكم بالمخالفة، وقفوا عند الحدود**[٣]».

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

إيَّاكم والكذب على الله والخلق، فإن الدعوى كذب على الله وخلقه.

كل العبودية معرفة مقام العبدية.

الدين: عمل بالأوامر، واجتناب عن النواهي، وخضوع وانكسار في الأمرين.

العمل بالأوامر يقرِّب إلى الله، والاجتناب عن النواهي خوف من الله.

طلب القرب بلا أعمال محال وأي محال.

الخوف من الجراءة فضيحة.

اطلبوا الله بمتابعة رسوله ﷺ «**إيَّاكم وسلوك طريق الله بالنفس في الهوى فمن سلك**

---

(١) رواه الترمذي (٥/٤٤)، والبيهقي في الشعب (٦/٦٧)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/١١٥).

(٢) رواه مسلم (٣/١٣٤٣)، وأحمد (٦/٢٧٠)، وابن ماجه (١/٧).

(٣) لم أقف عليه.

الطريق بنفسه ضلَّ في أول قدم[١]».

أي سادة. عظموا شأن نبيكم، هو البرزخ الوسط الفارق بين الخلق والحق، عبد الله حبيب الله، رسول الله، أكمل خلق الله، أفضل رسل الله، الدال على الله، الدَّاعي إلى الله، المخبر عن الله، الآخذ من الله، باب الكل إلى الحضرة الرحمانية، وسيلة الكل إلى الحضرة الصمدانية، من اتَّصل به اتَّصل ومن انفصل عنه انفصل.

قال عليه صلوات الله وتسليماته: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به[٢]».

أي سادة. اعلموا أن نبوَّة نبيِّنا ﷺ باقية بعد وفاته كبقائها حال حياته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وجميع الخلق مخاطبون بشريعته الناسخة لجميع الشرائع ومعجزته باقية وهي القرآن.

قال تعالى: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ [الإسراء: ٨٨].

أي سادة. من رد أخباره الصادقة كمن ردَّ كلام الله تعالى، آمنا بالله وبكتاب الله وبكل ما جاء به نبيِّنا محمد رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء: ١١٥] انتهى[٣].

وسُئِل جدّنا الخامس السيد الشيخ حسين برهان الدين قُدِّس سرُّه ﷺ عن أقرب الطرق إلى الله، فقال للسائل: الطريق إلى الله الشرع.

وأما ما سمعته من أن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق فتلك طرق القبول الداخلة في

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير (١٥/١٨٩)، والمناوي في فيض القدير (٢/٢٨) بنحوه.

(٢) رواه ابن أبي عاصم (١/١٢)، وذكره المناوي في فيض القدير (٥/٢٩٥).

(٣) انظر: البرهان المؤيد (ص١٧).

دائرة الشرع، كقول القائل الله وقبوله عند قولها، أو كصلاة في جوف الليل وقبوله عندها، أو كصدقة وغير ذلك.

فإذا تشرعت فإنك دخلت حيطة في دائرتها، تجد الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق.

شَـــرِيعةُ الْمُـخْـتَارِ لِلطَّـرَائِقِ دَائِـــرَةٌ تُجمِّـــعُ لِلحَقَائِـــقِ
بَعـــدَ أنْفَاسِ الْـــخَلائِقِ انْطَوَتْ طَـــرَائِقُ الوَصْـــلِ بِهَـــا لِلخَالِـــقِ

وقد منَّ الله عليَّ بذكر جملة شريفة تناسب هذا الباب كتبتها في كتابي: «ضوء الشمس»، وها هي بحروفها:

«وجميع العلماء، والأولياء، والصلحاء، والأتقياء، والأقطاب، والأفراد، والأنجاب، والأوتاد، وأئمة أهل الرشاد الذين فاضت بركاتهم على العباد، وملأ ذكرهم البلاد، ملتمسون من رسول الله، ومستمدون من إمداداته، ومستفيضون من فيوضاته، ومشمولون بإحساناته، ومنعمون بإنعاماته، أيديه لهم شاملة، والطاقة لديهم متواصلة.

ولله در البوصيري حيث قال[1]:

وَكُلُّهُـــم مِن رَسُولِ الله مُلْتَمِسٌ غرفًا مِن البحرِ أو رشفًا من الديمِ

فينبغي لكل من منّ الله تعالى عليه بالإسلام أن يكون في جميع حالاته متابعًا له عليه الصلاة والسلام قولاً وفعلاً وتقريرًا، ويعض على سنته، وسنة الخلفاء الراشدين من بعده بالنواجذ.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]: أي ينقادوا انقيادًا.

---

(١) انظر: البردة (ص١١١).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١].

والأسوة: القدوة، وهل يجهل ذو لُبٍّ وبصيرةٍ أن شريعته الطاهرة، وكلمته القاهرة شريعة العدل الأكمل، وكلمة الحق الذي لا يتحول، والفارقة بين الحق والباطل، والكافلة لحفظ حق الضعاف من تسلط الأقوياء، ونعم الكافل، والدالة على خيري الدنيا، والدين والممدودة الظلال؛ لحماية العجزة والمساكين.

وما أحسن ما قلت به بفضل الله تعالى.

كَفَى الضَّعِيف عَن الأحْزَاب ثُمَّ حما ... حِمَى الفقير الذي أعنَاه ظَالِمه
وأيَّد العَدل حَتىَ قَال قَائلٌ مَن ... في أرض هَذَا رسُول العَدل حُكمُه
فَكُل مُفتَقِر تَلقاه كَافِله ... وكُل بَاغ عَنِيد فَهُو قَاصِمُهُ

فيجب على كل منصف، وصاحب طبع سليم تجردت نفسه من الأغراض السقيمة واندرجت طبيعته في سلك الطباع السليمة، أن يقتدي به ﷺ، وأن ينصب نفسه لتأييد أحكام شريعته التي هي مهد الأمن للأنام.

وهذا الشأن من أهم المهمات لمن آمن به ﷺ، واتبعه، وأحبه، ولا شكَّ أن من أحب الرسول ﷺ كان لقوله سميعًا، ولأمره مطيعًا، فدعوى محبته مع كثرة مخالفته من دعاوي النفس المجردة عن البيان، والعارية عن الحجة والبرهان ولله در القائل:

تعصى الإلَه وأنتَ تُظهِر حُبّه ... هَذا لَعمري في القِيَاس بَديْع
لَو كَانَ حُبُّك صَادِقًا لأطَعتَه ... إنَّ المُحِب لِمَن يُحِب مُطِيع

وفي الحديث الشريف: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**[1]».

---

(١) تقدم تخريجه.

زاد في رواية: «وكل ضلالة في النار[١]».

وفي حديث آخر: «**من اقتدى بي فهو مني ومن رغب عن سنتي فليس مني**[٢]».

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها**[٣]».

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد**[٤]».

وعن أنس: قال ﷺ: «**من أحيا سنتي فقد أحياني ومن أحياني كان معي**[٥]».

وقال عمر بن عبد العزيز ﷺ: سنَّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سننًا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستعمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحدٍ تغييرها، ولا تبديلها، ولا النظر في رأي من خالفها، من اقتدى بها فهو مهتدٍ، ومن انتصر بها فهو من منصور، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاَّه الله ما تولَّى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا، وقالوا: الاعتصام بالسنة نجاة.

وعن عطاء في قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]: أي إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

وقال **سهل التستري**[٦]: أصول مذهبنا ثلاثة:

---

(١) رواه النسائي (٣/٤٤٩).

(٢) رواه البخاري (٥/١٩٤٩)، ومسلم (٢/١٠٢٠)، والبيهقي في الكبرى (٧/٧٧) بنحوه.

(٣) رواه البخاري (٦/٢٦٥٥).

(٤) رواه الديلمي في الفردوس (٤/١٩٨)، وأبو نعيم في الحلية (٨/٢٠٠).

(٥) رواه الطبراني في الأوسط (٩/١٦٩)، وذكره المناوي في فيض القدير (٦/٤٠) بنحوه.

(٦) هو السيد الجليل والعارف بالله تعالى أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن رفيع التستري ﷺ، أحد أئمة القوم، ومن أكابر علمائهم المتكلمين في علوم الخواص، ويقول فيه أعيانهم: (سهلٌ للسيادة أهلٌ)، صحب خاله الجنيد ومحمد بن سوار، ولقى ذا النون، وأخذ الأكابر =

عنه طبقةً بعد طبقة، وطبق الأرض من علم الحقائق، فحسده فقهاء بلده، فقاموا عليه، ونسبوه إلى قبائح بسبب قوله: (التوبة فرضٌ على العبد في كل نَفَس)، ولم يزالوا به حتى أخرجوه من بلده إلى البصرة، فمات بها، وحفظ القرآن وهو ابن سبع، وكان يُسأل عن مسائل الزهد والورع ومقامات الإرادة وفقه العبادة وهو ابن عشرٍ، ولم يبرز للناس حتى وقع له الإذن من الله، وكان إذا جاع قوي، وإذا شبع ضعف.

قال عنه الشيخ الأكبر ﷺ: (وكان بدء سهل في هذا الطريق سجود القلب، وكم من وليٍّ كبيرِ الشأن طويل العمر مات وما حصل له سجود القلب! ولا علم أن للقلب سجودًا مع تحققه بالولاية، ورسوخ قدمه فيها، فإن سجوده إذا حصل لا يرفع أبدًا من سجدته، فهو ثابتٌ على تلك القدم الواحدة، التي تتفرع منها أقدامٌ كثيرةٌ، وأكثر الأولياء يرون تقلُّب القلب من حالٍ إلى حالٍ، وصاحب هذا المقام وإن تقلبت أحواله فمن عينٍ واحدةٍ هو عليها ثابتٌ، يعبِّر عنها بسجود القلب، ولهذا لما رأى سهل في ابتداء دخوله الطريق أنّ قلبه سجد وانتظر أن يرفع فلم يرفع فبقي حائرًا، فما زال يسأل شيوخ الطريق عن واقعته فما وجد أحدًا يعرفها، فإنهم أهل صدقٍ لا ينطقون إلا عن ذوقٍ محقّقٍ، فقيل له: إن في عبدان شيخًا معتبرًا، لو رحلت إليه؟ ففعل؛ فقال له: أيُّها الشيخ، أيسجد القلب؟ فقال: إلى الأبد، فوجد شفاءه عنده؛ فلزم خدمته، فالله تعالى يؤتي ما شاء من علمه من شاء من عباده: ﴿**يُلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده**﴾ [غافر: ١٥] اهـ.

وكان مذهبه ﷺ التحري في الحلال، فلم يوجد في زمنه من يدقق فيه مثله. وفي ذلك قال ﷺ من باب التحدث بنعمة الله: أنا حجّة الله على الخلق، وأنا حجّة الله على أولياء زماني. فبلغ ذلك أبا زكريا الساجي وأبا عبد الله الزبيري؛ فذهبا إليه، فقال له أبو عبد الله الزبيري، وكان جسورًا؛ لأنه كان ضريرًا: بلغنا عنك أنك تقول: أنا حجّة الله على الخلق، وأنا حجّة الله على أولياء زماني، فبماذا صرت، هل أنت نبيٌّ أو صدِّيق؟ فقال ﷺ: لم أذهب حيث ظننت، ولست أنا نبيًّا، إنما قلت هذا؛ لأنني صححت أكل الحلال دون غيري. فقال له: وأنت صححت الحلال. فقال ﷺ: نعم، لا آكل دائما إلا حلالاً. فقال له الزبيري: وكيف ذلك؟ فقال له ﷺ: قسَّمت عقلي وقوتي ومعرفتي على سبعة أجزاء، فأترك الأكل حتى يذهب منها ستة أجزاء، ويبقى جزءٌ واحدٌ، فإذا خفت أن يذهب ذلك الجزء وتتلف معه نفسي أكلت بقدر البلغة؛ خوفًا أن أكون أعنت على نفسي؛ ولترد علي الستة الأخرى، فبهذا صحَّ لي الحلال. فقال الزبيري: نحن لا نقدر على المداومة على هذا، ولا نعرف أن نقسِّم عقولنا ومعرفتنا وقوتنا على سبعة أجزاء، واعترف بفضل سيدنا سهل ﷺ.

ومن كلامه ﷺ: من لم يكن مطعمه من الحلال لم يُكشف عن قلبه حجابٌ، وتسارعت إليه العقبات، ولا تنفعه صلاته ولا صومه.

الاقتداء بالنبي ﷺ في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النية في جميع الأعمال. وفي الحديث: «من رغب عن سنتي فليس مني[1]».

وانظر يا أخي ما قاله السيد أحمد الرفاعي ﷺ: لو بلغنا أن رسول الله ﷺ أمرنا بقص الأعناق لقصصناها اتّباعًا وامتثالاً لأمره ﷺ.

وقال لولد بنته القطب المقرب أبي إسحاق السيد إبراهيم الأعزب الرفاعي قُدِّس سرُّه[2]: ما أخذ جدك طريقًا لله إلاّ اتباع رسول الله ﷺ، فإن من صحَّت صحبته مع سر رسول الله ﷺ اتَّبع آدابه، وأخلاقه، وشريعته، وسنته، ومن سقط من هذه الوجوه فقد سلك سبيل الهالكين انتهى.

=

وقال: أصول طريقنا سبعةٌ: التمسك بالكتاب والسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، والتوبة، وأداء الحقوق.

وقال: العيش أربعةٌ: عيش الملائكة بالطاعة، والأنبياء في العلم وانتظار الوحي، والصديقين في الاقتداء، وسائر الناس في الأكل والشرب كالبهائم.

وقال: العلوم ثلاثةٌ: علمٌ ظاهرٌ يبذل لأهل الظاهر، وعلمٌ باطنٌ لا يظهر إلا لأهله؛ خوف الفتنة، وعلمٌ بين العبد والربِّ يستحيل إظهاره لأحد من الخلق.

وسئل عن الاسم الأعظم، فقال: أروني الأصغر أريكم الأعظم، أسماء الله كلها عظيمةٌ، اصدق؛ وخذ أيَّ اسمٍ شئت يفعل معك.

وله ﷺ تصانيف نفيسةٌ، منها «رقائق المحبين ومواعظ العارفين»، و«جوابات أهل اليقين»، و«المعارضة والرد على أهل الفرق أهلَ الدعاوى في الأحوال» (مطبوع)، ومات قُدِّس سرُّه سنة ٢٨٣هـ، نفعنا الله به، آمين. وانظر في ترجمته: الحلية (١٠/١٨٩، ٢١٢)، وطبقات الشعراني (١/٩٠).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) هو من أعيان مشايخ البطائح، وأعلام العارفين، وصدور المحقيقين، صاحب الكرامات الظاهرةو والأحوال الفاخرة، والمعارف الزاهرة، وهو أحد من أظهره الله إلى الوجود، وصرفه في الكون، وخرق له العادات، وأظهر على يديه الخارقات، وأنطقه بالمغيبات، وأجرى على لسانه الحكم، ومكنه من أحوال النهايات، وملكه أسرار الولاية، ونصبه قدوة وحجة.

خلف أباه الشيخ أبا الحسن عليًّا بعد وفاته بالمشيخة برواقي أم عبيدة، وكان أجل أهل بيته يومئذ، وكان قيما بحل المشكلات الواردة مؤيدًا في كشف مخيفات الأحوال. وانظر: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطنوفي (ص٤٠٦) بتحقيقنا.

ويكفيك في النهي عن مخالفة السُّنة النبوية، والطريقة المحمدية ما جاء من الآيات الفرقانية والنصوص القرآنية.

قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ومعلوم أن الله تعالى ما أرسل هذا الرسول إلاّ ليطاع، وما بيّن ﷺ أحكام سنته السنية إلاّ لأجل الاتباع، والخير كله لمن اهتدى فاقتدى واتبع.

والشر كله لمن ذلّ فضلّ وابتدع، ولذلك قال صاحب الجوهرة:

وكُــل خيرٍ في اتّباع مَن سَلَف وَكُــل شَــرٌ في ابْتِدَاع مَن خَلَف

والنبي ﷺ بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ولم يترك خيرًا إلاّ وحضّنا عليه كثيرًا، ولا شرًّا إلاّ وحذّرنا منه تحذيرًا، فمن أراد عز الدنيا والآخرة فشرعه ﷺ أعظم دليل، ومن فارقه قيد شبر فقد ضل سواء السبيل انتهى.

وهذا كافٍ لمن وفقه الله تعالى.

***

الحكمة الحادية عشر

ثم قال المؤلف ﷺ:

[غَايَةُ المعرِفَةِ بِاللهِ الإِيْقَانُ بِوجُودِهِ تَعَالَى بِلاَ كَيْفٍ ولاَ مَكَانٍ].

وقد أجمع على ذلك أئمة الدين وصرَّح بذلك القرآن.

قال تعالى في شأن ذاته القدسية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

وقال الحبيب العظيم مناجيًا: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على

نفسك[1]».

وقال الصديق الأكبر ﷺ: العجز عن درك الإدراك إدراك.

وقال سيدنا المؤلف في كتابه «البرهان» ما نصَّه:

قد جمع إمامنا الشافعي ﷺ جميع ما قيل في التوحيد بقوله: من انتهض لمعرفة مدبره فانتهى إلى موجود ينتهي إليه فكره فهو مشبهٌ، وإن اطمئن إلى العدم الصرف فهو معطلٌ، وإن اطمئن لموجوده واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحدٌ.

أي سادة. نزّهوا الله عن سمات المحدثين، وصفات المخلوقين، وطهّروا عقائدكم من تفسير معنى الاستواء في حقه تعالى بالاستقرار، كاستواء الأجسام على الأجسام المستلزم للحلول تعالى الله عن ذلك.

وإيَّاكم والقول بالفوقية، والسفلية، والمكان، واليد، والعين بالجارحة والنزول بالإتيان، والانتقال، فإن كل ما جاء في الكتاب والسُّنة مما يدل ظاهره على ما ذكر، فقد جاء في الكتاب والسنة مثله مما يؤيد المقصود، فما بقي إلاّ ما قاله صلحاء السلف وهو الإيمان بظاهر كل ذلك، ورد علم المراد إلى الله ورسوله، مع تنزيه الباري تعالى عن الكيف وسمات الحدوث.

وعلى ذلك دَرج الأئمة.

وكل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره وقراءته والسكوت عنه ليس لأحد أن يفسره إلاّ الله تعالى ورسوله، ولكم حمل المتشابه على ما يوافق أصل المحكم؛ لأنه أصل الكتاب، والمتشابه لا يعارض المحكم.

سأل رجلٌ الإمام مالك بن أنس ﷺ عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلاّ مبتدعًا، وأمر به أن يخرج.

---

(١) رواه مسلم (١/٣٥٢)، والترمذي (٥/٥٢٤)، والبيهقي في الكبرى (١/١٢٧).

وقال إمامنا الشافعي ﷺ لما سُئل عن ذلك: آمنت بلا تشبيه، وصدقت بلا تمثيل، واتهمت نفسي في الإدراك، وأمسكت عن الخوض فيه كل الإمساك.

وقال الإمام أبو حنيفة ﷺ: من قال لا أعرف الله أفي السماء هو أم في الأرض فقد كفر؛ لأن هذا القول يوهم أن للحق مكانًا، ومن توهّم أن للحق مكانًا فهو مشبِّهٌ.

وسُئل الإمام أحمد ﷺ عن الاستواء، فقال: استوى كما أخبر لا كما يخطر للبشر.

وقال الإمام ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: من زعم أن الله في شيء، أو من شيء، أو على شيء فقد أشرك؛ إذ لو كان على شيء لكان محمولاً، ولو كان في شيء لكان محصورًا، ولو كان من شيء لكان محدثًا[1].

---

(١) قال الشيخ المصنف في الميزان الذرية المبينة لعقائد الفرقة العلية ما نصه: ما ضلّ من ضلّ من المشبِّهة وغيرهم إلا بالتأويل وحمل الآيات والأخبار على خلاف ظاهرها:
ففاتهم بذلك كمال الإيمان بما أخبرت به الرسل عند ربهم ﷺ، ووقعوا في نصرة جانب فكرهم، على إعلام الله تعالى عن نفسه ما ينبغي أن ينسب إليه كما مرَّ تقريره.
وقد أجمع المحققون من أهل الله أنه ليس في كلام العرب مجازٌ أصلاً، إنما وصفوا ألفاظهم حقيقةً لما وضعوها له. فإنهم وضعوا يد القدرة للقدرة، ويد الجارحة للجارحة، ويد المعروف للمعروف، ومن ادَّعى أنه تُجوِّزَ في ذلك فعلَيه النقل، ولا سبيل إلى نقلٍ في ذلك.
ولما قالوا فلانٌ أسدٌ فإنهم وضعوا هذا حقيقةً في لسانهم أن كل شجاعٍ يسمَّى أسدًا، فوصفوا هذا الإطلاق حقيقةً لا مجازًا.
وإذا كان الأمر على هذا فلتعلم أن جميع ما ورد في الكتاب والسنة من الأحاديث التي جاء فيها ذكر اليد والعين والجنب والأصابع وغير ذلك لا يقضي منه بتشبيه؛ لأن التشبيه إنما يكون بلفظة المثل الذي هو المساوي، أو كاف الصفة وما عدا هذين الأمرين فإنما هو ألفاظ اشتراك، فتنسب حينئذ متى جاءت إلى كل ذات بما تعطيه حقيقة تلك الذات، ثم لما ثبت عندنا أنه تعالى لا يشبه الأجسام فيكون مستقرًا ولا يشبه المعاني فيكون استواؤه استيلاءً في قهرٍ فحينئذٍ قلنا: إن من حمل الحق تعالى على نسبة المعاني فقد حصل في ضربٍ من التشبيه بالمعاني المحدثة، وإذا حصل تشبيهه سبحانه بالمحدثات فأي شيءٍ أنكروه على من قال بالاستقرار الذي هو من صفات الحس، وكلا الأمرين حادثان.
ولو جاز إطلاق أحد الأمرين لكان إطلاق الاستقرار أولى في النسبة؛ لكون العرش قد جاء بمعنى السرير في قوله ﷺ: «إنَّ الكرسيَّ في جوفِ العرشِ كحلقةٍ مُلقاة في أرض فلاة».
فأثبت ﷺ وجود عين العرش وماهيته، فخرج العرش بهذا الخبر أن يكون مُلكًا حتى يستولي عليه، =

أي سادة. اطلبوا الله بقلوبكم، هو أقرب إليكم من حبل الوريد، أحاط بكل شيء علمًا انتهى.

= وتعيَّن أن يكون سريرًا، والعرش عند العرب هو السرير، ثم لا يخفى أن حقيقة الاستيلاء يلزم فيها طرء وصفٍ؛ إذ لا يقال استولى على كذا، إلا إذا كان على حالةٍ قبل ذلك ليس هو مستوليًا عليها، فقد تقدَّم على ذلك عدم الاستيلاء ثم حدث الاستيلاء.

فإن قيل: إنما حدث المُستوَلَى عليه.

قلنا: أنه لا يلزم على ذلك أنه حدث له وصفٌ بحدوث الموصوف، وهو سبحانه منـزَّهٌ عن أن تكون صفاته حادثةً، وأيضًا فإن الاستيلاء على العرش أو على أمرٍ ما لا يصحُّ عند العرب إلا بعد عدم الاستيلاء كما تقدَّم، ثم أن التشبيه حقيقةً إنما هو في الاستواء، لا في المستوى.

والاستواء نسبةٌ معلومةٌ، فتنسب إلى كل منسوبٍ بما تقتضيه حقيقة ذلك المنسوب، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يقال: استوى على العرش كما استوى بِشرٌ على العراق، وقد عرفنا بشرًا بحدِّه وحقيقته، فعرفنا نسبة استوائه على العراق، فهل حقيقة المستوى على العرش كحقيقة بشر المستوى على العراق، لتصبح المقابلة والمناسبة؟.

وقد تحقَّقنا أنه ليس كمثله شيءٌ، فلا مناسبة.

وحاصل الأمر: أنهم انتقلوا عن التشبيه بمحدثٍ ما إلى التشبيه بمحدثٍ آخر فوقه في المعنى، فأبلغ العقل في تنـزيهه مبلغ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١].

وسمعــت شيخنا ﷺ يقول: من أعظم ما وقع فيه العقلاء من سوء الأدب مع الله تعالى عدم قبولهم مــا أضــافه الحــق إلــيه، فتراهم يكذبون بكل حالٍ جعل الحق تعالى فيها نفسه مع عباده، فهم ينــزهونه عن كل ما أضافه إلى نفسه، ويجعلون نفوسهم أعلم بربهم من رسولهم، والله تعالى ما أمرهم أن ينـزهوه إلا بما أنزله على ألسنة رسله فقط لا بعقولهم.

وقد قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]: يعني عمَّا يصفوني بعقولهم، لا بما وصفت به نفسي.

ومعلومٌ أن: العزة هي المنعة، فامتنعت ذاته أن تكون محلا لما وصفه به الملحدون، والحق تعالى منـزَّهُ الذات لنفسه ما تنـزه بتنـزيه عبده إياه؛ فلذلك كان تنـزيه الله تعالى الذي هو المنـزه محلاً لأثر هذا العمل، فتفطن لهذه الإشارة فإنها في غاية اللطف.

وكان شيخنا ﷺ يقول: لا يوجد لنا قطُّ تنـزيهٌ مطلقٌ مجردٌ عن التشبيه أبدًا، لأن ذلك سُمِعَ في الشرع، ولم يوجد في العقل، وأعظم ما وصلت عقولهم إليه قولهم: أن استواء الحق كبشر على مملكته كما مرَّ. وانظر: الميزان الذرية (ص٦٦) بتحقيقنا.

فمن هذه الآثار الشريفة، والأخبار المنيفة يظهر لك أن غاية المعرفة العجز عن الكيف والمكان مع الإيقان بوجوده تعالى، وتقدُّس عن التشبيه و النقصان[١].

الحكمة الثانية والثالثة عشر

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[ثُقْلُ مَرَض الموتِ أوَّلُ قَنَاطِرِ المعْرِفَة بِالله عِنْدَ المحجُوْبين، ولهذَا قِيلَ لَنَا: مُوتُوا قَبْلَ أنْ تموتُوا.

ثُمَّ قَالَ ﷺ: حَضْرَةُ الموْتِ تَكْشِفُ الحُجُبَ كَمَا وَرَدَ: «النَّاسُ نِيَامٌ فَإذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا[٢]»]

لا يخفى أن من تدبَّر هاتين الحكمتين، والدرتين اليتيمتين، أدرك أن سيدنا المؤلف ﷺ طوى فيهما أسرار العرفان، وأوضح ما يلزم في هذه الدنيا الفانية للإنسان، وبيَّن للعاقل في الحكمة الأولى أن ثقل مرض الموت كالقنطرة يعبر عليها المحجوب: أي الغافل إلى معرفة الله، فيذعن طبعه، وتعترف بشريته حالة إيقانه، بمفارقة هذه الدنيا الدنيَّة أن مصيره إلى الله، وأنه ﴿لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨] ولينظر ما أحسن.

---

(١) قال الشعراني: وفي مواقف الإمام محمد بن عبد الجبار النفري رحمه الله: قول له ربُّنا: (وعزتي وجلالي، ما أنا عين ما عرفوه، وأما أنا عين ما جهلوه).فإذا كان الأمر يرجع آخره إلى عدم معرفة كنه الذات فيجب على العبد أن يعلم أن جميع ما وصف به الحق نفسه من صفات الأفعال وغيرها من خلقٍ وإحياءٍ وإماتةٍ، ومنعٍ وعطاءٍ، ومكرٍ وكيدٍ واستهزاءٍ، وفصلٍ وقضاءٍ، وضحكٍ وفرحٍ، وتعجُّبٍ وتبشبشٍ، وقدمٍ ويدٍ، ويدينٍ وأيدٍ بالفطرة الإسلامية إما بتلقين الوالد المتشرِّع أو بالإلهام، وهم من معرفة الحق وتنـزيهه على حكم المعرفة والتنـزيه الوارد في ظاهر القرآن، وهم على صوابٍ ما لم يتطرَّق أحدهم إلى التأويل، فإن تطرق خرج عن حكم العامة، والتحق بأهل النظر والتأويل، وهو على حسب تأويله، وعليه يلقى الله تعالى، فإما مصيبٌ وإما مخطئٌ بالنظر إلى ظاهر ما جاء به الشارع ﷺ، واعلم ذلك؛ فإنه نفيسٌ. وانظر: مختصر فرائد القلائد (ص٢٠١) بتحقيقنا.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١٧٩٣/٢)، وعزاه للإمام علي كرم الله وجهه.

❁ تتمة:

الحكمة الأولى: فإنه ختمها بقوله: ولهذا قيل لنا: موتوا لنا قبل أن تموتوا، فإنه فرَّق بهذه الكلمة بين الغافلين المحجوبين، والعارفين المتيقظين.

فالمحجوبون لا تنكشف لهم أسرار المعرفة بالله إلا بعد عبور قنطرة مرض الموت، والعارفون رضي الله عنهم عملاً بأثر موتوا قبل أن تموتوا، يقطعون عن أنفسهم الزكية علائق البشرية، ويرون أنفسهم وبقية الذرات المخلوقة محاطين بالعدم المحض، فتنطبع قلوبهم على الانتباه الخالص، فلا يؤثّر فيهم حجاب الغين طرفة عين.

قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وانظر كيف أتى بالحكمة الثانية على نسقٍ منيع، وأسلوبٍ بديع.

فقال: حضرة الموت تكشف الحجب، مستدلاً بخبر الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا علمًا بقلة العارفين في كل زمن، وقليلٌ ما هم.

وإيضاحًا لعجز المخلوقين كافة عن العلم بالله في هذه الدار.

وشاهد ذلك: أمر الله لنبيه ﷺ في القرآن العظيم بطلب زيادة العلم بقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

فما انكشف للعارفين في هذة الدار بالنسبة لما سيظهر في الدار الآخرة كالنقطة من البحر، فإن عجائب القدرة، وقوة سلطان الربوبية لا يتمكن البشر قبل إزالة هذه الحياة أن يحيط بفهمها، أو أن يتحمَّل دهشة الاطلاع عليها؛ فلذلك عبَّر عن هذة الحياة بالنوم؛ لانحجاب البشر بها عن حقيقة المعرفة، وعبّر عن الموت بالانتباه؛ لحصول القابلية الإنسانية من النوع الآدمي كل بنسبة مرتبته؛ للاطلاع على حقيقة المعرفة بالله، وبعظمة سلطانه، وعزيز برهانه، وما صح هذا الاطلاع لأحد في هذه الدار إلاَّ للنبي ﷺ؛ لقوة استعداده؛ ولياقة قابليته المحمدية؛ ولكونه حزب الله.

سماه الله حزبًا مع أن الحزب لا يُطلق إلا على الجماعة ؛إشارةً لثبات قلبه الشريف،

وفرط قوته، واستعداده، وقابليته؛ لتلقي التجليات تدنيًا وتدليًا.

ويؤيِّد ما سبق من المقصود قوله ﷺ: «والذي نفسي محمد بيده لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا ولضحكتم قليلا[1]» ﷺ وعلى آله وأصحابه وورَّاثه وأحبابه أجمعين.

الحكمة الرابعة عشر

قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[كُلّ تَوَحُّدَكَ قَبْلَ تَنْـــزِيْهَهُ تَعَالَى شِرْكٌ].

التوحيد: وجدان في القلب يمنع عن التعطيل والتشبيه.

أراد المؤلف ﷺ إسقاط تأثير الأسباب وتنـــزيهه سبحانه وتعالى عن المشاكلة، والمجانسة في ذاته وصفاته، وقد فسَّر هذه الحكمة بقوله في كتابه «البرهان»:

طبْ بربِّك عن الكل، فإن الربوبية تقدَّست، وجلَّت عن وصف المشاركة في كل حال، ردت أعمال الشرك إلى المشركين، وقبلت أعمال التوحيد من الموحدين: ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠][2].

ثم عرَّف التوحيد بوجدان سر مضمر في القلب يمنع خواطر التعطيل والتشبيه، أن تمر على الحضيرة القلبية، وهذا هو التوحيد المحض؛ لأنَّ الله يعلم: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، وقد سبق على مثل هذا الكلام وبه الكفاية.

***

(١) رواه البخاري (٦/٢٤٤٥)، ومسلم (٢/٦١٨).

(٢) انظر: البرهان (ص٥١).

الحكمة الخامسة عشر

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[رُحْ وتَعَالَ، كُلكَ خَيَالٌ]

أراد المؤلف ﷺ بقوله: (رح وتعالَ كلك خيال): عدم البقاء في هذه الدار.

ومن هذا المعنى قول الصديق الأكبر ﷺ:

كُـــل امـــرِئٍ مُـــصبح بِأَهلِـــهِ والـــمَـــوتُ أدْنَى مِن شِرَاك نَعلِهِ

ويؤيد ذلك قول الله تعالى لنبيِّه الطاهر المأمون: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وقال ﷺ: «لو تعلمون من الدنيا ما أعلم لاستراحت أنفسكم منها[١]».

وقال ﷺ أيضًا: «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا ولضحكتم قليلا، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله لا تدرون تنجون أو لا تنجون[٢]».

فمن هذه الأخبار الشريفة المحمدية يستدل على هوان الدنيا، وسرعة مرورها، ولزوم ترك العجب فيها.

وقد ورد ما هو أوضح من هذا، وهو أن عمر ﷺ دخل على رسول الله ﷺ، وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال: يا رسول الله لو اتخذت فراشًا، أو ترضى هذا؟.

قال: «ما لي وللدنيا، وما للدنيا ما لي، والذي نفسي بيده ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سافر في يوم صائف، واستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها[٣]»

(١) رواه البيهقي في الشعب (٢٨٦/٧)، والحاكم في المستدرك (٧٢٨/٣).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣٥٦/٤)، وهناد في الزهد (٢٦٩/١).

(٣) رواه أحمد (٤٤١/١)، وأبو نعيم في الحلية (٣٤٢/٣).

ومن هذا المعنى المبارك قول السيد الشيخ سراج الدين الرفاعي المخزومي قُدِّس سرُّه العزيز:

أذَان النَّاس حَيثُ الطِّفل يِأتِي ... وتَأخِير الصَّلاة إلى الوَفَاة
يُشِير بِأنَّ عُمر المَرء فِيهَا ... كَمَا بَين الأذان إلى الصَّلاة

***

الحكمة السادسة عشر

وقال المؤلف ﷺ:

[انْزِلْ يَا مِسْكِين عَنْ فَرَسِ عَجَبِكَ، رُبَّ عَثْرَةٍ أوْصَلَتْ الحفرة].

فكأن سيدنا المؤلف ﷺ يقول: أيها المسكين المغرور بهذه الحياة القصيرة، المعجب فيها بقوته، وحوله، وطوله، انزل عن فرس خيالك، وعجبك، وحولك، وقوتك، فإن القوة، والحول، والطول، والقدرة، والبقاء لله تعالى، والذي أنت فيه عثرة يوشك أن يوصلك حفرة العذاب بعد وصولك حفرة القبر.

وكأنه يقول ﷺ في وجه آخر: أيها المعجب بنفسه على أبناء جنسه، تأدب مع الله وخلقه، فرب عثرة لك يقودك إليها عجبك، وغرورك، وترفعك على الخلق تصل بها إلى حفرة الانحطاط عن جاهك، وحياتك وغير ذلك، ويناسب قول القائل:

كَم نِعمَة زَالَت بِأدنَى ذِلَّةٍ ... ولِكُل شَيء في تَقَلُّبه سَبَب

***

الحكمة السابعة والثامنة عشر

ثم قال المؤلف ﷺ:

[رُبَّ عِلْمٍ ثمرته جَهْلٌ، ورُبَّ جَهْلٍ ثمرته عِلْمٌ].

وألحقها بقوله:

[كَيْفَ يَصِحُّ لَكَ عِزُّ العِلْمِ وأَنْتَ كَسَوْتَ عِلْمَكَ ثَوْب الذُّلِ؟]

أراد ﷺ بقوله: (رُبَّ علم ثمرته جهل): أي رُبَّ علم اختطفت صاحبه أجنحة الغرور بالعلم، فاكتفى به عن العمل، وتعالى عن الخلق، فأنتج له العلم المذكور ثمرة القطيعة التي ينتجها الجهل.

وأراد بقوله: (ورُبَّ جهل ثمرته علم): أي ورُبَّ جهل ألزم صاحبه الانكسار، والاحتقار بنفسه.

فلزم أبواب العارفين والعلماء العاملين، وأخذ عنهم وانتفع منهم، فأورثه اعترافه وانكساره معه علمًا.

وما أحسن ما قاله سيدنا المؤلف ﷺ في كتابه «البرهان» وهو:

أي سادة. كل حال القوم من أولهم إلى آخرهم تحت أربع درجات، وكل حال العلماء والفقهاء كذلك.

فأما الدرجة الأولى من حال القوم: فدرجة رجل طلب المرشد، لما رأى من إقبال العامة على الطائفة فأحب ذلك، وفرح بالرواق والجمعية والزي.

والدرجة الثانية: درجة رجل طلب المرشد عن حسن ظن بالطائفة فأحبهم، وأحب ما هم عليه، وأخذ بصميم القلب كل ما نقل عنهم، وأخذ منهم الاعتقاد الصحيح النظيف.

والدرجة الثالثة: درجة رجل سلك المقامات، وقطع العقبات، وبلغ من الطريق العوالي من الدرجات، ولكن وقف تارة عند قوله تعالى:﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا﴾[فصلت: ٥٣].

فساعة يرى الكون بمشهد الآية التي أربت له، فيغيب بها عمن أراه إياها، وساعة يرى نفسه بمشهد الآية التي أربت له في نفسه فيغيب بها، وهذا المشهد مشهد الإدلال.

ومنه تحصل الشطحات، والتجاوز، وإظهار العلو على الأعالي والبروز بمجال السلطنة، والظهور بالقول والفعل، والحول، والقوة.

والدرجة الرابعة: درجة رجل سلك الطريق مقتفيًا آثار النبي ﷺ في كل قول، وفعل، وحال، وخلق حاملاً راية العبدية، فارشًا جبين الذل في الحضرة الربانية، يشهد على هامة ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، ويقرأ من صحيفة كل ذرة مخلوقة: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

يقف عند حده، ويبسط على تراب الأدب بساط خده، ويمر في أثناء سيره على عقبات الآيات، فينصرف عنها إلى المعبود، قال تعالى: ﴿وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف:١١٠].

فصاحب الدرجة الأولى: محجوب، وصاحب الدرجة الثانية: محب، وصاحب الدرجة الثالثة: مشغول، وصاحب الدرجة الرابعة: كامل.

وفي كل درجة من الدرجات المذكورات درجات كثيرة تظهر للعارف من حال الرجل.

وأما درجات العلماء والفقهاء:

فالدرجة الأولى: درجة رجل طلب العلم للمباراة، والجدال، والتفاخر، وجمع المال، وكثرة القيل والقال.

والدرجة الثانية: درجة رجل طلب العلم لا للمناظرة، ولا للرئاسة، ولكن ليحسب في إعداد العلماء، فيمدح بين أهله وعشيرته، وأهل قريته مكتفيًا بهذا المقدار، متمسكًا بالظاهر لا غير.

والدرجة الثالثة: درجة رجل حل عويص المشكلات، وكشف دقائق المنقولات والمعقولات، وغاص بحور، مضمرًا الهمة لنصرة الشرع في أحواله، إلا أنه أخذته عن العلم على من هو دونه، وإذا انتصر للشرع وعورض بدليل اختطفته نصرة نفسه فأفرط، وأقام

الأدلة على خصمه، وشعَّ عليه، وربما كفَّره، وطعن فيه، وهجم عليه هجوم الحيوان المفترس، مع عدم رعاية الحد المحدود شرعًا في كل حال من أحواله، وأحوال خصمه.

والدرجة الرابعة: درجة رجل علمه الله فنصب نفسه لتنبيه الغافل، وإرشاد الجاهل، وردِّ الشارد، ونشر الفوائد، والنصيحة، وإنكار ما يُنكر شرعًا، وقَبول ما يُقبل شرعًا بحسن التجرُّد من الغرض، يرى أن الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبَّحه الشرع.

يأمر بالمعروف أمر حكيم غير غليظ ولا فظ، وينهى عن المنكر نهي مشتق غير ظالم ولا عاد.

فصاحب الدرجة الأولى: سيء، وصاحب الدرجة الثانية: محروم، وصاحب الدرجة الثالثة: مغرور، وصاحب الدرجة الرابعة: عارف.

وفي كل درجة من الدرجات المذكورات كذلك درجات تظهر في حال الرجل والمعصوم من عصمهُ الله انتهى(١).

فانظر ما أجمل هذا التفصيل الحسن، فإنه إذا فقه استوفى مراتب الصوفية، والفقهاء وتدبَّر كيف التفت مخاطبًا إن أشاع ثمرة العلم، وطلب عزه، فقال له: كيف يصح لك عز العلم الذي هو بركة العمل التي تنتج العلم اللدني بشاهد قوله ﷺ:

«من عَمل بما يعلم، ورثه الله عِلم ما لم يعلم(٢)».

وأنت كسوت علمك ثوب الذُّل والإهانة، بترك العمل والانحراف عن الطريق المستقيم، الذي يوصل أهل العلم بالله إلى الله.

وهذا عين مضمون البيت المنسوب إلى الإمام الشافعي ﷺ وهو:

ولَــو أنَّ أهْل العِلم صَانُوه صَانهم ولَــو عَظَّمُــوه في الــنفُوس لَعُظِّمُوا

---

(١) انظر: البرهان (ص١٣٨).
(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/١٥).

فتعظيمه في النفوس إنما هو تعظيم شعائر الله، قال الله تعالى:

﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

ومن كان عالمًا بالدنيا، جاهلاً بالآخرة، فهو مبغوض عند الله بدليل قوله ﷺ:

«إن الله تعالى يبغض كل عالم بالدنيا جاهل بالآخرة[١]».

فالله نسأل، وبرسوله العظيم نتوسل أن يجعلنا من العالمين العاملين المقبولين عنده، المرضيين إنه أرحم الراحمين.

* * *

الحكمة التاسعة عشر

قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[لاَ تَظُن أنَّ صَبْغَكَ يَسْتُرُ شَيْبَكَ غيره وما سَتَرَهُ].

قد أتى بهذه الحكمة الرصينة على وجه استجمع غاية الحسن، ونهاية البلاغة؛ لاستعماله الصبغ الذي لا يكون إلا في المحسوس وفي المعقول.

فهذا الاستعمال اللطيف مجاز بالاستعارة، وإيضاحه أن تقول: شبّه البطالة والانحراف عن طريق الاستقامة بالشيب، وشبّه الرياء الذي يستعمله البطال بالصبغ.

وشبّه فراسة المؤمنين بالمقل التي ترى الشيب المصبوغ مغيرًا بالصبغ عن أصله، معلومًا لديه إنه تحول عن شكله الصحيح، بعارض الصبغ.

وفي هذا السبك من حسن الإيجاز، ورقة المعنى الذي لا يخفى على صاحب ذوق وعلم.

ويؤيد هذا ما ورد أن من أثر سريرة ألبسه الله ردائها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى (١٠/١٩٤).

وحسن مقالة سيدنا المؤلف ﷺ في كتابه «البرهان»، وكأنه نظم لإيضاح هذا المعنى:

بُـــدلت بِالحـــنًا بَيَاضــك أحمــرًا وَخُدعت فِيهِ وقُلتُ شَعري أحمرًا

ومن المعلوم أن هذه الحكمة المباركة شيدت دعائم السُّنة من أربع جهاتها.

دعامتها الأولى: إن جاءت بتنبيه الغافل ونصح الجاهل.

والثانية: وردت بالفعل و لم تصرح باسم أحد.

الثالثة: قال لسان حالها الحق، و لم يخف في الله لومة لائم.

الرابعة: التزام أثر النبي ﷺ بهدى الجاهل، وتنبيه الغافل، وإحياء السُّنة، وإماتة البدعة[1].

فرضي الله عن سيدنا المؤلف، فإنه كما ناب عن جده ﷺ بإعلاء منار الشرعية الغراء ونشر أعلام المحجة البيضاء، والتخلق بأخلاق جده صاحب الخلق العظيم، والسير بصحة الاتباع على طريقه الصراط المستقيم، فكذلك من الله عليه بلسان أضمرت فيه الوراثة المحمدية، فجرت عليه ينابيع الحكمة المستفاضة من صاحب جوامع الكلم سيد البرية، فإن يأتي الزمان له بخلف.

وقد ثبت بشواهد أفعاله، وأحواله عدم وجود مثله بعد الصحابة وأئمة الآل الكرام في السلف (حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت بيمينك يا زمان فكفر).

***

الحكمة العشرون

ثم قال الشيخ المؤلف ﷺ:

[لَوْ خَطَا الرَّجُلُ مِنْ قَافٍ إِلَى قَافٍ، كَانَ جلوسهُ أَفْضَل، ولَوْ تَكَلَّمَ عَنْ الذَّاتِ

(١) انظر: البرهان (ص١٢١).

والصِّفَاتِ كَانَ سُكوتهُ أَفْضَل].

أراد بذلك إشغال الواصل بالمكرم لا بالكرامة، وأشار إلى منع المتكلم عن الخوض بالذات والصفات، وهذا مذهب العارفين، وأهل الحق المؤيدين.

ألا ترى كيف قال في كتابه «البرهان المؤيد»:

أي أخي. أخاف عليك من الفرح بالكرامة وإظهارها، الأولياء يستترون من الكرامة كاستتار المرأة من دم الحيض.

أي أخي. الكرامة عزيزة بالنسبة إلى المكرم ليست بشيء بالنسبة لنا؛ لأن هذا الإكرام لما ورد من باب الكريم عظم وأعز، وتلقته القلوب بالإجلال.

ولما تحول لفظ النسبة إلى العجز هان الأمر، واستتر الكامل من هذه النسبة التي تحول أمرها من باب قديم إلى باب حديث حادث خيفة من استحسان النسبة الثانية، فإن قبولها سُمٌّ قاتل.

كلنا عارٍ إلا من كساه، كلنا جائع إلا من أطعمه، كلنا ضال إلا من هداه.

ليس للعاقل إلا قرع باب الكرم في الشدة والرخاء، المخلوق ضعف عجز فقر حاجة عدم محض، أكرم الله أحبابه المتقين، وأظهر على أيديهم الخوارق، وأيدهم بروح من عندهم ورفع منارهم فاشتغلوا به تعالى عن كل ذلك، خافوا الله فأسكنهم الجنة قربه.

وأكرمهم إذ نزلوا به بالنظر إلى وجهه الكريم: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠] انتهى(١).

ولينظر كيف أشار بقوله ولو تكلم بالصفات والذات كان سكوته أفضل إلى قول النبي ﷺ: «تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله(٢)».

---

(١) انظر: البرهان المؤيد (ص٣٣).

(٢) ذكره ابن حجر في فتح الباري (١٣/٣٨٣)، والعجلوني في كشف الخفاء (١/٣٧١).

وقوله ﷺ: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا[(١)]».

ومعلومٌ أن كتب السُّنة طافحة بمثل هذه الأخبار النبوية، والآثار الصادقة الزكية واضحة لا تحتاج للإيضاح.

***

الحكمة الواحدة والعشرون

ثم قال المؤلف ﷺ:

[مَنْ تَطَاوَلَ عَلَى الخَلْقِ قَصُرَ عِنْدَ الخَالِقِ، مَنْ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادِ سَقَطَ مِنْ عَيْنِ المعْبُود].

لا يخفى أن الحكمة الأولى مأخوذة من سر قوله ﷺ: «الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره، وظلم لا يتركه».

فأما الظلم الذي لا يغفره الشرك قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٤].

وأما الظلم الذي يغفره الله: فظلم العباد أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم.

وأما الظلم الذي لا يتركه الله: فظلم العباد بعضهم بعضًا، حتى يدبر لبعضهم من بعض[(٢)].

ولا يخفى أن التطول هو الامتداد والارتفاع، ولا يتم للرجل امتداد يده إلى الناس، وارتفاعه عليهم إلا بالقوة القاهرة، وهذا هو الظلم بعينه، وفيه الكبر أيضًا على الخلق والرسول المعظم ﷺ يقول: «ما من آدمي إلا في رأسه حكمة بيد ملك، فإذا تواضع قيل

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٠٩/٦)، وذكره ابن كثير في التفسير (٥٠٩/١).

للملك ارفع حكمته، وإذا تكبر قيل للملك ضع حكمته[١]».

والحكمة هنا بفتح الحاء والكاف: شأن المرء وأمره كما في القاموس.

والتعالي على العباد مخالفة أمر الله تعالى في شأنهم، ورعاية حقوقهم، وهذا والعياذ بالله من موجبات الطرد من باب الله.

ألا ترى إبليس لما تعالى وتكبر وامتنع من السجود لآدم عليه السلام كيف قال الله تعالى له موبخًا يا إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]: أي من المخالفين لأمري كما ذكر ذلك ابن عباس، والعُلُو والعتُوّ، والتكبُّر بالمال، كما قال له ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في تفسير قوله تعالى:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ [القصص: ٨٣]: أي الجنة ﴿نَجْعَلُهَا﴾: أي نعطيها ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا﴾ عتوًا وتكبرًا ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وقد علمت أن تعالي إبليس أسقطه من نظر رحمة الله، وأحلّه دار البوار، والغضب المؤبد، وكذلك من ينهج منهج إبليس يحصل له من الجزاء والمقت الإلهي ما يناسب حال اقتضائه بإبليس.

وقد صرَّح الحجة الإمام الفخر الرازي في تفسيره على هذه الآية بما يؤيد هذا المعنى فقال أما قوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ [القصص: ٨٣].

فتعظيم لها، وتفخيم لشأنها: يعني تلك التي سمعت بذكرها، وبلغك وصفها، و لم يعلق الوعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما، وميل القلب إليهما.

وعن عليّ رضي الله عنه: «إن الرجل يعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها[٢]».

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٢/٢١٨)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٨٢).

(٢) ذكره ابن حجر في فتح الباري (١٠/٢٦٠).

قال صاحب الكشاف: ومن العلماء ما يجعل العلوّ لفرعون لقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]، والفساد لقارون لقوله: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧].

ويقول: من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة، ولا يتدبر قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] كما تدبره علي بن أبي طالب ﷺ انتهى.

وقول المؤلف ﷺ: (سقط من عين المعبود) أوضح معناه الفخر أيضًا في تفسيره قول الله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، بما نصَّه قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

قال القفال: لترى على عيني: أي على وفق إرادتي، ومجاز هذا أن من صنع لإنسان شيئًا وهو حاضر ينظر إليه صنعه له كما يحب، ولا يمكنه أن يفعل ما يخالف غرضه، فكذا ها هنا.

وفي كيفية المجاز قولان:

الأول: المراد من العين: العلم: أي ترى على علم مني، ولما كان العالم بالشيء يحرسه من الآفات كما أن الناظر إليه يحرسه عن الآفات، أطلق لفظ العين على العلم؛ لاشتباهها من هذا الوجه.

الثاني: المراد من العين: الحراسة، وذلك لأن الناظر إلى الشيء يحرسه عما يؤذيه، فالعين كأنها سبب الحراسة، فأطلق اسم السبب على المسبب مجازًا وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، ويُقال عين الله عليك إذا دعا لك بالحفظ والحياطة.

قال القاضي: ظاهر القرآن يدل على أن المراد من قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] الحفظ والحياطة كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠] فصار ذلك كالتفسير

لحياطة الله تعالى له انتهى. وفي هذا الكفاية.

***

الحكمة الثانية والعشرون

ثم قال المؤلف ﷺ:

[كُلُّ حَالٍ تَحَوُّلُهُ فِيهِ، وكُلُّ ظَاهِرٍ بِهِ مَا يَخْفِيه].

نبّه سيدنا المؤلف ﷺ على عدم الاغترار بالأحوال والمظاهر؛ لأن الأحوال تتحول والمظاهر تختفي وتنقلب، ولا بقاء في هذة الدار الفانية بحال من الأحوال، وألزم بفتق حجاب الغفلة التي تحجب الهمة بالحال عن محوله، وبالمظهر عن مظهره.

وفي معنى الحكمة إشارة لقوله النبي ﷺ: «**كُنْ في الدُّنيا كأنك غريبٌ، أو عابرُ سبيلٍ وعد نفسك من أهل القبور**[1]».

وتعجبني بهذه المناسبة قول القائل:

أرَى الـمَـرء دِيْنًا لِلمَنَايَا ومَا لَهَا ... مطَـال إِذَا حَلّـت بِـنَفس دِيُونَهَا
فَمَـاذَا لَقَاهُ الفَرع مِن بَعد أصْلِه ... سَتَلقَى الذي لا قَى الأصُول غُصُونَها

وما أجمل قول سيدنا المؤلف ﷺ في كتابه «البرهان»:

المصير إلى الله والرجوع إليه وكل يعود إلى معدته، ويستوفي أجله، وتعود عليه المسألة.

قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، هذه الحبة التي تأكلونها نبتت بتراب مثلكم كان لهم قوة وبأس شديد، ذهبوا وبانوا وكأنهم ما كانوا.

هَـذَا تُـرابٌ لَـو تَفكّر الفَتَى ... لَـرَأى عَلَـيهِ مِن الـجِبَاه بُسَاطا

---

(١) رواه الترمذي (٤/٥٦٧)، والطبراني في الصغير (١/٥٩).

وكأنما ذرّاته لو ميّزت صُيّغت لألسنة الأولي أسفاطا

ندوس ألسُنًا، وجباهًا، وخدودًا، وشفاهًا: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر:٢]
ويطابق هذا المعنى قول المعري من قصيدة:

خفّف الوطء ما أظن أديم الأ رض إلا من هذه الأجساد
وقبيحٌ بنا وإن قدم العهد هوان الآباء والأجداد

إلى أن قال:

رُبَّ لَحدٍ قد صارَ لَحدًا مِرارًا ضاحِك من تزاحم الأضْداد
ردفين على بقايا دفين في طويل الأزمان والآباد

وحسن قول الشاعر أيضًا:

شمّر عسى أن ينفع التشمير وانظُر بِفكرك ما إليه تصيرُ
طوّلت آمالا تكلفها الهوى ونسيت أنّ العُمر منكَ قَصيرُ
قد أفصحت دُنياكَ عن غدراتِها وأتى مشيبك والمشيب نَذيرُ
دارٌ لَهوت بِلَهوِها مُتمتّعًا ترجُو المقَامَ بِهَا وأنتَ تَسيرُ
فاعلَم بأنّك راحلٌ عنها ولُو عمّرت فِيها ما أقامَ ثَبيرُ
لَيس الغِنى في العَيش إلا بلغة ويَسير مَا يَكفِيك منه كَثيرُ
لا يَشغلنّك عَاجل عن آجِل أبدًا فمُلتبِس الحقير حَقِيرُ
ولَقد تساوى بَين أطْباق الثّرى في الأرض مأمورٌ بِهَا وأميرُ

وقال الفقيه شمس الدين العقيلي الواسطي رحمه الله:

هذه الدنيا تقلب أحوالها بأحوالها ونقد أوصالها بنصالها، جعلها الله دار عبور، وبيت مرور، فمل بها عن نفسك، ومل بنفسك عنها، وانتصر لله على نفسك وعليها، تحسن في دار القرار أوقاتك، وتعظم عند الله بالخير مجازاتك.

وحسن ما رواه صاحب أم البراهين الإمام الفقيه محمد بن قاسم الواسطي عن بعضهم قال:

وحدَّثَتك الليالي وهِي فَاعلة تَفريق مَا جَمَعته فَاسمع الخَبرا
وكُن عَلَى حَذَر مِنهَا فَقَد نَصحت وانظرْ إلِيهَا تَرَى الآيَات والعِبرا
فَهَل رأيْت جَديْدًا لَم يَعد خَلقًا وهَل سَمِعت بِصَفو لَم يَعد كدرا
أيْن المُلوك ومن ساسوا الأمُور ومَن ذَلَّ الجميع لَهُم واستُعبدُوا والبَشرا
طَغَى عليهم زمَانٌ كَان يَنصرُهم فَلَم يَدع لَهُم عَينًا ولا أثَرا

ويناسب معنى هذه الحكمة وجه آخر، وهو قول الإمام أمير المؤمنين عليّ ﷺ:

دَوَاؤُك مِنك وَمَا تُبصِر وَدَاؤُك فِيكَ وَمَا تَشعُر
وَتَزعُم أنَّك جرمٌ صغِيرٌ وَفِيكَ انطَوَى العَالم الأكبَر

وقد فسر سيدنا المؤلف ﷺ في كتابه «البرهان»:

العالم الأكبر الذي عناه أمير المؤمنين بهذين البيتين بالعقل، فقال العالم الأكبر: العقل ومن العالم المطوي فيك يظهر لك جرمك الذي استصغرته؛ إذ لولا وصول جرمك إلى الغاية التي تحيط بذلك العالم الأكبر وتليق له لما صار محلاً للعالم المذكور.

فخذ بالهمة العلية على مقدار ما بلغه جرم هيكلك، وقد صرح في هذا الباب بترفع العقل عن منزلة الحجاب عن الله بالقوة، والجمال، والمال، والأهل، والعشيرة، والمنصب، والرئاسة تحققًا بمعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، وهو سبحانه وتعالى محول الأحوال[1].

ويعجبني قول الإمام السيد سراج الدين الرفاعي المخزومي قُدِّس سرُّه في معنى هذه الحكمة.

---

(١) انظر: البرهان (ص٥١).

أنــتَ فِــيمَا أهملــتُه لَــكَ دَاء وَإِذَا مَــا اجْتَهَدت أنْتَ الــدواءُ
كُــل حَــالٍ فِــيهِ التّحوُّل مِنهُ وتَنَاهــى هَــذا الظُّهور الــخَفَاءُ

وفي هذه الحكمة المباركة وجه آخر، وهو أن كل بارز ظاهر به حالة ظهوره ما أخفاه عن الناس كقول الشاعر:

وَمَهمَا تَكن عِندَ امْرِئ مِن خَلِيقَة وَإِنّ خَالــهَا تَخفى عَلَى النَّاس تَعلَم

وهذا المعنى المقصود من قوله ﷺ: «**لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة يخرج عمله للناس كائنًا ما كان**[1]»، وهذا أحسن الوجوه فليدرك.

* * *

الحكمة الثالثة والعشرون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[مَنْ أُذرِعَ بِدِرْعِ الصَّبْرِ سَلِمَ مِنْ سِهَامِ العَجَلَة].

ويؤيد هذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠].

وقال سيد المخلوقين ﷺ: «**الصبر من الإيمان بمنـــزلة الرأس من الجسد**[2]».

وفي الحديث أيضًا: «**انتظار الفرج بالصبر عبادة**[3]».

وأما حكمة التأني في الأمور فإنها كما صرحت بها السُّنة السنية، أطبق عليها أصحاب العقول في البرية.

* * *

(١) رواه أحمد (٢٨/٣)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٥/١٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (١٧٢/٦)، والديلمي في الفردوس (٤١٤/٢).

(٣) رواه القضاعي في مسند الشهاب (٦٢/١)، وذكره المناوي في فيض القدير (٥٢/٣).

الحكمة الرابعة والعشرون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[الرَّجُلُ المُتَمَكّنُ إِذَا نُصِبَ لَهُ سَنَانٌ عَلَى أَعْلَى جَبَلٍ شَاهِقٍ فِي الأَرْضِ، وهَبَّتْ عَلَيْهِ رِيَاحُ اللّيَالِ الثمَانِ، مَا غَيَّرَتْ مِنْهُ شَعْرَةً وَاحِدَةً].

قلت: وهذا هو الإيمان الصحيح، والاعتقاد المتين الراجح، والتحقق بمقام الرضا من الله مع صدق الاعتماد عليه، والتسليم له سبحانه وتعالى.

عملاً بقول رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

«يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفّت الصحف[1]».

وحسن هنا قول الإمام الشيخ سراج الدين الرفاعي قُدّس سرُّه:

رَفَعتُ لَهُ بإيمَانٍ أُمُورِي ... وَحَسبِي أن يُؤيِّدهَا الخَبيرُ
وَلَستُ بِسَائِلٍ بَعد اتّكَالي ... أَسَارَ الرَّكْبُ أم نَزَلَ الأميرُ

وأحسن منه قول الإمام الحسين السبط ﷺ: من اعتمد على حسن اختيار الله تعالى له لم يتقن غير ما اختاره الله ﷻ.

* * *

الحكمة الخامسة والعشرون

ثم قال المؤلف ﷺ: [الكَاذِبُ يَقِفُ مَعَ المُبتَدِعَات، والعَاقِلُ غَايتهُ وراءهَا، مَنْ كَمُلَ

(١) رواه الترمذي (٤/٦٦٧)، وأحمد (١/٢٩٣)، وذكره ابن كثير في التفسير (٤/٥٥).

أَنِفَتْ نَفْسهُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرَ رَبِّهُ].

الوقوف مع المبدعات اشتغال عن المبدع، وهو دأب أصحاب الدعوى الكاذبة، والعاقلون لا يشتغلون بالمبدعات عن المبدع، ولذلك تأنف أنفسهم لكمالها عن أن تشتغل بشيء من الأغيار.

وهذا علو الهمة الذي جاء فيه خبر علو الهمة من الإيمان.

وقد أوضح هذا سيدنا المؤلف في كتابه «البرهان[1]» فقال:

رمى بعض المريدين ركونه في بعض الآبار؛ ليستقي الماء، فخرجت مملوءة بالذهب، فرمى بها في البئر وقال: يا عزيزي وحقك لا أريد غيرك، وحسن في هذا المقام قول مولانا السيد سراج الدين قدس سره:

قَالُوا تَمَسَّكْ بِغَيرِ الله قُلت لَهُم ... مَا الغَيرُ إلا خَيَالٌ قَامَ بِالعَرَض

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا فَارقتُهُ عِوَضٌ ... وَلَيس لله إن فَارقْتُ مِن عِوَض

***

الحكمة السادسة والعشرون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[الخَلْقُ كُلُّهُمْ لاَ يَضرُّوْنَ ولاَ يَنْفَعُوْنَ، حُجُبٌ نَصَبَهَا لِعِبَادِهِ، فَمَنْ رَفَعَ تِلْكَ الحُجُبَ وَصَلَ إِلَيْهِ].

الاطمئنان بغيره تعالى خوف، والخوف منه اطمئنان من غيره، قد تبين من حديث ابن عباس ﷺ وغيره من الأحاديث الجليلة النبوية، والآيات المعظمة القرآنية.

وثبت بالأدلّة الجلية العقلية أن الخلق لا يضرون ولا ينفعون، وإنما هم كما ذكر سيدنا

---

(١) انظر: (ص٥٢).

المؤلف ﷺ حجبٌ قامت بيد القدرة لا بنفسها توهم منها المحجوب، بما حصول التأثير في النفع والضر، فمن أسقط تأثير الأشياء، والأسباب، وهاجر بصدق العزيمة إلى المؤثر المسبب وصل إليه، وانظر ما أحسن ما أتى به سيدنا المؤلف ﷺ بعد قوله: (فمن رفع تلك الحجب وصل إليه).

***

الحكمة السابعة والعشرون

فقال المؤلف ﷺ:

[الاطْمِئْنَانُ بِغَيْرِهِ تَعَالَى خَوْفٌ، والخَوْفُ مِنْهُ اطْمِئْنَانٌ مِنْ غَيْرِهِ]

فإن في هذه الكلمة من تثبيت قلب السالك لما رفع حجب الآثار، والأسباب بيد الهمة، وأسقط تأثير الضرر والنفع منها، احتاج إلى شيء تطمئن به نفسه، ويسكن إليه ورعه، فعرفه سيدنا المؤلف أن الاطمئنان بغيره تعالى خوف؛ لأن من حصل له الله حصل له كل شيء ومن فاته الله فاته كل شيء.

وأوضح له أيضًا أن الخوف من الله تعالى اطمئنان من غيره بشاهد قول رسول الله ﷺ: «من اتقى الله أهاب الله منه كل شيء، ومن لم يتق الله أهابه الله من كل شيء[1]».

وقال ﷺ: «من اتّقى الله عاش قويًا، وسار في بلاد الله آمنًا[2]».

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقد جمع سيدنا أبو الدرداء ﷺ أسرار هذه الحكمة المباركة ببيتين كأنما نظما شرحًا لمضمونها وهما:

يُــريد العَــبد أن يُعطَــى مُناه   وَيَــأبى الله إلا مَــا أرَاد

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٦/٢٧).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٣/٥٦٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢/١٧٥).

يَقُــول المــرء فَائِــدتي وَمَــالِي وتَقــوَى الله أفضل مَا اســتَفَادَا

***

الحكمة الثامنة والعشرون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[تَحْتَ كُلِّ حَالَةٍ حَالٌ رَبَّانِيٌّ، لَوْ عَرفْتَهُ لَعَلِمْتَ أَنَّكَ تَسْكُن بِهِ، وتَسْعَى بِهِ وأَنْتَ مُسَخَّرٌ «اعْمَلُوا ولاَ تَتَّكِلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ(١)»].

أراد المؤلف ﷺ إعلام العبد، وأن تحت كل حالة من حالاته شأنًا ربَّانيًا يسكن به العبد، ويسعى به حالة كونه في مقام الانقهار لذلك الشأن عن غير علم منه به.

ولذلك قال المؤلف ﷺ: (لو عرفته): أي عرفت ذلك الشأن الربَّاني لعلمت العلم اليقين أن ربك هو المسكن المحرك، وأنت مسخر.

ودليل ذلك الخبر الشريف وهو: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

وانظر كيف أمر الله تعالى رسوله ﷺ بسؤال الكفار عن الكالئ لهم فقال تعالى له: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢] إعلامًا للجاهل، وتنبيهًا للغافل؛ لأن الكالئ الحارس الضار النافع، الأغيار كبارهم وصغارهم على اختلاف طبقاتهم لا يستطيعون نصر أنفسهم، كما صح ذلك بنص القرآن.

قلت: وقد قال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] احتج الأصحاب بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى، وأطال الفخر الرازي في ذلك، والذي اختاره أمير المؤمنين عليّ ﷺ أن الله سبحانه وتعالى خلق العبد وأعماله، وجعل من أعماله أفعالاً ناتجة بالاختيار وأفعالاً

---

(١) رواه البخاري (١٨٩١/٤)، (٢٧٤٥/٦)، ومسلم (٢٠٣٩/٤،٢٠٤١)، والترمذي (٢٨٩/٥) بنحوه.

ناتجة بالاضطرار.

فما كان منها بالاختيار فهو الفعل الحاصل بالإرادة الجزئية التي وهبها الله تعالى لعبده كالقيام، والقعود، والذهاب إلى المسجد، والسوق، وغير ذلك وإشغال اللسان بالذكر، أو بضده من الكلام التي تترتب المؤاخذة الشرعية عليه، فمثل ذلك كله يسأل عنه، ويجازى العبد به خيرًا كان أو شرًّا.

وأما الأفعال الاضطرارية كالنوم، واليقظة، والمرض، والموت، وغير ذلك من مجاري الأقدار السماوية التي لا صنع للعبد بها فالعبد غير مسئول عنها، مُثاب على ما يُصاب به منها.

فتدبر هذه المعاني الكريمة ترشد، والله يتولى هُدَانا وهدَاك.

***

الحكمة التاسعة والعشرون

ثم قال المؤلف ﷺ:

[الصُّوْفِيُّ مَنْ صَفَا فَلَمْ يَرَ لِنَفْسِهِ عَلَى غَيْرِهِ مَزِيَّة].

التصوف: التزام الآداب الظاهرة؛ لأنها تدل على الآداب الباطنة، وحضور القلب، وعدم الغفلة.

وقالوا: التصوف: الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرًا وباطنًا، فإن من راقب الله في خطرات قلبه عصمه الله في حركات جوارحه.

وقالوا: التصوف: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالذل والانكسار، وترك التعرض والاختيار، وصحة البذل والإيثار[1].

(١) ويعرفنا الإمام الجنيد التصوف والصوفية بقوله: مبنى التصوف على أخلاق ثمانيةٍ من الأنبياء =

عليهم الصلاة والسلام: السخاء وهو لإبراهيم، والرضا وهو لإسحاق، والصبر وهو لأيوب، والإشارة وهي لزكريا، والغربة وهي ليحيى، ولبس الصوف وهو لموسى، والسياحة وهي لعيسى، والفقر وهو لمحمدٍ ﷺ وعليهم أجمعين.

وقال: التصوف ذكرٌ مع اجتماعٍ، ووجدٌ مع استماعٍ، وعملٌ مع اتّباعٍ.

وقال: إنما هذا الاسم (يعني التصوف) نعتٌ أقيم العبد فيه. فقال أبو بكر الملاعقي: يا سيدي، نعتٌ للعبد أم نعتٌ للحق؟ فقال الجنيد: نعتٌ للحق حقيقةً، ونعتٌ للعبد رسمًا.

وقال: الصوفي كالأرض، يُطرح عليها كل قبيحٍ، ولا يخرج منها إلا كل مليحٍ.

وقال: الصوفي كالأرض يطؤها البَرُّ والفاجر، وكالسحاب يظلُّ كل شيءٍ، وكالمطر يسقي كل شيءٍ.

وسُئل عن التصوف؟ فقال: هو أن يميتك الحق عنك، ويحييك به.

وسُئل عن التصوف؟ فقال: هو أن تكون مع الله تعالى بلا علاقةٍ.

وقال: التصوف هو عُنوةٍ لا صُلح فيها.

وقال: لا يكون العارف عارفًا حتى يكون كالأرض يطؤها البَرُّ والفاجر، وكالسحاب يُظلُّ كل شيءٍ، وكالمطر يسقي ما يحبُّ وما لا يحبُّ.

وقال: ما أخذنا التصوف عن القال والقيل، لكن عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات، والمستحسنات؛ لأن التصوف هو صفاء المعاملة مع الله، وأصله العزوف عن الدنيا، كما قال حارثة: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري.

وسُئل عن التصوف؟ فقال: تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى عن الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول ﷺ في الشريعة.

وقال: التصوف حفظ الأوقات، وهو ألا يطالع العبد غير حدّه، ولا يوافق غير ربّه، ولا يقارن غير وقته.

وسُئل ما التصوف؟ قال: لحوق السر بالحق، ولا ينال ذلك إلا بفناء النفس عن الأسباب؛ لقوة

=

الروح والقيام مع الحق.

وقال: الصوفية هم أهل بيتٍ واحدٍ، لا يدخل فيهم غيرهم.

وقال: إذا رأيت الصوفيَّ يُعنَى بظاهره فاعلم أن باطنه خرابٌ.

وقال: لكل أمةٍ صفوةٌ، وصفوة هذه الأمة الصوفية.

وقيل للجنيد مرةً: ما بال أصحابك يأكلون كثيرًا؟ فقال: لأنهم يجوعون كثيرًا. قيل له: فما بالهم لا تهمهم قوة شهوةٍ؟ فقال: لأنهم لم يذوقوا طعم الزنا ويأكلون الحلال. قيل له: فما بالهم إذا سمعوا القرآن لا يطربون؟ قال: وأي شيءٍ في القرآن يُطرب في الدنيا، القرآن حقٌّ نزل من عند حقٍّ، لا يليق بصفات الخلق، كل حرفٍ منه على الخلق واجبٌ، لا يخرجهم منه إلا الوفاء لله ﷻ، فإذا سمعوه في الآخرة من قائله أطربهم. قيل له: فما بالهم يسمعون القصائد والأشعار والغناء فيطربون؟ فقال: لأنها مما عملت أيديهم، ولأنه كلام المحبين. قيل له: فما بالهم محرومون من أموال الناس؟ فقال: لأن الله تعالى يرضى لهم ما في أيدي الناس، لئلا يميلوا إلى الخلق، فيقطعوا عن الحق تعالى، فأفرد القصد منهم إليه؛ اعتناءً بهم.

وسُئل قدَّس الله سرَّه عن الصوفية: من هم؟ فقال: أثرة الله في خلقه، يخفيها إذا أحب، ويظهرها إذا أحب.

وقال: إذا أراد الله تعالى بالعبد خيرًا أوقعه على الصوفية ومنعه صحبة القراء.

وسُئل الجنيد قدَّس الله سرَّه عن التصوف ما هو؟ فقال: اجتناب كل خلقٍ دنيٍّ، واستعمال كل خلقٍ سَنِيٍّ، وأن تعمل لله، ثم لا ترى أنك عملت.

وقيل لبعض المتكلمين: قد ذكرت الطوائف، وعارضتهم، و لم تذكر الصوفية! فقال: لم أعرف لهم علمًا ولا قولاً، ولا ما راموه؟ قيل: بل هم السادة، وذكروا له الجنيد، ثم أتو الجنيد فسألوه عن التصوف؟ فقال: هو إفراد القدم عن الحدث، والخروج عن الوطن، وقطع المحاب، وترك ما علم أو جهل، وأن يكون المرء زاهدًا فيما عند الله، راغبًا فيما لله عنده، فإذا كان كذلك حَظاه إلى كشف العلوم، والعبارة عن الوجوه، وعلم السرائر، وفقه الأرواح. فقال المتكلم: هذا والله علمٌ حَسنٌ، فلو أعدته حتى نكتبه. قال: كلا، مر إلى المكان الذي منه بدأ النسيان، وذكر فصلاً طويلاً. فقال المتكلم: إن كان رجلٌ يهدم ما يثبت بالعقل بكلمة من كلامه فهذا؛ فإن كلامه لا يحتمل المعارضة.

=

وقال سيدنا المؤلف ﷺ في كتابه «البرهان»: التصوف: الإعراض عن غير الله، وعدم شغل الفكر بذات الله، والتوكل على الله، وإلقاء زمام الحال في باب التفويض، وانتظار فتح باب الكرم، والاعتماد على فضل الله، والخوف من الله في كل الأوقات، وحسن الظن به في جميع الحالات[١].

وقال ﷺ في محلٍّ آخر من الكتاب المذكور[٢]:

أي سادة. الفقير على الطريق ما دام على السُّنة، ومتى حاد عنها زل عن الطريق، قيل هذه الطائفة الصوفية واختلف الناس في سبب التسمية، وسببها غريب لا يعرفه الكثير من الفقراء، وهو أن جماعة من مضر يُقال لهم: بنو الصوفة، وهو: الغوث بن مر بن اد بن طابخة الربيط.

كانت أمه لا يعيش لها ولد، فنذرت إن عاش لها ولد تربطن برأسه صوفة، وتجعله ربيط الكعبة، وقد كانوا يجيزون الحاج إلى أن مَنَّ الله بظهور الإسلام فاسلموا، وكانوا عبادًا ونقل عن بعضهم حديث رسول الله ﷺ، فمن صحبهم سُمِّي بالصوفي، وكذلك من صحب من صحبهم، أو تعبَّد ولبس الصوف مثلهم ينسبونه إليهم، فيُقال: صوفي.

ونوَّع الفقراء بالأسباب، فمنهم من قال: التصوف: الصفاء.

ومنهم من قال: المصافاة.

وغير ذلك وكله صحيح من حيث معناه؛ لأن أهل هذه الخرقة التزموا الصفاء، والمصافاة، وعملوا بالآداب الظاهرة.

وقالوا: أنها تدل على الآداب الباطنة.

=

قال الجنيد: الصوفية أهل غيبٍ، لا يدخل فيهم غيرهم.

وانظر: كتابنا الإمام الجنيد سيد الطائفتين (٢٣٩) بتحقيقنا.

(١) انظر: البرهان (ص١٣٠).

(٢) انظر: البرهان (ص٢٧).

وقالوا: أحسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن.

وقالوا: من لم يعرف أدب الظاهر لا يؤتمن على أدب الباطن.

كل الآداب منحصرة في متابعة النبي ﷺ قولاً، وفعلاً، وحالاً، وخلقًا.

فالصوفي آدابه تدل على مقامه، زنوا أقواله، وأفعاله، وأحواله، وأخلاقه بميزان الشرع يعلم لديكم ثقل ميزانه، وخفته خلق النبي القرآن.

قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

من التزم الآداب الظاهرة دخل في جنسية القوم، وحسب في عدادهم، ومن لم يلتزم الآداب الظاهرة فهو فيهم، غير لا يلتبس حاله عليهم؛ لأن استعمال الآداب دليل الجنسية، بل تكون علة الضم.

قال رويم: التصوف كله أدب، وهذا الأدب الذي أشار إليه الطائفة أدب الشرع، كن متشرعًا، ودع حاسدك يكذب عليك، وينسب ما يحب إليك.

وَلَستُ أُبَالي في زَمَانٍ بريبَةٍ ... إِذَا كُنتُ عِند الله غَير مُرِيب
إِذَا كَانَ سِرِّي عِند رَبي مُنَزَّهًا ... فَمَا ضَرَّني وَاسٍ أَتَى بِغَرِيب

وذكر صاحب أم البراهين أن سيدنا المؤلف ﷺ كان يقول:

لَيسَ التَّصوف بِالخرق ... مَن قَال هَذا مَا صَدَق
إِنَّ التصوف يَا فَتَى ... خَرق يُمَازِجُهَا قَلَق

وقد شطرتهما تشبثًا بأذياله قدس الله سره فقلت:

لَيسَ التصوُّف بِالخِرق ... أو بِالتَّوهُّم والعلق
أو بِالتَّعَالي والجفا ... مَن قَال هَذا مَا صَدَق
إِنَّ التصُوُّف يَا فَتَى ... سِرٌّ عَلَى القَلب اتَّسَق

وَيَـــنبُعُ مِـــن مَكـــنُونِهِ حَـــرقٌ يُمَازِجهـــا قَلَـــق

وأنشد بعضهم:

تَنَازَعَ الـناس في الصُّوفي واختلفوا فِـيهِ وظَـنُّوه مُـشتقًا مِن الصوفي
وَلَستُ أمنح هَذَا الاســم غَير فَتى صَــافي وصُوفي حَتى سُمِي الصُّوفي

فإذا أدركت ما اندرج فيما قدمناه لك من معنى التصوف، ومن وصف الصوفي، تيقنت أن من كانت هذه نسبته، وهذه صفته، لا يرى لنفسه على غيره مزية.

***

الحكمة الثلاثون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[كُلُّ الأغْيَارِ حُجُبٌ قَاطِعَةٌ فَمَنْ تَخَلَّصَ مِنهَا وَصَلَ].

أراد ﷺ بالأغيار غير الله سبحانه وتعالى، وعدها حجبًا قاطعةً: أي أسبابًا مانعة عن القرب من باب الله سبحانه وتعالى.

ثم قال: فمن تخلص منها: أي فمن أعرض عنها، وطرحها عن قلبه، وأقبل على الله بكليته وصل: أي على الله، وصار من أوليائه الذين لا تشتغل قلوبهم بغين طرفه عين ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

ويؤيد قول المؤلف ﷺ حديث: «**من أخلص لله أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**[1]».

***

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٢٤/١)، والمناوي في فيض القدير (٢٧٣/٤).

الحكمة الواحدة والثلاثون

ثم قال سيدنا المؤلف رضي الله عنه:

[الْوَقْتُ سَيْفٌ يَقْطَعُ مَنْ قَطَعَهُ].

شبَّه الوقت بالسيف؛ لشدة قطعه، والوقت مروره أسرع من قطع السيف فيمن قطع عزمه عن اغتنام بركة الوقت، فإن للأوقات هوابط وتجليات لا ينتفع بها إلا اليقظ المتنبه، الذي لا يضيع وقته.

وفي هذه الحكمة المباركة: حث على اغتنام بركة أهل الوقت.

فقد قال الجنيد رضي الله عنه: من حرم بركة أهل الوقت فوقته كله مقت[1].

وقد عدَّ الشارع ﷺ حُسن الظن من العبادة فقال ﷺ: «**حسن الظن من حسن العبادة**[2]».

***

الحكمة الثانية والثلاثون

ثم قال سيدنا المؤلف رضي الله عنه:

[عَلاَمَةُ العَاقِلِ الصَّبْرُ عِنْدَ المِحْنَة، والتَّوَاضعُ عِنْدَ السَّعَةِ والأَخْذُ بِالأَحْوَط، وطَلَبُ البَاقِي سُبْحَانَهُ وتَعَالَى].

فانظر كيف جمع أحسن الشيم وأكرمها وجعلها علامة للعاقل، وابتدأ بالصبر تشبُّثا

---

(١) وقال سيد الطائفتين أيضًا: الوقت عزيزٌ، إذا فات لا يُدرك. كتابنا في الإمام الجنيد (ص١٢٢).

(٢) رواه ابن حبان (٢/٣٩٩)، والبيهقي في الشعب (٢/١٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/١٠٣).

بأذيال النبي ﷺ، فإنه قال ﷺ: «الصبر رضا الحكيم[(١)]».

وقال ﷺ: «الصبر عند الصدمة الأولى[(٢)]».

قال أئمة الحديث رضي الله عنهم: أراد بالصدمة الأولى: ثورة المصيبة، وشدتها.

والصدم: ضرب الشيء الصلب بمثله، والصدمة المرة منه.

وقالوا: أراد بالصبر: الورع؛ لأن العبادة قسمان: نسك، وورع.

فالنسك: ما أمرت به الشريعة.

والورع: ما نهت عنه، وإنما ينتهي عنه بالصبر فكان الصبر نصف الإيمان، كما جاء في حديث آخر.

وكان الصبر أيضًا رضا الحكيم الذي ألهمه الله رشده، وأتاه من لدنه فهمًا وعلمًا.

وأقامه مظهرًا لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالصبر في عدة آيات فقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقد وعد الله الصابرين بالنجاح، وحسن العاقبة فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

ووعدهم أيضًا بمعونة معينة فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٤١٥/٢) بنحوه.

(٢) رواه البخاري (٤٣٠/١)، والترمذي (٣١٣/٣).

ووعدهم بحسن الصبر مع الأجر على الصبر فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وشهد القرآن بجزم الصابر التقي فقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]

ثم أتى المؤلف ﷺ بقوله: (والتواضع عند السَّعة): فقد جعل التواضع عند السَّعة علامة للعاقل؛ لأن العاقل إذا اتسع به أمر المال، والجاه، والعزة في الشهرة، وغلب بعقله على كل ذلك، وتواضع للخلق، وتذلل للحق، فإن ذلك لا يزيده إلا رفعةً، وعزًّا، وإذا علمه الطيش، ولَمَّ به الغرور، وتكبَّر على الخلق، ونسي الحق، فقد شهد على نفسه بخفة العقل ولا يتم شأنه أبدًا.

ولما كان الغرور والكبر على الغالب لا يتشعب في النفس، إلا في أيام السعة عد المؤلف ﷺ التواضع عند السعة من علامات العاقل الذي يريد دوام نعمته، ويؤيد ذلك قول الرسول العظيم ﷺ: «**التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله تعالى**[1]».

تنبيه:

الوقار لا يُعد من الكبر، إنما هو أدبٌ يحفظ به الرجل حرمته أن ينتهكها الجهال.

وقد يكون ذلك في الرجل العالم، العاقل، الورع، الغني، وفي الرجل العالم العاقل الذي لا مال له ولا ثوب له، وقد يظهر الوقور شرف الوقار تجاه الأحمق الذي لا يدرك شرف الذات.

كما وقع للإمام الشافعي ﷺ حين احتقره بعض الجهال لثوب خلق كان عليه فأنشد:

لَـئِن كَان ثَوبِي فَوق قِيمَتِهِ الفَلَس ... فَلِي فِيهِ نفسٌ دُون قِيمتهَا الإنــس
وثَوبُك شَمسٌ تَحت أَنوَاره الدُّجَى ... وثَوبِي لَيلٌ تَحت ظُلمته الشَّمس

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/٣٨٤).

وحسن في هذا الباب قول الشاعر:

إِذَا المَرء لَم يُدَنّس مِن اللوم عَرضه فَكُل رِدَاء يَرتَديهِ جَمِيل

ولنرجع للمقصود فنقول: قال يحيى بن معاذ ﷺ: التواضع في كل أحد حسن لكنه في الأغنياء أحسن، والكبر سمج لكنه في الفقراء أسمج.

وقالت الحكماء: ما تكبر أحد إلا من زلة يجدها في نفسه.

وقالوا: الشرف في التواضع.

وقالوا: التواضع نعمة لا يحسد عليها، والتكبر محنة لا يرحم عليها، والعز في التواضع فمن طلبه في الكبر لا يجده.

ثم أتبع المؤلف ﷺ علامة التواضع بقوله: (والأخذ بالأحوط، وطلب الباقي سبحانه) أراد بقوله: الأخذ بالأحوط: استعمال الحكمة في الأعمال[١] أخذًا بقول رسول الله ﷺ: «**الحكمة تزيد الشريف شرفًا، وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك**[٢]».

وقيِّد استعمال الحكمة بطلب الباقي سبحانه.

ألا ترى قول النبي ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النّار**[٣]».

فإذا أمعنت النظر في هذه الحكمة الأحمدية الجليلة رأيت أن سيدنا الغوث المؤلف ﷺ أوضح شأن العقل، وأنار برهانه، وأتى بما لم يأتِ به غيره من أعاظم الأفراد المتمكنين وإجلاء صدور الأقطاب المقربين.

---

(١) قال سيدي ابن عجيبة: قال سيدنا عيسى عليه السلام لأصحابه: أين تنبت الحبة؟ قالوا: في الأرض. قال: كذلك الحكمة لا تنبت إلا في قلب كالأرض انتهى. وانظر: إيقاظ الهمم شرح الحكم (ص٥٣).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٧٣/٦)، وابن عدي في الكامل (١٤٣/٥).

(٣) رواه البخاري (١٤/١)، وابن حبان (٤٧٤/١).

وما أحراه وأليقه بما قاله فيه سيدنا الشيخ أبو بكر بن يحيى الواسطي بمحضر منه رضي الله عنهما، وهو قوله:

يَـــا واحِـــد الخَلق بِالأَفْعَال والكَرم ... وَأوجَـــز الـــناس بِالتّبـــيَان والحِكَـــم
يَـــا مَـــن أيَاديه لا تُحصَى مَواهِبها ... يَـــا أحمَد الناس مِن عَربٍ ومِن عجمِ
يَا مَن إِذَا قَال قَولاً أو حَمَى حَرَمًا ... وَفّـــى بِمِيـــثَاقِه والعَهـــد والـــذمم
أنـــتَ الذي عطّر الأكوان مُخبره ... وضَـــم المفـــضل حُسن الخلُق والشّيَم

ولقد أجاد وأصاب، وأتى من الصواب بفصل الخطاب، على أن هذا السيد الجليل والعلم الطويل:

هَـــيهَات أن يَأتِي الزمَان بِمِثلِهِ ... إنّ الـــزمانَ بمـــثله لَبَخِـــيل

***

الحكمة الثالثة والثلاثون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[عَلاَمَةُ العَارِفِ: كِتْمَانُ الحَالِ، وصِحَّةُ المَقَالِ، والتَّخَلُّصُ مِنْ الآمَالِ]

جعل علامة العارف[1] كتمان الحال عملاً بقول النبي ﷺ:

---

(١) قال الشرقاوي: فقد سُئِل الجنيد عن العارف فقال: «لون الماء لون إنائه». أي هو متخلق بأخلاق الله حتى كأنه هو، وما هو هو، وهو هو، فالعارف عند الجماعة: من أشعر نفسه الهيبة والسكينة، وجعل أول المعرفة لله، وآخرها ما لا يتناهى، ولم يُدخِل قلبه حق ولا باطل وغاب عن نفسه لاستيلاء ذكر الحق، فلا يشهد غير الله، ولا يرجع إلى غيره، فهو يعيش بربه لا بقلبه، وأفسدت المعرفةُ الداخلة قلبه أحوالَهُ التي كان عليها، بأن يقلبها الله تعالى إليه، لا بأن يعدمها، فإنها عند الجماعة لا تنعدم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل:٣٤] فلا حال عندهم للعارف؛ لمحور رسومه، وفناء هويَّته، وغيبة أثره، وهو منقطع

=

منقمع، عاجز على معروف، خائف متبرم بالبقاء في هذا الهيكل، وإن كان منورًا لما عرَّفه الشارع: أن في الموت لقاء الله، فتنغصت عليه الحياة الدنيا شوقًا إلى ذلك اللقاء فهو صافي العيش كدر طيب الحياة في نفس الأمر لا في نفسه، قد ذهب عنه كل مخلوق، وهابه كل ناظر إليه، ذو أنس بالله، معه تعالى بلا فصل ولا وصل، حي القلب قلبه مرآة للحق، حليم محتمل، فارغ من الدنيا والآخرة، ذو دهشٍ وحيرة، يأخذ أعماله عن الله، ويرجع فيها إليه، بطنه جائع، وبدنه عار، لا يأسف على شيء، لا يرى غير الله، تبكي عينه ويضحك قلبه، فهو كالأرض يطأها البار والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالمطر يسقي كل ما يجب وما لا يجب، لا تمييز عنده، لا يقضي وطره من شيء، بكاؤه على نفسه وثناؤه على ربه، يضيعُ ما له ويقفُ مع ما للحق، لا يشتغل عنه طرفة عين، عرفَ لربه بربه، مهدي في أحواله، لا تلحظه عين الأغيار، ولا يتكلم بغير كلام الله، مستوحش من الخلق، ذو فقر وذلة، يورث غنى وعزة، معرفته طلوع حق على الأسرار ومواصلة الأنوار، حاله فوق ما يقول، استوت عنده الحالات في الفتح، يفتح له على فراشه كما يفتح له في صلاته، وإن اختلفت الواردات بحسب المواطن، دائم الذكر، ذو لوامع تسقط التمييز، لا يكدره شيء، ويصفو به كل شيء، تضيء له أنوار العلم؛ فيبصر بها عجائب الغيب، مستَهلَك في بحار التحقيق، صاحب أمواج تغط فترفع وتحط، صاحب وقت واستيفاء حقوق المراسم الإلهية على التمام، تعبه في تحوله من صفة إلى صفة، دائم لا يتعمل ولا يجتلب أجبذ الوقت، يسع الأشياء ولا تسعه، يرجو ولا يرجى، رحيم مؤنس، مشاهد جلال الحق وجمال الحضرة، معه مع كل وارد، يصادف الأمور من غير قصد، له وجود في عين فقد، ذل في عز، قهر في لطف، ولطف في قهر، حق بلا خلق، مشاهد قيام الله على كل شيء، فانٍ عنه باقٍ معه به، غائب عن التكوين، حاضر مع المكون، صاحٍ بغيره، سكران بحبه، جامع للتجلي، لا يفوته ما مضى بما هو فيه، ثابت المواصلة، محكم للعبادةَ في العادة مع إزالة العلل، طائع بذاته، قابل أمور ربه، منـزه عن الشبيه، يجري عليه منه أحكام الشرع، في عين الحقيقة، ذو روح وريحان، قلبه طريق مطروقة لكل سالك، صاحب دليل وكشف وشهود، يلزم الوارد ويتأدب مع الشاهد، بريء من العلل، صاحب إلقاء وتلق، مضنون به مستور، بولهِ محبوس في الموقف، ذاهبٌ تحت القهر، رجوعه سلوك، وحجابه شهود، سره لا يعلم، به زره كلما ظهر له وجه عَلِم أنه بَطُنَ عنه وجه، منفرد بلا انفراد، متواتر الأحوال بحكم الأسماء، أمين بالفهم، قابل للزيادة، موحد بالكثرة، صاحب حديث قديم، يعلم ما

=

=

وراء الحجر من غير رفع حجاب، ذو أنوار، طامس شعاعاته محرقة، وفجاجات وارداته مقلقة، يرد عليه ما لا يعرف، متمكن في تلوينه، لكون خالقه كل يوم هو في شأن، مجرد بكله عن السوى، واقف بالحق في مواطنه، مريد لكل ما يُرَاد منه، ذو غيابة إلهية تجذبه، سالك في سكونه، مقيم في سفره، صاحب نظرة ونظر، يجد ما لا تسعه العبارة من دقائق الفهم عن الله من غير سبب، مهذب الأخلاق، غير قائل بالاتحاد، ذاهب في كل مذهب بغير ذهاب، مقدس الروح من رعونات النفوس، مؤمن بالناطق في سره، مصغ إليه راغب فيما يرد به، مشفق بما في طيه، مظهر خلاف ما يخفى لمصلحة وقته، لا يُحكَم عليه، غريب في الملأ الأعلا والأسفل، ذو همة فعالة، مقيدة غير مطلقة، غيور على الأسرار أن تذاع في عالم الغيب والشهادة، عن أمر الحق ولاية وخلافة، حمَّال أعباء المملكة، يستخرج غيابات الأمور، تُنشئ خواطره أشخاصًا على صورته، محفوظ الأربعة، فريد من النظر، له في الملكوت وقائع مشهودة، قائم بالحق في جمعيته، ناقد الهمة، مؤثر في الوجود على الإطلاق من غير تقييد، لكن بالميزان المعلوم عند أهل الله، مجهولاً النعت والصفة عند الغير من جميع العالم، من بشر وجن وملك وحيوان، لا يُعرَف بحد، ولا يفارق العادة فيميز، خامل الذكر، مستور الحال، عام الشفقة على عباد الله، يغرق في رحمته من أُمِرَ برحمته، حتى يجعل له خصوص وصف، عارف بإرادة الحق في عباده قبل وقوع المراد فيريد بإرادة الحق، لا ينازع ولا يقاوم، ولا يقع في الوجود ما لا يريد، وإن وقع ما لا يرضى وقوعه بل يكرهه، شديد في لين، يعلم مكارم الأخلاق من سفسافها، فينـــزلها منازلها مع أهلها تنـــزيل حكيم، بريء ممن تبرأ الله منه، محسن إليه مع البراءة منه، مصدق، مؤمّن عباد الله من غوائله، مشاهد تسبيح المخلوقات على تنوعات أذكارها، لا يظهر إلا لعارف مثله، إذا تجلى له الحق يقول: أنا هو؛ لقوة الشبه في عموم الصفات الكونية والإلهية، إذا قال: بسم الله كان عن قوله ذلك كلما قصده بهمته، لا بقوله: (كن) أدبًا مع الله، فيعطي المواطن حقها، كبير بحق، صغير لحق، متوسع مع حق، جامع لهذه الصفات في حق، واحد خبير بالمقادير والأوزان، لا يفرط ولا يفرّط، يتأثر مع الآفات لتغير الأحوال، فلا يفوته من العالَم ولا مما هو عليه الحق في الوقت شيء، مما يطلبه العالَم في زمن الحال، يشاهد نشأ الصور من أنفاسه، بصورة ما هو عليه الحق في قلبه عند خروج النفس، فإذا أورد عليه النفس الغريب من خارج لتبريد القلب، طلع على ذلك النفس خلعة الوقت، فيضيء ذلك النفس بذلك النور الذي يجد في القلب، يستر مقامه بحاله، وحاله بمقامه فتجهله أصحاب الأحوال بمقامه وأصحاب

=

=

المقامات بحاله عن فاعل شهوته؛ إذ لم يجد وجه الحق في طبيعتها يبذل لك لا له، عطاؤه غير معلول، لا يَمُن إذا امتن، ويَمتن بقبول المنّ، لا يؤاخذ الجاهل بجهله، فإن جَهلُه له وجه في العلم، لا يُشعر المعطي من عنده حينما يعطيه، يُعرِّفه أن ذلك أمانة عنده أُمِرَ بإيصالها إليه، لا يُعرِّفه أن ذلك من عند الله، يفتح مغاليق الأمور المشكلة بالنور المبين، يأكل من فوقه ومن تحت رجله، يضم القلوب إليه إذا شاء من حيث لا تشعر، ويرسلها إذا شاء من حيث لا تشعر، يملك أزمة الأمور، وتملكه بما فيها من وجه الحق لا غير، ينظر إلى العلو فيستفل بنظره، وإلى السفل فيعلو ويرتفع بنظره، ويحجر الواسع، ويوسع المحجور، ويسمع كل مسموع منه، لا من حيثية ذلك المسموع، ويبصر كل مُبْصَر، لا من حيث ذلك المبصر، يقضي بين الخصمين بما يرضيهما فيحكم لكل واحدٍ لا عليه مع تناقض الأمر، يميل إلى غير طريقه في طريقه لحكمة الوقت، يغلِّب ذكر النفس على ذكر الملأ من أجل المفاضلة غيرة أن يُفَاضَل الحق، فإنه ذاكر بحق في حق، الأمور كلها عنده ذوقية لا خبرية، يعرف ربه من نفسه، كما عَلِمَ الحق العالَم من علمه بنفسه، لا يُؤاخِذ بالجريمة، عظمته في ذلته وصغاره، فلا ينتقل عن ذلته في موطن عظمته دنيا وأخرى، هو في عمله بحسب علمه، إن اقتضى العمل عمل، وإن اقتضى أن لا يعمل لم يعمل، عنده خزائن الأمور بحكمه، ومفاتيحها بيده، يُنَــزِّل بقدر ما يشاء، ويخرج ما يشاء، غوّاص في دقائق الفهوم عند ورود الصلوات، له نعوت الكمال، له مقام الخمسة في حفظ نفسه وغيره، وينظر في قوله: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] فلا يتعداه، يدبر أمور الكون بينه وبين ربه، كالمشير العالِم الناصح في الخدمة، القائم بالحرمة، لا أبنية لسره، لا يبخل عند السؤال، ينظر في الآثار الإلهية الكائنة في الكون؛ ليقابلها مما عنده لما سمع قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، يسمع نداء الحق من ألسنة الخلق، يسع الأشياء ولا يسعه سوى ربه، فهو أينه وعينه، مراقب للأوامر الإلهية الواردة في الكون، ثابت في وقت التزلزل، لا تزلزله الحادثات، ليس في الحضرة الإلهية صفة لا يراها في نفسه، يظهرُ في أي صورة شاء بصفة الحياة، مع الوقوف عند الحدود، يعرفُ حقه من حق خالقه، يتصور في الأشياء بالاستحقاق، ويُصرِف الحق فيها بالاستخلاف، له الاقتدار الإلهي من غير مغالبة، لا تنفذ فيه همم الرجال، يحصي أنفاسه بمشاهدة صورها، فيعلم ما زاد وما نقص في كل يوم وليلة، ينظر في المبدأ والمعاد، فيرى التقاطر في الدائرة، يلقي الكلمة في المحل القابل، فيبدو صورته وحاله في أي صورة كان، ما يطأ مكانًا إلا حيِيَ ذلك

=

«**استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود**[١]».

واتبع العلامة الأولى بقوله: وصحة المقال إلزامًا بالصدق، ونهيًا عن الكذب عملاً بقول النبي ﷺ: «**الكذب يسوّد الوجه**[٢]».

=

المكان بوطنته؛ لأنه وطنته بحياة روحية، إذا قام قام بقيامه ربه، ويغضب لغضبه، ويرضى لرضاه، فإن حالته في سلوكه كانت هكذا فعادت عليه ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، لا يخطر له خاطر في شيء إلا تكوّن، ولا يعرف ذلك الشيء أنه كونه له، على الأشياء شرف البصر على العماء لا شرف الاستواء فهو وحيد في الكون، غير معروف العين، من لجأ إليه خسر ولا تنقضي حاجته إلا به؛ فإنه ظاهر بصورة العجز وقدرته من وراء ذلك العجز، لا يمتنع عن قدرته ممكن، يحسن للمسيء والمحسن، يرجع إلى الله في كل أمر، ولا ينتقم لنفسه ولا لربه إلا بأمره الخاص، فإن لم يأمره عفا بحق؛ لشهوده السابقة في الحال، القليل عنده كثير، والكثير قليل، يجري مع المصالح فيكون الحق له ملكًا، يسبح أسماء الله تعالى بتنـــزيهها من أن تناله أيدي الغافلين، غيرة على الجناب الإلهي من حيث كونها دلائل عليه دلالة الاسم على المسمى، إن وُلِّيَ منصبًا يُعطَى العلوم، لم يُرَ فيه متعاليًا بالله فأحرى بنفسه، يعدل في الحكم ولا يتصف بالظلم، جامع علوم الشرع من عين الجمع، مستغنٍ عن تعليم المخلوقين بتعليم الحق، ويعطي ما تحصل به المنفعة، ولا يعطي ما تكون به المضرة، إن عاقب فتطهير، لا تبقى مع نور عدله ظلمة جور، ولا مع نور علمه ظلمة جهل، يبين عن الأمور بلسان إلهي؛ ليكشف غامضها ويجليها في منصتها، يرثُ ولا يورث بالنبوة العامة، يتصرف ويعمل ما ينبغي، يُؤذَى فيحلم عن مقدرة، وإذا أخذ فبطشه شديد؛ لأنه خالص غير مشوب برحمة.

فهذه بعض صفات العارف من بعض ما ذكره في الفتوحات في باب المعرفة.

فينبغي لكل من يدعى المعرفة أن يعرض صفاته عليها؛ ليعلم هل هو متخلق بها أو لا فإن لم يجد نفسه بتلك المثابة كان المناسب له التحقق بالعجز وترك الدعوى والله أعلم. وانظر: شرح الحكم الكردية (ص١٧٠) بتحقيقنا.

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٩٦/٦)، والطبراني في الصغير (٢٩٢/٢)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (١٣٥/١).

(٢) رواه ابن حبان (٤٤/١٣)، والبيهقي في الشعب (٢٠٨/٤)، وذكره المنذري في الترغيب =

ثم أتبعها بالعلامة الثالثة: وهي قوله والتخلص من الآمال استغناء بالله سبحانه وتعالى وعملاً بقول النبي ﷺ: «استغنوا بغنى الله[١]».

وقوله ﷺ: «استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك[٢]»: أي بغسالته.

وقيل: بما يتفتت منه عند التَّسَوُّك، ولا يخفى أن العارف هو الحكيم الذي انبجست معرفة الله تعالى من عين قلبه، وهو المراد بقوله ﷺ: «كاد الحكيم أن يكون نبيًّا[٣]».

* * *

الحكمة الرابعة والثلاثون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[الدُّنْيَا وَالْآخِرَة بَيْنَ كَلمتين: عَقْل وَدِيْن]

أراد بذلك أن نفع الدنيا والآخرة ينتظم بين نتيجة كلمتين:

الأولى: العقل وهو الجوهر الذي يعقل الناس عند حدها في أخذها وردها.

والثانية: الدين وهو في اللغة: الجزاء، ثم الطاعة.

وقد سموا الطاعة: دينًا؛ لأنها السبب الجزاء، كما ذكر ذلك الفخر الرازي في تفسيره.

ولا يخفى أن الدين الذي اختاره الله تعالى وارتضاه، وأمر به إنما هو الإسلام قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ

=

والترهيب (٣/٣٢٤).

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١/٤١١)، وذكره المناوي في فيض القدير (٥/٣٥٥) بنحوه.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١١/١٤٤)، والبيهقي في الشعب (٣/٢٧٤).

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/١٤٠).

الخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد جاء في شأن العاقل أيضًا قوله ﷺ: «استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا[(١)]» وقلت في معني هذه الحكمة بيتين:

أخِـي لَـكَ العِـز يَـوم المعادِ ... وفي هَـذه الدُّنـيا تَغدُو مَكينًا

وَتَـبلغ مجـدًا رَفِـيع العمَـاد ... إذَا أنـتَ أحـرزتَ عَقلاً وديـنًا

***

الحكمة الخامسة والثلاثون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[الْعِلْمُ مَا رَفَعَكَ عَن رُتْبَةِ الجَهْلِ، وَأَبْعَدَكَ عَنْ مَنـزِلِ العِزَّةِ وَسَلَكَ بِكَ سَبِيْلَ أُولِي الْعَزْمِ]

العلم الذي قصده المؤلف ﷺ إنما هو العلم النافع الذي يتم به الجمع بين منفعتيَ الدنيا والدين، كالفقه، والتفسير، والحديث، وغير ذلك من العلوم النافعة الشرعية، و لم يعتبره بنسبة حامله علمًا إلا بقيود مخصوصة، وهي أن يرفع صاحبه عن رتبة الجهل، فلا يقطع ما أمر الله به أن يوصل، ولا يتعدَّى حدود الله ويأتمر بأوامر الله وينتهي عما نهى عنه الله.

فحينئذ يكون متحققًا بمرتبة العلم، مترفِّعًا بها عن مرتبة الجهل، وأن يبعده علمه أيضًا بعد تحققه بمرتبة العلم عن موطن الاعتزاز والاغترار بالعلم، فلا يشهد بنفسه أحسن من أحد اجتنابًا، وابتعادًا عن خلق إبليس لعنه الله، وتمسُّكا بذيل الشرع الشريف، والكلام القديم المنيف، وشرط عليه بعد هذا أن يسلك به علمه سبيل أولي العزم، الذين صبروا في الله واستقاموا كما أمر الله ليبلغ مقام القوم الذين قال فيهم الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي

---

(١) ذكره ابن حجر في لسان الميزان (٣/٩٩)، والذهبي في ميزان الاعتدال (٣/٣٠٩) بنحوه.

كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] وليحفظ من ورطة العلم الذي لا ينفع، فإن النبي ﷺ قال: «أشد القوم عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه[١]».

وأن من دعائه ﷺ: « اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع[٢]».

***

الحكمة السادسة والثلاثون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[الشَّيْخُ: مَنْ إِذَا نَصَحَكَ أَفْهَمَكَ، وَإِذَا قَادَكَ دَلَّكَ، وَإِذَا أَخَذَكَ نَهَضَ بِكَ، الشَّيْخُ: مَنْ يُلْزِمكَ الكتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَيُبْعِدكَ عَنْ المحدثَةِ وَالْبِدْعَةِ، الشَّيْخُ: ظَاهِرهُ الشَّرْع وَبَاطِنهُ الشَّرْع]

أراد بالشيخ المرشد؛ لأن الشيخ لغةً: من بلغ الأربعين.

واصطلاحًا: من بلغ رتبة أهل الكمال ولو كان صبيًا.

والمرشد من الإرشاد: وهو ضد الإضلال.

ووصفه بأنه هو الذي إذا نصح السالك أفهمه بموعظته طريق نجاحه، وإذا اجتذبه بيد إرشاده دله على أسباب سعادته وأوصله إليها، وإذا أخذه وقبله صاحبًا ورفيقًا نهض به ورفعه من حيطة الغفلة، وورطة الشك، والانتباه، وساحة اليقين، وذلك بأن يلزمه ويجبره بعساكر همته، وسلطان حكمته، على متابعة الكتاب والسُّنة وهجر المحدثة والبدعة.

عملاً بقول النبي ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإيَّاكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل

---

(١) رواه الطبراني في الصغير (١/٣٠٥)، وابن عدي في الكامل (٥/١٥٨).

(٢) رواه مسلم (٤/٢٠٨٨)، والنسائي (٤/٤٤٥)، وأحمد (٣/٢٨٣).

ضلالة في النار[1]».

ثم وصف الشيخ بأن ظاهره عين الشرع، وباطنه عين الشرع، يريد بذلك أن أفعاله الظاهرة، وأفعاله الباطنة قائمة بالشرع لا تنحرف عنه مقدار شعرة، امتثالاً لقوله ﷺ: «**من اقتدى بي فهو مني ومن رغب عن سنتي فليس مني**[2]».

فحينئذ ظهر للعاقل أن الشيخ الذي يصح أن يكون قدوة ومرشد، إنما هو المتصف بهذه الأوصاف، وإلا فكل من ادَّعى المشيخة لا يليق بمجرد الدعوى أن يكون قدوة للناس؛ لأن رتبة المشيخة لما كانت رتبة إرشاد، وهداية، وجب على صاحبها التمكن في مقام مرتبته بما يؤيد برهانها، ويرفع أركانها من الأخلاق، والأفعال، والأحوال، والأقوال المحمدية، وحينئذٍ لا بأس عليه أن يتصدر لإرشاد الخلق طمعًا بحصول نتيجة قول النبي ﷺ: «**لئن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لكم من حمر النعم**[3]».

ولا ريب أن من دعا إلى ضلالة موزور، ومن دعا إلى هدى مأجور، وقد بين ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**أيّما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتبع كان عليه مثل أوزار من اتبعه ولا ينقص من أوزارهم شيئًا، وأيّما داعٍ دعا إلى هدى فاتبع فإن له مثل أجور من تبعه ولا ينقص من أجورهما شيئًا**[4]».

وعلى هذا الميزان درج سادات المشايخ الذين منهم الأقطاب، الأنجاب، والأبدال ومنهم القطب الغوث الذي هو موضع نظر الله من العالم في كل زمان.

❁ **تنبيه:**

قد تكلم القوم وغيرهم في القطبية والغوثية، واختلفت فيها الروايات.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٦٢/١).

(٤) رواه الطبري في التفسير (٩٦/١٤)، وابن ماجه (٧٥/١).

فقال قومٌ من الصوفية: القطب من جنس الأولياء من بني آدم من أمة النبي ﷺ يأكل، ويشرب، وينكح، ويأتي بالعزائم، والرخص، ويجاهد هواه، قلبه على قلب إسرافيل ؏، يقوم ويقعد مقتفيًا آثار رسول الله ﷺ.

وقال آخرون: إن الله سبحانه وتعالى اصطفى لنفسه من خلقه في كل زمن ثلاثمائة وهم: خُلّص الأولياء.

وسبعين وهم: الأبدال، والنجباء.

وأربعين وهم: الأوتاد.

وعشرة وهم: النقباء.

وسبعة: وهم العرفاء.

وثلاثة وهم: المختارون.

وواحدًا وهو: القطب الغوث، فإذا قُبض القطب الغوث يختار من الثلاثة واحد يجعل مكانه.

ويختار من السبعة واحد يضم إلى الثلاثة.

ويختار من العشرة واحد يضم إلى السبعة.

ويختار من الأربعين واحد يضم إلى العشرة.

ويختار من السبعين واحد يضم إلى الأربعين.

ويختار من الثلاثمائة واحد يضم إلى السبعين.

ويختار من الخلق واحد لإتمام الثلاثمائة، ولا يزال كذلك إلى يوم القيامة(١).

---

(١) انظر: إجابة الغوث ببيان حال النقباء والنجباء والأبدال والأوتاد والغوث لابن عابدين.

وعلى رأي هذه الفرقة أن الغوث قد يكون من غير أهل البيت النبوي، خلافًا لجماهير العارفين من الصوفية رضي الله عنهم، فإنهم يقولون أن القطب الغوث لا يكون إلا من أهل بيت النبي ﷺ.

ولا يخفى أن القطب لغةً: قلب الرحى: أي عمودها الذي تدور عليه.

ويُقال: قطب القوم: أي سيدهم الذي ينتهي إليه رأيهم، ويدور عليه أمرهم.

ومن هنا اصطلح الأولياء رضي الله عنهم على تسمية رئيسهم ومقدمهم بالقطب.

وقد اتفقوا جميعًا مع اختلاف رواياتهم أن القطب لا يكون في كل زمان إلا واحدًا، وهو الغوث الفرد الجامع الذي يتلقى الأوامر الباطنة من رسول الله ﷺ، وينبضها على أصحاب النوبة رضي الله عنهم.

وأظن أن أصحاب النوبة المرادون بحديث ابن عمر رضي الله عنهما وهو قوله عليه السلام: «**خيار أمتي في كل قرن خمسمائة والأبدال أربعون، فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون، كلما مات رجل أبدل الله من الخمسمائة مكانه، وأدخل في الأربعين مكانه يعفون عمَّن ظلمهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، ويتواسون فيما آتاهم الله**[(١)]».

وقد وقع الغلو في بعض المتصوفة، فإنهم حصر بعضهم هذه المرتبة المباركة، أعني القطبية في مشايخهم ورجال طريقتهم كفرقة من الشاذلية، فإنهم يقولون: إن القطب الغوث لا يكون إلا شاذليًا.

وقد صرَّح بذلك ابن عباد الشاذلي المغربي في رسالته، وذكر لبعضهم قصيدة يمدح بها السَّادة الشَّاذلية يقول فيها: «خدامهم أستاذ كل زمان»: يعني بخدامهم الذي هو أستاذ كل زمان القطب الغوث قدَّس الله سرَّه.

وإني لفي معزل إن شاء الله عن هذه المبالغة، والغلو والجرأة، وإني اعتقد أن الوهب الإلهي لا ينحصر في طائفة من الطوائف، ولا في طريقة من الطرائق على أنه سبحانه وتعالى لا حجر عليه، يهب ما شاء لمن شاء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

(١) رواه الديلمي في الفردوس (١٧٤/٢)، وأبو نعيم في الحلية (٨/١).

هذا مع أن فضل الأستاذ أبي الحسن الشاذلي قُدِّس سرُّه[١] وأتباعه السالكين على منهجه المتمسكين بالسنة السنية، والطريقة المحمدية، لم تزل حرمتهم في كل زمن محفوظة، وبأعين التعظيم ملحوظة، وقد جاء فرقة من المتصوفة بوجه آخر، فإن بعضهم جعل القطبية تارة أصالة، وتارة وكالة، تعطى لأناس بالأصالة، ولأناس عن أناس بالوكالة فهذا الوجه حالة كونه ليس بمقبول فكذلك غير معقول.

وقد كنت رأيت في كتاب: «الفيض الوارد» للعلاّمة الفاضل السيد محمود أفندي الألوسي المرحوم مفتي العراق عليه رحمة الخلاّق، ما نصّه:

قد ذكر الإمام الربَّاني مجدد الألف الثاني في مكتوباته[٢]، أن القطبية كانت لأئمة أهل البيت أصالة، وصارت من بعدهم وكالة حتى ظهر الشيخ عبد القادر الكيلاني قُدِّس سرُّه فأعطيها أصالة، حتى إذا ذهب إلى حظائر القدس أعطيها من جاء بعده وكأنه عنه، فكل الأقطاب من بعده نوابه، ووكلاؤه، ولا يزال الأمر كذلك حتى يظهر المهدي فيعطاها أصالة.

وفي قوله قُدِّس سرُّه:

غَـــربَت شُمُوس الأوَّلين وشَمسُنَا أَبــدًا عَلَـــى فُلــك العُلا لا تَغرُب

رمز إلى ذلك انتهى، فليحفظ انتهى.

فكنت أتعجب كيف سكت المرحوم المومأ إليه، مع غزارة علمه، وسعة اطلاعه، وحدة ذهنه، وقوة بارقة فهمه، واعتصابه كما يدرك من مؤلفاته للحق وأهله، وكيف لم

---

(١) هو سيدي عليّ بن عبد الجبار نزيل الإسكندرية، وشيخ الطائفة الشاذلية، كان ﷺ كبير المقدار، عالي المقام، صحب الشيخ نجم الدين الأصفهاني، وابن مشيش وغيرهما، وحجَّ مرات، ومات بصحراء عيذاب قاصد الحج، ودُفن هناك في ذي القعدة سنة ست وخمسين وستمائة، وقد ترجمه الشيخ تاج الدين بن عطاء في لطائف المنن بأنه قطب الزمان، والحامل في وقته لواء أهل العيان، حجة الصوفية، علم المهتدين، زين العارفين، أستاذ الأكابر، زمزم الأسرار، ومعدن الأنوار، القطب الغوث الجامع، أبو الحسن الشاذلي جاء في هذا الطريق بالعجب العجاب.

(٢) يعني كتاب المكتوبات للشيخ الفاروقي النقشبندي، طبع قديمًا وحديثًا في مجلدين.

يكتب على هذه المقولة الواهية شيئًا، ولا زالت تتلجلج هذه القصة أحيانًا في الخاطر، حتى وقفت له رحمه الله على تفسيره روح المعاني، الذي شيد به من محكمات الحكم الشرعية أرفع المباني، فرأيته كتب في الجزء السابع من تفسيره المذكور المبرور فيما كتبه على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] ما نصّه[١]:

والآية متضمنة الوعد منه ﷻ لأهل بيت نبيه ﷺ بأنهم إن ينتهوا عما ينبئ عنه، ويأتمروا بما يأمرهم به، يذهب عنهم لا محالة مبادئ ما يستهجن، ويحليهم أجل تحلية بما يستحسن، وفيه إيماء إلى قبول أعمالهم، وترتب الآثار الجميلة عليها قطعًا، ويكون هذا خصوصية لهم، ومزية على من عداهم، من حيث أن أولئك الأغيار إذا انتهوا وائتمروا لا يقطع لهم بحصول ذلك، ولذا نجد عباد أهل البيت أتم حالاً من سائر العباد المشاركين لهم العبادة الظاهرة، وأحسن أخلاقًا، وأزكى نفسًا، وإليهم تنتهي سلاسل الطرائق التي مبناها كما لا يخفى على سالكيها التخلية والتحلية اللتان هما جناحان للطيران إلى حظائر القدس، والوقوف على أوكار الأنس حتى ذهب قوم إلى أن القطب في كل عصر لا يكون إلا منهم.

خلافًا للأستاذ أبي العباس المرسي حيث ذهب، كما نقل عنه تلميذه التاج ابن عطاء الله إلى أنه قد يكون من غيرهم.

ورأيت في مكتوبات الإمام الفاروقي الربّاني مجدد الألف الثاني قُدّس سرُّه ما حاصله أن القطبية لم تكن على سبيل الأصالة إلا لأئمة أهل البيت المشهورين، ثم أنها صارت بعدهم لغيرهم على سبيل النيابة عنهم، حتى انتهت النوبة إلى السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني قُدّس سرُّه النوراني، فنال مرتبة القطبية على سبيل الأصالة، فلما عرج بروحه القدسية إلى أعلى عليين، نال من بعده تلك الرتبة سبيل النيابة عنه، فإذا جاء المهدي ينالها أصالة كما نالها غيره من الأئمة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين انتهى.

(١) انظر: روح المعاني (١٩/٢٢).

وهذا مما لا سبيل إلى معرفته والوقوف على حقيقته إلا بالكشف، وأنّى لي به.

والذي يغلب على ظني أن القطب قد يكون من غيرهم، لكن قطب الأقطاب لا يكون إلا منهم؛ لأنهم أزكى الناس أصلاً، وأوفرهم فضلاً.

وأن من ينال هذه الرتبة منهم لا ينالها إلا على سبيل الأصالة دون النيابة والوكالة، وأنا لا أعقل النيابة في ذلك المقام.

وإن عقلت قلت: كل قطب في كل عصر نائب عن نبينا عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأكمل السلام.

ولا بدع في نيابة الأقطاب بعده عنه ﷺ، كما نابت عنه الأنبياء قبله، فهو ﷺ الكامل المكمل للخليفة، والواسطة في الإفاضة عليهم على الحقيقة، وكل من تقدمه عصرًا من الأنبياء، وتأخر عنه من الأقطاب والأولياء نواب عنه ومستمدون منه.

وأقول: إن السيد الشيخ عبد القادر قُدّس سرُّه، وغمرنا بره قد نال ما نال من القطبية بواسطة جده ﷺ على أتم وجه وأكمل حال.

فقد كان ﷺ من أجلة أهل البيت حسنيًا من جهة الأب، حسنيًا من جهة الأم، لم يصبه نقص: لو أن وعسى وليت، ولا ينكر ذلك إلا زنديق أو رافضي ينكر صحبة الصديق، ورأى أن قوله ﷺ:

أفَلَـــت شُمُوس الأوَّلِين وشَمسُنا أبَـــدًا عَلى شَمسُ العُلا لا تَغرُبُ

لا يدل على أن من ينال القطبية بعده من أهل البيت الذين عنصرهم، وعنصره واحد نائب عنه ليس له فيض إلا منه، بل غاية ما يدل عليه، ويومئ إليه ظهور استمرار ظهور أمره، وانتشار صيته، وشهرة طريقته، وعموم فيضه لمن استفاض على الوجه المعروف عند أهله منه، وذلك مما لا يكاد ينكر، وأظهر من الشمس والقمر انتهى.

فرأيت أنه رحمه الله استعمل قلمه فجاجًا في هذا الباب يطوف طرق الرقائق، فيأتي بأوضح الحقائق، أو غواصًا يغوص بحور الحقائق فيستخرج ضرر الرقائق، على أنه التزم

جانب الأدب مع القوم الكرام، والآل العظام، فما أهمل مقدارهم، ولا استخف منارهم وذكر مال الشيخ قُدِّس سرُّه من المنـــزلة، وذكره بما يليق له، واستدل بكلماته المباركة على استمرار ظهور أمره، وطريقته، وصيته، وشهرته.

وغير خافٍ أن ما استدل به من كلمات الشيخ قُدِّس سرُّه وقع مثلها.

وأصرح منها من جماعة أجلاء من إخوانه الأولياء.

ومنهم من شهد لهم غيرهم بهذا الظهور كسيدنا المؤلف ﷺ، فإن جماعة من أعظم خواص الأولياء شهدوا له بدوام دولة الطريقة، واستمرار بركة الحقيقة في بيته وذريته إلى يوم القيامة بإذن الله.

ومن ذلك ما حكاه الإمام عبد الكريم الرافعي قُدِّس سرُّه(١) في كتابه «سواد العينين» بما نصَّه:

أخبرني شيخنا الإمام الحجة القدوة عمر أبو حفص شهاب الدين السهروردي(٢) عن

---

(١) هو شيخ الإسلام، إمام الدين، أحد شيخي المذهب قبل النووي، ترجع نسبته إلى سيدنا رافع ابن خـــديج الـــصحابي الجليل، له فتح العزيز شرح الوجيز، والتدوين، والمحرر، والتذنيب على الوجيز طبع لأول مرة بتحقيقنا. وانظر: طبقات السبكي (١١٩/٥)، وابن هداية (ص٢١٨).

(٢) هـــو الـــشيخ الجلـــيل السيد الحفيل أستاذ زمانه وفريد أوانه، مطلع الأنوار ومنبع الأسرار. دليل الطـــريقة، وتـــرجمان الحقـــيقة، أستاذ الشيوخ الأكابر، الجامع بين علمي الباطن والظاهر، قدوة العـــارفين، وعمـــدة الـــسالكين، العالم الرباني، المربي أبو حفص عمر ابن محمد البكري الصوفي الـــسهروردي، مـــصنف كـــتاب عوارف المعارف المشتمل على مكنونات المعارف، ومصونات المحاسن، واللطائف، وغير ذلك من التصانيف الحسنة الجامعة بين بداعة الملاحة، وبراعة الفصاحة، وحـــلاوة العبارة المشتملة على درر المعارف ومواقيت الحكم، وطلاوة الإشارة المحتوية على حياة القلوب، وشفائها من السقم، وعقيدته معروفة مشهورة موصوفة مشكورة، وكان إذا أشكل عليه شيء من أمرها منها، يرجع فيه إلى الله تعالى ويستخيره حول بيته ويتضرع إليه في التوفيق لإصابة الحق والتحقيق، وكان فقيهاً شافعي المذهب، كثير الاجتهاد في العبادة والرياضة.

تخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة، ولم يكن في آخر عمره مثله.

=

عمه الولي العارف شيخ الشيوخ أبي النجيب[1]، عن شيخه الإمام الهمام البحر الطام محمد ابن عبد البصري رضي الله عنهم.

قال: كل الأولياء أدركنا مقاماتهم وما وصلوا إليه، وعرفنا منتهاهم في السير إلا السيد أحمد الرفاعي، فإنه لا يعرف منتهاه في السير، وإنما رجال عصرنا على الإطلاق يعرفون الوجه التي اتجه إليها، ومن ادَّعى الوصول إلى مرتبته، والاطِّلاع على رتبته فكذبوه.

أي إخواني: هذا رجلٌ لا يعرف ولا يحد، هذا رجلٌ انسلخ من علائق بشريته وعوائق نفسه كانسلاخ الثوب عن البدن، والأولياء في عصرنا هذا كبارهم وصغارهم المشارقة والمغاربة الأعارب والأعاجم عيال عليه، يستمدون منه ويأخذون عنه، وهو شيخ الكل في الكل، يسِحُ النوال من حجرة جده ﷺ على قلبه، وهو يقسمه على الرجال في الأرضين، ولا ينقطع مدده بإذن الله.

والدولة له ولذريته إلى يوم القيامة مع طيب نفس المحب، ورغم أنف الحاسد، يفعل الله ما يشاء لا راد لأمره ولا منازع لحكمه.

وذكر الإمام الهمام البحر الطام سلطان المحدثين، ولي الله الشيخ عز الدين أحمد الفاروقي الواسطي قُدِّس سرُّه في النفحة المسكية ما نصَّه:

وبالسند الصحيح إلى شيخنا الشيخ منصور البطائحي الربَّاني ﷺ أنه رأى رسول الله ﷺ وهو يقول له: يا منصور أبشرك أن الله تعالى يعطي أختك بعد أربعين يومًا ولدًا يكون

=

وذكر بعضهم أنه صحب أيضاً قطب الأولياء وقدوة الأصفياء الشيخ عبد القادر الجيلي، ثم انحدر إلى البصرة إلى الشيخ أبي محمد بن عبد، ورأى غيره من المشهورين، وكان شيخ الشيوخ ببغداد، وكان له مجلس وعظ عليه قبول وله نفس مبارك. وانظر: روضة الحبور (ص١٧٧) بتحقيقنا.

(١) هو الشيخ الكبير، الولي الشهير، العارف الخبير، ذو المقامات العالية، والأحوال السنية، والأنفاس الصادقة، والكرامات الخارقة، والتصانيف المفيدة الوثيقة في الشريعة والحقيقة، ضياء الدين، ويلقب أيضاً بنجيب الدين أبو النجيب عبدالقاهر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله أبي جعفر المعروف بعَمويه البكري السهروردي. وانظر: روضة الحبور لابن الأطعاني (ص١٦٨) بتحقيقنا.

اسمه أحمد الرفاعي، مثلما أنا رأس الأنبياء كذلك هو رأس الأولياء، وحين يكبر فخذه إلى الشيخ علي القاري الواسطي، واعطه له كي يربيه؛ لأن ذلك الرجل عزيز عند الله، ولا تغفل عنه قال: فقلت له الأمر أمركم يا رسول الله عليك الصلاة والسلام.

وكان الأمر كما ذكر رسول الله ﷺ، وقد بشر به قبل ولادته بسنين أكابر الأولياء وانتظر ظهوره أماجد الأصفياء، وأمروا إخوانهم إذ رأوه، وصاروا في زمانه أن يعرفوا حق حرمته، وعظيم منـــزلته، وقالوا: إنه صاحب الوقت والزمان، والدولة له ولذريته إلى يوم القيامة. وقالوا: إنه متى ظهر يغلق أبواب الصالحين، ويصير الوقت له ولأهله.

وتحكمه وتصرفه يصل إلى مرتبة عظيمة، يضرب دماغه على جبهات الذراري في أصلاب الآباء، وسيسلك طريقًا لم يسلكها أحدٌ قبله ولا بعده، وهي: طريق الذل والانكسار، والمسكنة، والافتقار، والخضوع، والحيرة، ولم يكن في الطرق إلى الله أعظم وأصعب منها.

وممن بشَّر به بالأسانيد الصحيحة الثابتة: الشيخ الكبير تاج العارفين أبو الوفا[1]، والشيخ أحمد كنـــز العارفين الزاهد، والشيخ نصر الهماماني، والشيخ أحمد بن خميس،

(١) كان من أعيان مشايخ العراق في وقته، له الكرامات الخارقة، وقد انتهت إليه رئاسة هذا الشأن في زمانه، وتلمَّذ له خلقٌ لا يُحصون من العلماء والصلحاء، وكان له أربعون خادمًا من أرباب الأحوال، ولمَّا أخذ عليه شيخه الشنبكي العهد قال: وقع اليوم في شبكتي طائرٌ لم يقع مثله في شبكة شيخ.

وكان مشايخ البطائح يقولون: عجبنا لمن يذكر أبو الوفاء ولم يمس يده على وجهه، ويسمِّي الله تعالى، كيف لا يسقط لحم وجهه من هيبته؟!.

وكان الشيخ عبد القادر الكيلاني يقول: ليس على باب الحق كرديٌّ مثل أبي الوفاء.

وهو أول من سُمِّي بـــ(تاج العارفين) بالعراق ﷺ. انظر في ترجمته: طبقات الشعراني (١/١١٦)، والانتصار للأولياء الأخيار للكردي (ص٤٤٩)، والبهجة (ص٢٧٠) كلاهما بتحقيقنا.

والشيخ أبو بكر البخاري الأنصاري، والشيخ منصور الربّاني البطائحي[(١)]، وغيرهم.

والذين عددتهم لك من عرفتهم، غصت بفضائلهم الأوراق، وانتشر صيتهم في الآفاق رضي الله تعالى عنهم.

وقال جمٌّ من أهل الولاية بعلو مرتبته عن الغَوثية والسلطنة، وإن له عند الله منـــزلة لا يعرفها أحدٌ من رجال عصره، وإنه كان في حضرة الحبيب.

وقال القطب الربّاني الشيخ عبد القادر الجيلاني، والشيخ اليعقوبي[(٢)]، وغيرهم من

---

(١) قال صاحب المعزى: الشيخ الإمام أبو على منصور خال الشيخ أبي العباس الرفاعى، من أصحاب الشيخ أبي محمد الشنبكى، وبه تخرّج، وكان مصاحباً أيضاً للشيخ الرفاعى، وله مغربات وكرامات.

قال صاحب حرز الأتقياء: سئل عنه أبي العباس الرفاعى؟ قال: ذلك الوفى البرُّ فى صعوده ونزوله من السماء إلى الأرض، ومن الارض إلى السماء.

ويحكى عن الشيخ أبي على منصور أنه كانت والدته وهى حامل به دخلت على الشيخ الشنبكى فقام لها فاستعظم ذلك جلساءه فقال: ما قمت لها إنما قمت إجلالاً للجنين الذى فى بطنها يعنى أبا على هذا.

وقال صاحب الانتصار: كان مقامه الشّريف مدثورًا فرأته امرأة في المنام يأمرها باستخراج قبره الشّريف وتكرّرَت الرؤيا، فحدّثت المرأة أباها فحفر المكان، فظهر فيه قبر عليه صندوق وفيه مكتوب اسمه فوضع فوقه قبّة، وبني له مشهدًا ومسجدًا، وأرادوا أن يحفروا له بئرًا فرأته في المنام، فأخبرها بمحل بئره القديمة، فحفروا فظهرت لهم البئر، وبقي محلّه الشّريف مزارًا يقصده الكبار والصّغار، يتبرّكون به ويرون بركاته، وقد جرّب إلا من زاره وتوسّل إلى الله به في قضاء حاجته تقضى سريعًا ﷺ ونفعنا ببركاته آمين، هذا والله أعلم. وانظر في ترجمته: المعزى، وبهجة الأسرار (ص٢٦٥)، والانتصار للأولياء الأخيار (ص٥٦٥) بتحقيقنا.

(٢) هو أبو الحسن علي بن إدريس اليعقوبي، من أجلاء وأكابر مشايخ العراق، وأعيان العارفين المشهورين، وأئمة المحقيقين البارعين، له الطور البديع في الحقائق الزاهرة، والثناء الرفيع في المعارف الباهرة، وله اليد البيضاء في علوم الأحوال، والباع الرحيب في معالي الموارد.

=

رجال وقته في شأنه: إنه رجلٌ لا يعرف، ولا يحد، ولا يصل إلى مرتبته أحد.

وأما أخلاقه فقد وافقتها أعراقه، طاب أصلاً، وخلقًا، وحالاً، وخلقًا.

وكان خلقه السُّنة المحمدية، ومشربه الحالة النبوية لم يعهد، ولم يسمع في طبقات القوم من بعد الصحابة، وأئمة الآل رضي الله عنهم من أحد من الرجال أنه بلغ ما بلغه قدست أسراره من الصفاء، والزهد، والصدق، والتواضع، والانكسار، والحيرة، والافتقار، أتى بكل أخلاق أهل عصره، وعباداتهم، ولم يأتِ كلهم بكل أخلاقه، وعباداته.

وجاء بكل كراماتهم ومناقبهم، ولم يجئ كلهم بكل كراماته ومناقبه، فالحمد الله الذي مَنَّ علينا باتباعه، وجعلنا من أتباعه انتهى.

ومثل ذلك حكى الإمام الشعراني قُدِّس سرُّه في منته الكبرى، وعهوده، وكثير من كتبه، وصرَّح بمثل ذلك تحدثًا بنعمة الله تعالى سيدنا المؤلف ﷺ في كثير من كلماته اتباعًا للحبيب العظيم ﷺ، واقتداءً به فإنه قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**[1]».

وقال: «**أنا أعلمكم بالله وأتقاكم**[2]».

وقد أخبرنا الله تعالى عن نبيِّه يوسف عليه السلام أنه قال: ﴿**اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف:٥٥].

وشعيب عليه السلام قال: ﴿**سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الصافات:١٠٢].

وعلي رضي الله عنه قال: «**والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إنه عهد لي رسول الله ﷺ أنه لا**

=

وهو الذي قال: كشف لي عن الكائنات من البداية إلى النهاية، وحلت لي التراجم، وكل من لم تحل له التراجم فليس بشيخ.. وانظر: بهجة الأسرار للشطنوفي (ص٤٢٣) بتحقيقنا.

(١) رواه مسلم (١٧٨٢/٤).

(٢) رواه البخاري (١٩٤٩/٥)، والحاكم في المستدرك (٦٤٧/١) نحوه.

يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق، وإن بين جنبي لعلمًا جمًّا[١]».

فمن هذا المنوال ما قاله سيدنا المؤلف ﷺ في شأن نفسه النفيسة، منها ما نقله عنه جامع البرهان شيخ الإسلام شرف الدين أبو طالب، ابن الإمام عبد السميع الهاشمي العباسي الواسطي قُدِّست أسرارهم، وهو:

أي سادة. ما تركت طريقًا صعبًا، ولا مسلكًا غصًّا إلا كشفت قناعه، ورفعت بأكف عساكر الهمة ستره المسدول وشراعه، ودخلت على الله من كل باب فرأيت على الكل ازدحامًا عظيمًا، فجئته من باب الذل والانكسار فرأيته خاليًا، فوصلت وحصلت مطلوبي، والطلاب على الأبواب أعطاني ربي من فضله ومواهبه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر من أهل هذا العصر وعدني رسول كرمه أن يأخذ بيد مريدي، ومحبي، من تمسك بي وبذريتي وخلفائي في مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة عند انقطاع الحيل، بهذا جرت بيعة الروح لا يخلف الله وعده.

ومنها: ما ذكره صاحب الترياق الحافظ تقي الدين الواسطي قُدِّس سرُّه أن الشيخ يعقوب بن كراز قُدِّس سرُّه قال لسيدنا السيد أحمد المُشار إليه، صب الله سجال فضله ورحمته عليه.

أي سيدي: مثلك مثل العروس على المنصة، فهي ما زالت قائمة لا يزال ينادى عليها والطبل يضرب، والمدعيات يأتين، فإذا نزل العروس سكت المنادي، وانقطعت المدعيات فقال: لا أي يعقوب ما يزال المنادي ينادي، والعروس على المنصة، والطبل يضرب والمدعيات يأتينا، فلا العروس تنـــزل، ولا المنادي يسكت، ولا المدعيات ينقطعن إلى يوم القيامة، وبها جرت البيعة، ولن يخلف الله وعده وهو أعلم وأحكم.

ونقل عنه صاحب الترياق أيضًا أنه قال: دولتي باقية إلى يوم القيامة بإذن الله تعالى ويؤيد ذلك أدلّة كثيرة، وبراهين وفيرة، أحسن الله بها إليه، ومنَّ الله بها عليه، يضيق لها

---

(١) رواه مسلم (٨٦/١)، والنسائي (٤٧/٥).

دفتر الاستقصاء، ويكل لها قلم الإحصاء منها: أن مرقده الشريف اختار الله تعالى له أن يكون في بر أقفر، داخلاً في حكم القبور الدوائر التي هي خير القبور.

كما أنبأتنا بذلك الأخبار، ورواقه المبارك مغيبًا عن الأبصار، ومع ذلك فقد ملأت بفضل الله أسراره الأقطار، وهيبة كراماته المستمرة أترع بها الأفئدة والأسرار، وانتشرت طريقته المباركة بتداول الإعصار في جميع الأقطار، والأمصار انتشار أشعة الشمس ظهر النهار.

ومنها: إن الله أيّد طريقته لعلماء الأولياء، وأولياء العلماء، والرجال الذين ثبتت لهم القطبية، وعمت شهرتهم في البرية.

ومنها: إن الله تعالى صان عوام أهل طريقته فضلاً عن خواصها من الدعوى، والشطح، والغرور، والتعزز في الطريق، واحتقار الخلق، والترفع عليهم، وطهّرهم الله من القول بالوحدة المطلقة، وأمثال ذلك من العقائد الفاسدة، والكلمات الواهية الباطلة.

ومنها: إن جعل أكثر خدمة طريقته ومحبيه الفقراء والضعفاء، كما وقع لجده سيد الأنبياء ﷺ وعلى آله وأصحابه الأئمة الأتقياء.

ومنها: إن حفظ الله سبحانه وتعالى أساس طريقته من الأحوال الناقصة التي تنقص حال كمل أتباعه، وتذهب حال ناقصهم كما هو مقرر بين القوم، وقد التزم أتباعه في كل زمان على الغالب الحدود، ووقفوا عندها، وتردوا برداء الانكسار، والافتقار إلى الله تعالى والتواضع، والشفقة على خلق الله تعالى تخلقًا بخلقه ﷺ، وتأسيًا برسول الله ﷺ، فإذًا بركة استمرار الظهور التي أشار إليه العلاّمة الآلوسي في تفسيره، حاصلة على سيدنا السيد أحمد ﷺ، وظاهرة في طريقته، واتباعه بالبراهين الواضحة أكثر من ظهورها في غيرهم، وما بقي إلا القول بأن فضل الله تعالى لا يحجر عليه، له التصرف المطلق في ملكه سبحانه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويفتح لمن يحبه بمحض فضله وعنايته أبواب السلوك، ويلحق بنظره من عين رحمته العبد المملوك بمراتب الملوك والأولياء رضي الله عنهم، كلهم عبيده الداخلون في سلك أحبابه، الفائزون بمنه اقترابه على أقدام الأنبياء الكرام، لا نفرق

بين أحد منهم، ولا نغلو فيهم، ونحبهم لله، ونقول رضي الله عنهم، ولنرجع للمقصود فقد طال البحث ونقول: قد ظهر لك من نص الحكمة الأحمدية إن المشيخة عبارة عن التمسك بالسنة، فالزم لعمرك هذا الباب تفتح لك بإذن الله جميع الأبواب.

* * *

الحكمة السابعة والثلاثون

ثم قال المؤلف ﷺ:

[الطَّرِيقَةُ الشَّرِيعَةُ لَوثُ هَذِهِ الخرقة كذاب، قَالَ الباطِنُ غَيْرَ الظَّاهِرِ، العَارِفُ يَقُولُ: البَاطِنُ بَاطِنُ الظَّاهِرِ وجَوْهَرهُ الخَالِص]

أراد بذلك أن الباطن نتيجة الظاهر، ولذلك لم يفرق ﷺ بين الطريقة والشريعة فقال: الطريقة الشريعة؛ إذ لولا الشريعة لما عرفت الطريقة.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فعلى هذا لا يحب شرط محبة الله إلا بمحبة رسول الله، ولا يتم هذا الشأن إلا بطاعته ﷺ، واتباع ما جاء به لقوله ﷻ: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ولهذا السر الواضح قال المؤلف ﷺ: (لوث هذه الخرقة كذاب): أي دنس خرقة القوم مختلق افترى على طريقهم فسمَّاه باطنًا، وجعله غير ظاهر الشرع، ثم قابل قول الكذاب المختلق بقول العارف المحقق، فقال: العارف يقول الباطن باطن الظاهر: أي سره الذي نتج منه بشاهد قول النبي ﷺ: «**علم الباطن سر من أسرار الله ﷻ وحكم من حكم الله يقذفه في قلوب من يشاء من عباده**[1]».

وهذا السر الذي عناه الحبيب المعظم ﷺ مشروط حصوله بالعمل لقوله ﷺ: «من

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٣/٤٢)، وذكره المناوي في فيض القدير (٤/٣٢٦).

عمل بما يعلم ورَّثه الله علم ما لم يعلم[1])).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وليعلم أن الله سبحانه وتعالى يختص بفضله عبادًا من عباده، فيجتذبهم سابق رحمته إليه من دون سابقة علم ولا عمل، فيدخلهم محض الاختصاص في سلك المحبوبين، وحينئذٍ يقومون بواجب العبودية بكمال الأخلاق، والاهتمام بالأوامر الشرعية المرضية، وإلا فلا تصح القربة للعبد الآبق أبدًا.

ومن هنا قال سيدنا المؤلف: إن الباطن باطن الظاهر وجوهره الخالص: أي المحض الذي لم يشب جوهره بعرض من أعراض المبدعات، والمحدثات أبدًا، إنما هو جوهر من جوهر قبل، لمضمره باطن ولمرئيه ظاهر، وهو في الحقيقة واحد ولا شك في ذلك لمسلم أبدًا، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٥].

***

الحكمة الثامنة والثلاثون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[الْقُرْآنُ بَحْرُ الحِكَمِ كُلِهَا، ولَكِن أَيْنَ الأُذُنُ الوَاعِيَةُ]

أراد بقوله بحر الحكم: أي الحقائق الجامعة لخيري الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

ولما كان القرآن العظيم أعظم بحور الحكم الإلهية أنزله الله على أعظم أنبيائه تشريفًا بقبره ﷺ، وجعله أعظم معجزة له ﷺ؛ لأن المعجزات التي وقعت وانقضت يمكن أن يجحدها الجاحد الحاسد، وإن ينكرها جهلاً وطيشًا المشرك المعاند.

وأما معجزة القرآن العظيم الشأن فهي هي بحمد الله موجودة حاضرة، وبين أيدي

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/١٥).

الخلق متداولة ظاهرة تردع أهل الزيغ والفساد، وتقمع أرباب الجحود والعناد، على أن القرآن العظيم جعله الله تعالى معجزًا بعشر سور، ثم جعله معجزًا عليه بسورة، وقد تحدى ﷺ بسورة منه فبهت لها فصحاء العرب وعجزوا على أن يأتوا بمثل سورة الكوثر، التي هي أقصر السور؛ لأن فصاحة القرآن، ووجوه بلاغته، وشريف نظمه، وجميل مزاياه، ونكاته كلها خوارق، لا طاقة لمخلوق على الإتيان بشيء منها، وقد انطوى هذا الكتاب الكريم، والكلام القديم على عظائم المعجزات، والإخبار بالمغيبات، وأتى بكل حكمة لابد منها ولا غنى عنها.

ولذلك أرشدنا المؤلف ﷺ إلى منــزلته، ودلّنا على شريف مكانته فقال: القرآن بحر الحكم كلها عند من يفهم ويعي ويدرك ما قررناه من عظم شأن القرآن، ولهذا اتبع ما قال بقوله: ولكن أين الأذن الواعية: أي التي إذا سمعت كلام الله وعت، وفهمت بعض ما انطوى فيه من الحكم الربّانية، والإرشادات الصمدانية.

ويؤيد هذه الحكمة قول النبي ﷺ: «**القرآن غني لا فقر بعده ولا غنى دونه**[1]».

وقوله ﷺ: «القرآن هو النورُ المبين، والذّكرُ الحكيم، والصّراط المستقيم[2]» وفي هذا إبلاغ لمن وفّقه الله تعالى.

***

الحكمة التاسعة والثلاثون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[رَنَّةُ النَّجَاحِ تُسْمَعُ عِنْدَ قُرْبِ بَابِ الرِّضَا مِنَ اللهِ، ارْضَ عَنِ اللهِ وَنَمْ مَرْضِيًا وَلَكَ الأَمْنُ]

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٢/٥٢٩)، والطبراني في الكبير (١/٢٥٥)، والقضاعي في المسند الشهاب (١/١٨٦).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٢/٣٢٦)، وذكره المناوي في فيض القدير (٤/٥٣٦).

لا يخفى أن القوم أكثروا الأقوال في ذكر الرِّضا، فمنهم من قال: الرضا حال، ومنهم من قال: مكتسب، ولهم فيه أبحاث.

وقالوا: هو ألا يعترض العبد على مقادير سيده.

وقالوا: الرِّضا: سكون القلب تحت مجاري الأحكام وتنـزلات الأقدار، وهذا سر قول النبي ﷺ في دعائه السالك الرِّضا بعد القضاء؛ لأن الرِّضا بعد القضاء هو الرِّضا الأكمل.

ولذلك قال سيدنا المؤلف ﷺ: (رنة النجاح): أي نغمة صوت البشر الغيبية بنجاح حال العبد بعد صدمة القضاء، تسمع وتظهر حالة قرعه باب الرضى من الله سبحانه وتعالى ولهذا السر قال سيدنا المؤلف ﷺ معلمًا ومرشدًا: ارض عن الله، وتم مرضيًا، ولك الأمن بعد الرضا من دهشة وارد القضاء.

فإن العبد إذا لزم الرِّضا من سيده مع ضعفه وعجزه ومسكنته واحتقاره، فلا بدَّ أن يقابله العظيم القادر الكريم البر الرحيم بما يناسب أوصاف ربوبيته، وشأن ألوهيته من الكرم، والرحمة، والفضل، والعناية، ويجعله في ساحة إحسانه معزَّزًا مكينًا محتفلاً أمينًا.

***

الحكمة الأربعون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[مَا شَمَّ رَائِحَةَ المعْرِفَةِ مَنْ افْتَخَرَ بِأَبِيهِ، وأُمِّهِ، وخَالِهِ، وعَمِّهِ، ومَالِهِ، ورِجَالِهِ، لَيْسَ عِنْدَ اللهِ عَلَى شَيءٍ مَنْ رَأَى نَفْسَهُ، لَوْ عَبَدَ اللهَ العَابِدُ بِعِبَادَةِ الثَّقَلَين وفِيْهِ ذَرَّةٌ مِن الكبْرِ فَهُو مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ وأَعْدَاءِ رَسُولِه ﷺ]

جمعت هذه الكلمات المباركة النهي عن التفاخر بالأنساب، والمال، والرجال، والعجب، والكبر، استنادًا لقول رسول الله ﷺ: «**ثلاثة من الجاهلية: الفخر في**

الأحساب، والطعن في الأنساب، والنياحة[١]».

وقوله ﷺ: «لا يدخل الجنة مَنْ في قلبه مثقال ذرة من كبر[٢]».

وعنه ﷺ أنه قال: «قال الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحد منهما قذفته في النّار ولا أُبالي[٣]».

وقال ﷺ: «ثلاث مهلكات: شحٌّ مُطاعٌ، وهوًى متبعٌ، وإعجابُ المرء بنفسه[٤]».

فإذا طبق العاقل حكم الحضرة الأحمدية على هذه النصوص الشريفة النبوية، أدرك ما في العجب، والتفاخر، والكبر من الخطر، ووقف عند حد عبديته بما يناسب عجز البشر.

* * *

الحكمة الواحدة والأربعون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[ثَلاَثُ خِصَالٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ لاَ يَكُونُ وَلِيًّا إِلاَّ إِذَا طَهَّرَهُ اللهُ مِنهُنَّ: الحمقُ، والعَجَبُ، والبُخلُ]

ولا يخفى أن الحمق نتيجته سوء الخلق، والنبي ﷺ قال: «حسن الملكة يمن وسوء الخلق شؤم، والعجب هو استعظام الرجل عمل نفسه[٥]».

والنبي ﷺ يقول: «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٦/٢٣٩)، وذكره المناوي في فيض القدير (٣/٣٢١).
(٢) رواه مسلم (١/٩٣)، والترمذي (٤/٣٦١)، وأحمد في المسند (١/٤١٦).
(٣) رواه أحمد في مسنده (٢/٤١٤)، والبيهقي في الشعب (٦/٢٨١).
(٤) رواه الديلمي في الفردوس (٢/٨٨)، والبيهقي في الشعب (١/٤٧١).
(٥) ذكره المناوي في فيض القدير (٣/٣٨٦).

العجب[1]» كررها ﷺ مرتين.

والبخل: وهو الحرص والشح والتهالك على حطام الدنيا.

والنبي ﷺ يقول: «**السخاء شجرة في الجنة فمن كان سخيًا أخذ بغصن منها حتى يدخله الجنة، والشُّح شجرة في النار فمن كان شحيحًا أخذ بغصن منها حتى يدخله النار**[2]».

وقال ﷺ: «**السخي قريب من الله تعالى قريب من الناس قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله تعالى بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار، وجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل**[3]».

فتدبر هذه الأخبار الصادقة يظهر لك ما قاله سيدنا المؤلف نفعنا الله بعلومه، من أن الأحمق، والمعجب بنفسه، والبخيل لا يكون وليًا؛ لأن الولي لما كان من أحباب الله يأبى الله أن يخلقه بخلق يكرهه، ألا ترى سيدنا المؤلف ﷺ مع ما كان عليه من حسن الخلق والتواضع كيف كان أجود من المطر تخلقًا بخلق جده سيد البدو والحضر ﷺ.

فقد روى الإمام الشعراني[4] في منته ما حاصله:

إن حلقة سيدنا السيد أحمد الرفاعي المشار إليه ﷺ من إخوانه لورده ومجلس ذكره

---

(١) رواه القضاعي في الشهاب (٢/٣٢١)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٣٥٨).

(٢) رواه ابن عدي في الكامل (١/٢٣٥).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) هو القطب الرباني سيدي عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن محمد بن زوفا بن الشيخ موسى، ولد على أصح الروايات وأشهرها في ٢٧ رمضان عام ٨٩٨ هـ ببلدة قلقشندة وهي قرية جده لأمه، ثم انتقل بعد أربعين يومًا من ولادته إلى قرية أبيه ساقية أبي شعرة وإليها انتسب، وعُرف بهذا اللقب واشتهر به وإن كان هو قد سمَّى نفسه في بعض مؤلفاته بالشعراوي، وجال قلم الشعراني في كل أفق من آفاق المعرفة العلمية والذوقية، فكتب في الأصلين، وفي التصوف والتوحيد والفقه والأصول والتفسير والحديث والتاريخ والمناقب واللغة والنحو والطب وغيرها.
وانظر: مناقبه للمليجي (طبع دارة الكرز).

كل يوم كانت ستة عشر ألفًا، وكان يمد لهم السماط صباحًا ومساءً.

وقال صاحب الترياق: كان السيد أحمد الرفاعي ﷺ على جانب عظيم من سخاء النفس، وكرم الطبع، وما أشبهه بجده ﷺ فإنه كان يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة، ثقة بالله واعتمادًا عليه، وفيه أقول آخذًا معنى ابن رشيق في بيته المشهورين:

أعَــز رِوَايَــات المكَــارِم حُجَّــة وأصــدَقُهَا قِيلاً بِأحسَن مُسنَد

حَديــثٌ رَوَاه السَّيل عَن خَير وَابِلٍ عَن البَحر عَن كَف الرِّفاعِي أحمد

***

الحكمة الثانية والأربعون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[أَكْذَبُ النَّاسِ عَلَى اللهِ وَالخَلْقِ مَنْ رَأَى نَفْسَه خَيْرًا مِن الخَلْقِ، كُلُّ الظلمِ التَّعَالِي عَلَى النَّاسِ، الظلْمُ: حِرْصُ الرَّجُلِ عَلَى المَرَاتبِ الكاذِبَة الدُّنْيَوِيَّة، وَمِنهَا أَنْ يُحب الارْتِفَاع عَلَى أَخِيهِ بِكَلِمَةٍ، أَوْ جَلْسَةٍ لاَ حَق لَهُ بِهَا، وَعَلَى ذَلِكَ تُقَاسُ المَرَاتِب]

أرشدنا المؤلف قُدِّس سرُّه وغمرنا بره أن إعجاب المرء بنفسه كذبٌ على الله والخلق وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١] فكأنه أسند إلى الربوبية ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى﴾ [الحج: ٨]، أعلاه على غيره من الخلق الذين ربما كانوا عند الله كلهم أحسن منه، وأقرب منـــزلة، وأدنى مكانة، فبرؤيته نفسه خيرًا من الخلق افترى الكذب على الله والخلق، بل وعلى نفسه.

ولهذا اتبع سيدنا المؤلف قوله المذكور بقوله: (كل الظلم التعالي على الناس).

ثم صرَّح بأن الظلم هو حرص الرجل على المراتب الكاذبة، وأن يحب الارتفاع على أخيه بكلمة أو جلسة لا حق له بها، وما أحسن هذا المعنى؛ لأن الحرص على المراتب الكاذبة وحب الترفع على الناس يأخذ بصاحبه إلى المناهج الذميمة، وربما يقوده غرضه

للكذب والفساد، وإلقاء الفتن بين العباد، وإعطاء من لا يستحق، ومنع من يستحق، وجرح الأعراض بسهام الأغراض، وغير ذلك مما لا يكاد يحصر من الخصال القبيحة حمانا الله والمسلمين.

* * *

الحكمة الثالثة والأربعون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[مَنْ أَخَذَ النَّاسَ بِقُوَّتِهِ القَاهِرَةِ تَرَكَ فِي قُلُوْبِهِمْ الضَّغَائِنَ عَلَيْهِ كَيْفَمَا كَانَ، ومَنْ أَخَذَ النَّاسَ بِانْكِسَارِهِ تَرَكَ فِي قُلُوْبِهِمْ الاعْتِرَاف لَهُ عزَّ أَوْ هَانَ، نِعْمَ الرَّفِيْق فِي بِلَادِ تَقْوَى اللهِ، ونِعْمَ المرَاح والإِخْلَاص]

أشار سيدنا المؤلف ﷺ بهذه الحكمة للرفق وعدم القهر؛ لأن الرفق حكمة تصلح بها القلوب، والجفاء والغلظة من أسوء الخصال المنفرة للطباع، ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ: «الرفق رأس الحكمة[1]».

وقوله ﷺ: «الرفق به الزيادة والبركة، ومن يحرم الرفق يحرم الخير[2]».

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد أوضحت الحكمة الأحمدية مضمون هذه الآية الجليلة القرآنية، والأحاديث الشريفة النبوية، ألا تراها كيف صرَّحت أن من علا على الناس وتغلب عليهم بما أفاضته القدرة إليه من القوة القاهرة، ولم يراع حق الله في عباده، لا بدَّ أن تبقى القدرة الربَّانية كمينًا في قلوب الخلق يوشك أن تفعل سهام الكمين المذكور بتأثيرات القلوب في ذلك

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٢/٢٨٠)، والقضاعي في الشهاب (١/٦٤).

(٢) رواه البيهقي في الكبرى (١٠/١٩٣)، وابن حبان (٢/٣٠٨) بنحوه.

الرجل من أي صنفٍ، ومن أي طائفة كان ما لا تفعله البيض والسمر، ولله الخلق والأمر.

ومن وفّقه الله فتردى برداء الانكسار لله، وعامل الخلق بالرفق لا بدَّ أن يسخِّر الله له القلوب، فينقاد الناس إليه لسانًا وجنانًا، عزيزًا كان ذلك الرجل أو هيِّنًا وإلزاقًا بهذا الشأن وإبعادًا عن العزة.

قال سيدنا المؤلف ﷺ: نعم الرفيق في بلاد الله تقوى الله، ونعم المراح الذي يستريح القلب والبدن به الإخلاص.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

وقال ﷺ لرجل قال له أوصني: «عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير[1]».

وحسن ما قاله ابن الوردي لاميته:

واتَّقِ اللهَ فتقوى اللهِ ما ... جاورتْ قلبَ امرئٍ إلاَّ وصَل
ليس من يقطع طُرقًا بَطَلا ... إنَّما من يتَّقي اللهَ البطَل

وقال سيدنا الأستاذ أبو المعالي السيد سراج الدين الرفاعي البغدادي قدّس سرُّه:

لَيسَ الشُّجاع الذي يَحمِي فَرِيستَهُ ... يَوم القِتَال ونَار الحَرب تَشتَعِلُ
لَكِن مَن كَفَّ طَرفًا أو ثَنى قَدمًا ... عَن الحَرَام فَذَاكَ الفَارِسُ البَطَلُ

وقد ظهر للعاقل أن أحسن ما يستريح القلب والبدن به الإخلاص وهو: تصفية العمل لله عن ملاحظة المخلوقين، ومن علاماته: نسيان رؤية الأعمال وهو سرٌّ من أسرار الله يستودعه قلب من أحبه من عباده، كما أشار إلى ذلك حديث جبريل ، وهذا ميزان

---

(١) رواه الطبراني في الصغير (٢/١٥٦)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٣٤١).

النجاح لمن أراد به الله الخير والفلاح.

***

الحكمة الرابعة والأربعون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[لَنْ يَصِلَ العَبْدُ إِلَى مَرْتَبَةِ أَهْلِ الكَمَالِ وفِيهِ بَقِيَّةٌ مِنْ حُرُوفِ أَنَا، الشَّطَّاحُ يَقِفُ مَعَ شَطْحِهِ حَالَةَ الشَّطْحِ إِذَا لَمْ يسقطْ، والكَامِلُ لاَ يَشْتَغِلُ عَنْ خِدْمَتِهِ، الدَّعْوَى بَقِيَّةُ رعونَةٍ فِي النَّفْسِ لاَ يَحْتَمِلهَا القَلْبُ فَيَنْطِقُ بِهَا لِسَانُ الأَحْمَق]

شرط المؤلف ﷺ وصول مرتبة الكمال بالانخلاع عن الأنانية البتة، وبيَّن أن من بقيت فيه بقية من آثارها لا يصل إلى مرتبة الكمال؛ لأن مرتبة الكمال التخلي عن الأوصاف الذميمة، والتحلي بالأوصاف الكريمة.

والأنانية إنما هي وصف إبليس لعنه الله، قال في شأن آدم عليه السلام: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:١٢] فأعقبه قول هذه الكلمة خزيًا وطردًا ولعنًا، والعياذ بالله.

فإذًا تعين على سالك طريق الرب أن يتبرأ من وصف إبليس، وأن يتمسك بذيل صاحب الخلق النفيس ﷺ، ولينظر كيف قال سيدنا المؤلف أمدنا الله بمدده الشطاح: أي المتجاوز.

وقال قومٌ معنى الشطح، وصاحبه: أي الشطَّاح الذي يقف عن الترقيات والمجاهدات، والأعمال الموجبة لإعلاء المراتب والدرجات، مع شطحه وتجاوزه منحطًا عن المراتب الرفيعة حالة الشطح، هذا إذا لم يسقط بصدمة شطحه عن مرتبته بالكلية؛ لأن الشطح من أعظم مزالق الإقدام؛ لأن صاحبه ربما ينصرف عنه انطماسه وذهوله، ووارد غيبته، يعود إلى الصحو، ويبقى على لسانه الأول متكلمًا في حضرة خيالية فيسقط، ويبعد ويلحق

بأهل الأنانية، حفظنا الله والمسلمين[1].

ولذلك أعقب سيدنا المؤلف قولهُ هذا بقولِهِ: والكامل: أي المتمكن في مقامه لا يشتغل عن خدمته لربه بشيء من حوادث الأكوان، وينــزه صدق عبديته عن كذب الدعوى؛ لأن الدعوى من بقايا أوساخ النفس تجتمع على القلب، فيضيق لها فيقذفها إلى ساحة اللسان، فيتلقاها لسان الرجل الأحمق كتلقي الوارد، فينطق بها بينة تشهد عليه بالنقصان أعظم من هذا فافهم.

***

الحكمة الخامسة والأربعون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[التَّحَدُّثُ بِالنعمَةِ ذِكْرُ القَرِيْبَة، والتَّخَلُّصُ مِنْ تَجَاوُزِ مَرْتَبَةِ العُبُدِيَّة، العَارِفُ لاَ يَنظُرُ إِلَى الدُّنْيَا ولاَ إِلَى الآخِرَة، كُلُّ الكَمَالِ تَرْكُ الأَغْيَارِ وطَرْحُ الاسْتِبْشَارِ بحَوَادِثِ الأكْوَانِ، والذُّلُّ بِكَسْوَةِ الفَنَاءِ بَيْنَ يَدَي الحَيِ الَّذي لاَ يَمُوْت]

نقل الإمام عبد الكريم الرافعي في كتابه: «سواد العينين» أن سيدنا المؤلف ﷺ قال في كتابه طريق السائرين إلى الله ما نصَّه:

الولي الجامع لا يرى بعد تمكنه في مقام النهاية فرقًا لنفسه على غيره مع شهوده، نعمة الله فيه أخذًا لسبيل نبيه ﷺ الذي سلكه بأمر ربه لما قال له تعالى في القرآن: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] فسقطت الفرقة النوعية بالمثلية الآدمية، وشوهدت النعمة القدوسية بذكرها المجمل.

والـــذي أراه أن الـــولي الجامع الكامل مع انحجابه عن رؤية الفرقية، وتحققه بشهوده

---

(١) انظر في تعريف الشطح والمشطاح: اللمع للطوسي (ص٣٠٨، ٣٤٦)، واصطلاحات الصوفية للشيخ الأكبر (ص٣)، وشرح الشطحيات للشيخ روزبهان البقلي.

النعمة يتأدب أن يذكرها، بل يعترف بها ويقوم بشكرها للمنعم تعالى، إلا إذا جهل أهل مصره، أو أهل عصره قدر نعمة الله عليه، فخاف عليهم الوقوع في ورطة من آذى لي وليًا فقد حاربني فهنالك يتحدث بالنعمة مراعيًا هذه الحكمة، صارفًا وجهه القلب عن الزهو، والعجب والعلو على الأمثال، مقتبسًا من أشعة نور الهدي المحمدي، منطمسًا في نفسه لا تحركه زعازع النخوة، ولا تمسه عواصف الأكوان، ويتساوى عنده المدح، والذم، والذل، والعـــز والفقر، والغنى، علمًا بأن البقاء المحض والقدرة النافذة لله تعالى وحده والعبد عدم محض عجز ضعف، وخلق الإنسان ضعيفًا، وتسليمًا للحاكم الأمر الفاعل المطلق الذي لا قيد يمنع نوافذ أحكامه، وأوامره، وأفعاله إن ربك على كل شيء قدير انتهى.

وقد أوضحت هذه المقولة المباركة ما انطوى في نصّ كلمات الحكم من المعاني، و لم يبقَ إلا معنى قوله ﷺ العارف: (لا ينظر إلى الدنيا ولا إلى الآخرة)، فإن هذا المعنى المبارك مقصد الخاص من العباد المتمكنين، الذين تأنف نفوسهم عن الدنيا ونعيمها، اشتغالاً بربهم جلّ وعلا، ولا يطمعون في الجنة، ولا يخافون من النار، بل يعبدون الله ويضرعون إليه؛ طمعًا بمشاهدة وجهه الكريم في الدار الآخرة، وخوفًا من القطيعة والهجر.

وهذا سر قول الشارع الكريم عليه أفضل الصلوات والتسليم: «**الدُّنيا حرامٌ على أهل الآخرة، والآخرة حرامٌ على أهل الدنيا، والدنيا والآخرة حرام على أهل الله**[1]».

فمن هذا ظهر أن أهل الكمال خلفهم ترك الأغيار، والترفع عن الاستبشار بحوادث الأكوان، والخضوع على بساط الفنا عن النفس، والخلق بالذل للحق الحي السرمدي الأبدي الديمومي، فإنه سبحانه الصمد الذي لا يتحول، والباقي الذي عليه دون غيره المعوّل.

الحكمة السادسة والأربعون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[لاَ تَجْعَلْ رِوَاقَ شَيْخِكَ حرمًا، وقَبْرَهُ صَنَمًا، وحَالَهُ دَفَّة الكُدْيَة، الرَّجُلُ مَنْ يَفْتَخِرُ

---

(١) تقدم تخريجه.

بِهِ شَيْخُهُ، لاَ مَنْ يَفْتَخِرُ بِشَيْخِهِ]

أشار ﷺ بقوله: (لا تجعل رواق شيخك حرامًا) إلى قول النبي ﷺ: «**لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى**[1]».

فكأنه يقول قُدِّس سرُّه: لا تحث الناس على شد الرحال إلى رواق شيخك، كأنك تجعله حرمًا رابعًا يجب شد الرحال إليه، فإن هذا من الغلو حمانا الله.

وكأنه بقوله له: (وقبره صنمًا) يشير إلى قول النبي ﷺ: «**لا تتخذوا قبري وثنًا يعبد بعدي**[2]».

وقوله ﷺ: «**من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد إلا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك**[3]».

أمر الشارع الكريم ﷺ بالتوحيد المحض، ونهى عن الزيغ والشرك، وحذر الأمة من اتخاذ قبور الصالحين أوثانًا تُعبد وتُقصد؛ لأن ذلك مما يهدم الدين والعياذ بالله؛ لأن الجهلة الذين لا يفرقون بين الحق والباطل يظنون بل يعتقدون أن هذا المخلوق المدفون في هذا القبر، المزين، المحتفل، المحتشم يصل ويقطع، ويفرق، ويجمع، ويعطي، ويمنع، وهذا الاعتقاد والعياذ بالله من الضلال، والشرك بمكان.

فلذلك نبَّه سيدنا المؤلف ﷺ إخوانه المسلمين وحذرهم الوقوع في هذا الخطر العظيم، ونبَّه السالك ألا يجعل حال شيخه الذي كان عليه دفة الكد والاكتساب، وشبكة الصيد للدنيا.

وأتبعها بقوله: (الرجل من يفخر به شيخه): أي بصدقه، وقناعته، وزهده، وتوكله على الله، وصفا سريرته، وحسن التجائه إلى الله سبحانه وتعالى، وكمال متابعته لنبيه ﷺ، (لا من يفتخر بشيخه) وهو مجرد من جميع الأوصاف الكريمة، مشتملٌ على الأخلاق

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٢/١٥٠).

(٢) ذكره ابن عبد البر في التمهيد (٥/٤٣).

(٣) رواه مسلم (١/٣٧٧)، والطبراني في الكبير (٢/١٦٨).

الذميمة، فإن مثل ذلك الرجل لا ريب بعدم دخوله في إعداد الرجال الخالصين، وأنَّى يكون له وحضرة الحق لا يدخلها إلا أهل الحق.

❁ تنبيه:

قال ﷺ: «**إذا ظهرت البدع وآمن آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فلينشره فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل الله على محمد**[1]».

رواه ابن عساكر عن معاذ رضي الله تعالى عنهما.

وغير خافٍ أن طريق الصوفية أدخل فيه أهل الزيغ والبدع، وأصحاب الجهل والعناد شبهًا كثيرة، وجعلوه مشوبًا بالمحدثات، والمفاسد، وأرادوا تحريفه عن أصله حتى كثر سالكوه من هؤلاء الرعاع، وقلَّ طارقوه من أهل الحقيقة المبرئين من الابتداع، وكثرت الخرافات والأباطيل، والترهات المصوغة من أكذب الروايات والأقاويل، وتحجج بإسنادها إلى الصالحين جماعة من الكذابين، فأتوا مع جهلهم بما يستهجن من أساطير الأولين.

فجماعة منهم رفعوا لواء الكفر والزندقة، وتجرءوا على الله بالقول والوحدة المطلقة.

وجماعة نشروا راية الإشراك وتبرقعوا برداء الإرجاف عن غير إدراك، واتخذوا تعظيم رؤساء طريقهم شبكة لصيد المآرب والمقاصد، وأدخلوا عليهم وعلى طريقهم بما عزوه أسوء المفاسد.

فترى منهم من يعطي لشيخ طريقته أوصاف الربوبية، ويأتي على ذلك بأدلة يهزؤ بها كل عاقل في البرية، وإذا نصحتهم بما أتت به السُّنة والقرآن قابلوك بحكايات كحكايات العجائز، ما أنزل الله بها من سلطان، وإذا قلت قال الله تعالى، وقال رسوله الصادق العدناني. قالوا: نعم، ولكن قال كذلك الشيخ البنبائي والهمداني.

فحينئذٍ وجب على كل من تشرف بخرقة العلم والطريقة، وانتسب إلى القوم أهل الحقيقة علىِ الحقيقة، أن يجاهد في الله حق جهاده بهداية الضالين، ورد الشاردين، وستر الطريقة السمحاء من فضائح أهل القبائح، واستعمال لسان الغيرة لتبرئة أعراض السلف

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٨٠/٥٤)، وذكره المناوي في فيض القدير (٤٠١/١).

الصالح، فإنهم درجوا على التمسك بالسُّنة والكتاب، ووصلوا إلى الله ببركته الشريعة الغراء من دون شك ولا ارتياب، وقد قام قوم لهدم منارهم بدعوى أنهم من أنصارهم، فلذلك تعين عليَّ من انتسب إليهم أن يغار لهم بتنـــزيه جانبهم مما حمله أهل البدع والجهل عليهم.

طَـرِيقُ القَـومِ واضِحَةُ السَّبِيل ... مُؤَسَّـسةُ عَلـى الـنَّهج الجَمِيل

رَوَاهَـا العَارِفُـون بِـلا نِـزَاع ... عَـن المُختَـار بِالـسَّنَد الجَلِـيل

فَمَـن زَاد الطـريق الحَق حَرفًا ... يَـرد وقَـد يُطَالَـب بِالدَلِـيل

فَخَـل الجَـاهِلِين رَدع آذاهـم ... ومَـا انـتَحَلوهُ مِن قَالٍ وقِيل

ولازِم أثـر أهـل الله تَـنجُو ... إِذَا فَـرَّ الخَلِـيل مِـن الخَلِـيل

***

الحكمة السابعة والأربعون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[مَنْ صَمَّ سَمَاعَهُ عَنْ أَصْوَاتِ الأَغْيَارِ سَمِعَ نِدَاء: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦] فَنَــزَلَ عَنْ فَرَسِ كذبِهِ، وعَجَبِهِ، وأَنَانِيَّتِهِ، وحَوْلِهِ، وقُوَّتِهِ، ووِحْدَتِهِ، والقَهَرَ فِي مَقَامِ عُبُوْدِيَّتِه.

إِيَّاكَ والقَوْل بِالوِحْدَة الَّتِي خَاضَ بِهَا بَعْضُ المُتَصَوِّفَة، إِيَّاكَ والشَّطْح، فَإِنَّ الحِجَاب بِالذنُوبِ أَوْلَى مِنْ الحِجَابِ بِالكفْرِ، ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَطِيْرُ فِي الهَوَاءِ فَلاَ تَعْتَبِرهُ حَتَّى تَزِن أَقْوَالَهُ وأَفْعَالَهُ بِمِيْزَانِ الشَّرْعِ، إِيَّاكَ والإِنْكَار عَلَى الطَّائِفَةِ فِي كُلِّ قَوْلٍ وفِعْلٍ، سَلِّمْ لَهُمْ أَحْوَالهمْ إِلاَّ إِذَا رَدَّهَا الشَّرْعُ فَكُنْ مَعَهُ]

أشار ﷺ إلى أن من صمَّ سماع قلبه عن الالتفات إلى مظاهر أصوات الأغيار الفانية

سمع بإذن روحه، وفهم بواعية سره قبل الانتقال إلى الدار الآخرة نداء ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦] فنـــزل لفهم هذا النداء الحق عن مطية نفسه المزينة المسومة بآلة كذبه وعجبه وأنانيته، وحوله المحاط بالعدم، وقوته المستغرقة في العجز، ووحدته الشاهدة عليه بالفرق، وانقهر لفهم هذا السر في مقام عبوديته، وضعفه، وعجزه، وفنائه، واتصف بحقيقته وانسلخ عن تجاوزه.

ثم اتبع ما قال بقوله: (إياك والقول بالوحدة): أي المطلقة التي خاض وغرق بها بعض المتصوفة المبعدين عن صف الصوفية.

(إيَّاك والشطح): أي التجاوز والتبجح فإن الحجاب الحائل بالذنوب عن حضرة القرب أولى من الحجاب القاطع عن الله بالكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] ولا ريب.

فالقول بالوحدة المطلقة شركٌ بحت، لا تأويل له، والشطح بالتكلف من شهود حضرة خيالية جرأة على الله، وفيه أيضًا ما فيه من تجاوز الحدود الشرعية، وهتك أستارها المرعية، وتحقير من أعزه الله، وإعزاز من لا خلاق له عند الله، والمشاركة بأوصاف الربوبية كدعوى الإعطاء، والمنع، والوصل، والقطع، والإعلاء، والوضع، والوهب، والسلب، وأمثال ذلك من الأوصاف المخصوصة بالله، أو بمن أذن له الرحمن وارتضاه جلت قدرته.

فعلـــى هـــذه الميزان إذا رأيت الرجل يطير في الهواء، أو يتربع على الماء فلا تعتبره أو تدخلـــه في إعداد الصالحين، حتى تزن أقواله وأفعاله بميزان الشرع، فإن وافقه قولاً وفعلاً فحاله مقبول وممدوح، وإن خالفه فمردود ومقبح.

وإيَّاك والإنكار على الطائفة الصوفية الخالصة في كل قول وفعل لمجرد كونهم صوفية، فـــإن ذلـــك من الحسد والعناد، بل سلم لهم أحوالهم الذين هم عليها، إلا إذا ردها نص صـــريح مـــن نصوص الشرع فكن معه، ورد ما رده الشرع متجردًا من غرضك، وغاية نفسك، وهذا قول أهل الحق ومذهب كل محق.

***

الحكمة الثامنة والأربعون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[إِلَيْكُمْ بِالحَقَائِقِ قَبْلُ هَجْرِ الخَلاَئِقِ مِنْ شَهَوَاتِ النفُوسِ]

يشير إلى أن التفكه بكلمات أهل الحقائق تقليدًا من غير تحقيق، قبل هجر الخلائق، والتخلص من جميع العوائق والعلائق، وصحة التجرد إلى الخالق بالعزم الخالص والقلب الصادق إنما هو شهوة من شهوات النفوس لا دخل بطريق الحق أبدًا.

* * *

الحكمة التاسعة والأربعون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[مَنْ عَدلَ عَنْ الحَقِّ إِلَى البَاطِلِ تَبْعًا هَوَى نَفْسه فَهُوَ مِنْ الضَّلاَلِ بمكان]

لا يخفى أن الحق ما جاء به رسول الله ﷺ، وما خالفه ضلال وبطلان، والله تعالى قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، والنبي ﷺ يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به(١)».

فعلى هذا من عدل عن طريقه الكريم، وصراطه المستقيم إلى شهوات نفسه الدنيَّة تبعًا لهواها فهو على الضلالة، «وكل ضلالة في النار(٢)» كما أخبرنا بذلك النبي المختار.

* * *

الحكمة الخمسون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[أَوَّلُ أَبْـوَابِ المَعْرِفَةِ الاسْتِئْنَاسُ بِاللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، والزُّهْدُ أَوَّلُ قَدَمِ القَاصِدِيْن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخرجه.

إِلَى اللهِ ﷻ]

يشير إلى أن أول أبواب المعرفة بالله الاستئناس بذكره سبحانه وتعالى، وعبادته والوحشة من كل قاطع يقطع عنه سبحانه وتعالى، تحققًا بقوله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه[١]».

ثم اتبع ما قاله: (والزهد أول قدم القاصدين إلى الله ﷻ)، وهو سر قول النبي ﷺ: «الزهادة في الدُّنيا ليست بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا ألا تكون بما في يديك أوثق منك بما في يد الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها أبقيت لك[٢]».

فهذا الزهد أول قدم يضعه القاصد في طريق الله تعالى إلى الله، وهو الباب الموصل إلى الحضرة العلية كما شهد بذلك الواصلون إلى الحضرات القدسية.

الحكمة الواحدة والخمسون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[مَنْ مَاتَ مُحِبًّا مَاتَ شَهِيدًا، وَمَنْ عَاشَ مُخْلِصًا عَاشَ سَعِيدًا، وكِلاَ الأَمْرَيْنِ بِتَوْفِيْقِ اللهِ تَعَالَى، مَنْ سَلَكَ الطَّرِيْقَ بِنَفْسِه أُعِيْدَ قَسرًا، هَذه الطَّرِيْقَةُ لاَ تُورثُ عَنْ الأَبِّ والجَدِّ، إِنَّمَا هِي طَرِيْقَةُ العَمَلِ، والجَدُّ والوُقُوْفُ عِنْدَ الحَدِّ، وذَرْ الدُّمُوعَ عَلَى الخَدِّ، والأَدَبُ مَعَ اللهِ تَعَالَى، ظَنَّ بَعْضُ الجَهَلَة أَنَّ هَذه الطَّرِيْقَة تُنَالُ بالقِيْلِ والقَالِ، والدِّرْهَمِ والمَالِ، وظَوَاهِرِ الأَعْمَالِ، لاَ واللهِ إِنَّمَا نَيْلُهَا بِالصِّدْقِ، والانْكِسَارِ، والذُّلِّ، والافْتِقَارِ، واتِّبَاعِ سُنَّة النَّبِي المُخْتَار، وهَجْرِ الأَغْيَار]

أنبأت كلمات المؤلف ﷺ عن أسرار محمدية عجيبة المآل، جيدة المنوال؛ لأنه أشار بقوله: (من مات محبًّا مات شهيدًا) إلى قول النبي ﷺ: «من عشق فكتم، وعف فمات فهو شهيد[٣]».

---

(١) رواه البخاري (٢٣٨٦/٥)، ومسلم (٢٠٦٧/٤)، وابن حبان (٢٧٨/٧).

(٢) رواه الترمذي (٥٧١/٤)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٨٦/١٠).

(٣) ذكره المناوي في فيض القدير (١٨٠/٦).

هذا إذا تعلق عشقه وحبه بالأغيار، وخاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى له، وهو من الشهداء بصريح حديث سيد الأنبياء، فكيف بمن مات محبًا لله ملتفتًا عن غيره أفناه العشق الإلهي، فاضمحل حاله، وآل إلى الموت مآله، فإن مثل ذلك المحب بمرتبة الشهادة أولى من غيره بلا ريب.

وقول سيدنا المؤلف: (من عاش مخلصًا عاش سعيدًا) يشير إلى قول النبي ﷺ: «**من أخلص لله أربعين يومًا يصير سببًا بإذن الله لتفجر ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**[1]».

والله تعالى يقول: ﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة:٢٦٩].

والخير الكثير لا بدَّ وأن تكون من جملته السعادة، فمن استغرق أوقات عمره بالإخلاص لله تثبت له السعادة بإذن الله، وكلا الأمرين: أي محبة الله والإخلاص لله لا يتم للعبد إلا بتوفيق الله تعالى، فلأجل ذلك أوجب القوم العارفون صحة الاستناد إلى الله، والتجرد من الاعتماد على الأعمال على كل من طلاب الحق.

ويؤيد ذلك قول المؤلف طاب مرقده: من سلك الطريق بنفسه معجبًا بها معتمدًا على عمله، منحرفًا عن الطريق الذي سنَّهُ النبي ﷺ أُعيد إلى مقام جهله قسرًا، على أن هذا الحبيب المعظم ﷺ باب الله، الذي من لم يقصده منه سُدَّت عليه الطرق والأبواب، ورُدَّ بعصى الأدب إلى اصطبل الدواب.

وتأكيدًا لهذا المعنى، وتأكيدًا لهذا المبنى قال صاحب الحكم ﷺ: هذه الطريقة لا تُورث عن الأب والجد؛ لأنها جوهرية وخالص عمل، وليست بمال ولا عرض إنما هي طريقة العمل.

والجد والوقوف عند الحد الذي حده النبي المؤيد ﷺ: «**وذر الدموع خيفة من الله على الخد**[2]».

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لم أقف عليه.

والأدب معه سبحانه وتعالى بكل حال من الأحوال، وبكل فعل من الأفعال، نعم ظن بعض الجهلة أن هذه الطريقة المسنونة، والجادة المباركة الميمونة، تُنال بالقيل والقال، والحكايات، والأمثال، والدرهم والمال، وطقطقة النعال، وظواهر الأعمال المشوبة بالرياء في الأفعال، لا والله إنما نيلها بالصدق والانكسار إلى الملك الجبار، والذل والافتقار بين يدي مقدر الأقدار، واتباع سنة النبي المختار ﷺ التي هي طريق النجاة والسعادة في هذه الدار، وفي تلك الدار وهجر الأغيار القاطعين عن الله في الأحوال، والأقوال، وهجر الأغيار القاطعين لا يتم إلا إذا تمكنت خشية الله في قلب العبد، فإنها متى تمكنت في القلب تنتج كل خير بشاهد قوله ﷺ: «**خشية الله رأس كل حكمة والورع سيد العمل**[1]».

الحكمة الثانية والخمسون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[مَنْ اعْتَزَّ بِذِي العِزِّ عُزَّ، ومَنْ اعْتَزَّ بِغَيْرِهِ وَقَفَ مَعَهُ بِلاَ عِزّ]

الاعتزاز بالله لا يكون إلا عند عبد صحّت محبته لله، فإن محبة الله تمحو آثار الأغيار من القلب، ومتى انمحت الأغيار من القلب سقطت هيبة الغيرية منه، فلا يعتز محب الله بغيره ولا يخشى غيره.

ومن المعلوم أن صدق المحبة كمال الاشتغال بالمحبوب، والانحراف عن غيره بالكلية والصبر على غصص المحبة وتحمُّل أثقالها.

وحسن ما قاله الجنيد ﷺ حين سُئل عن المحبَّة فقال: من ذهب عن نفسه واتصل بذكر ربه، وقام بأداء حقوقه، ونظر إليه بقلبه فأحرقت قلبه أنوار هيبته وصفًا في مناجاته شرب من كأس حبه، وكشف له المحبوب أستار غيبه، فهو محب إن تكلم فبالله، وإن نطق فمن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله تعالى.

وقال الجنيد ﷺ أيضًا: رفع السَّري السَّقطي ﷺ إليَّ رفعة وقال: هذه خير من

---

(١) رواه القضاعي في الشهاب (١/٥٩)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/٥٠٧).

سبعمائة قصة وحديث وإذا فيها:

وَلَمَّــا أدعيت أحب قَالَت كَذبْتنِي ... فَمَا لي أرى الأعضاء مِنك كَوَاسيا
فَلا حُب حَتى يلصق القَلبُ بالحَشَا ... وَتَــذبَل حَــتى لا تُجِــيب المُنَاديا
وتَفحــل حَتى لا يَبقى لَكَ الهَوى ... سِــوَى مُقلَــة تَبكِي بِهَا وتُنَاجِيَا

ومن المعلوم أن من كانت هذه صفته انصرفت إلى الله وجهته، وانقطعت عن الأغيار بالكلية كليته، وتمَّ بالله تعالى عزه ونصرته، وهذا سر قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

وقال ﷺ: «من عاذ بالله فقد عاذ بمعاذ(١)».

وهذا ما أراده المؤلف ﷺ بقوله: (من اعتز بذي العز عُز).

وأما قوله: (من اعتز بغيره وقف معه بلا عزٍّ) فإنه مأخوذٌ من قول رسول الله ﷺ: «من اعتزَّ بالعبيد أذلَّه الله(٢)». وهذا أوضح ما يُقال وأشرف ما يذكر وبه الكفاية.

الحكمة الثالثة والخمسون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[كِتَابُ الله آيَةٌ جَامعَةٌ انْدَرجَتْ فيْهَا الآيَاتُ الرَّبَّانِيَّاتُ، مَنْ أنْعَمَ اللهُ عَلَيْه بِفهْمِ بَوَاطِنِ كِتَابه، والْتزَامِ ظَاهِرِ الشَّرْعِ فَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ الغَنِيْمَتَيْن، ومَنْ أخَذَ بِرَأْيِهِ ضَلَّ وانْقَطَعَ عَنْ البَاطِنِ والظَّاهِرِ]

أشار بذلك إلى قول النبي ﷺ: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله، وسنتي، ولن يفترقا حتى يردا على الحوض(٣)».

---

(١) رواه أحمد (٩٦/١)، وابن سعد في الطبقات (١٤٦/٤)، وذكره المنذري في الترغيب (١١٢/٣).
(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٧٤/٢)، والقضاعي في الشهاب (٢٢٧/١).
(٣) رواه البيهقي في الكبرى (١١٤/١٠)، والدار قطني (٢٤٥/٤).

وقال سيدنا المؤلف في كتابه «البرهان»: إيَّاكم ومحدثات الأمور، قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**(١)».

عاملوا الله بالتقوى، وعاملوا الخلق بالصدق وحسن الخلق، وعاملوا أنفسكم بالمخالفة وقفوا عند الحدود، وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم، وما أتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا.

إيَّاكم والكذب على الله والخلق، فإن الدعوى كذب على الله وخلقه، وكل العبودية معرفة مقام العبدية.

والدين عمل بالأوامر واجتناب عن النواهي، وخضوع وانكسار في الأمرين، والعمل بالأوامر يقرب إلى الله، والاجتناب عن النواهي خوف من الله، وطلب القرب بلا أعمال محال، وأي محال، والخوف مع الجرأة فضيحة، اعبدوا الله بمتابعة رسوله ﷺ.

إيَّاكم وسلوك طريق الله بالنفس والهوى، فمن سلك الطريق بنفسه ضلَّ في أول قدم.

أي سادة.. عظموا شأن نبيكم، هو البرزخ الوسط الفارق بين الخلق والحق، عبد الله حبيب الله، رسول الله، أكمل خلق الله، أفضل رسل الله، الدال على الله، الدَّاعي إلى الله، المخبر عن الله، الآخذ من الله باب الكل إلى الحضيرة الرحمانية، وسيلة الكل.

إلى الحضيرة الصمدانية، من اتصل به اتصل، ومن انفصل عنه انفصل.

قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**(٢)».

أي سادة.. اعلموا أن نبوة نبينا ﷺ باقية بعد وفاته كبقائها حال حياته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وجميع الخلق مخاطبون بشريعته الناسخة لجميع الشرائع، ومعجزته باقية وهي: القرآن قال تعالى: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**﴾ [الإسراء:٨٨].

---

(١) رواه مسلم (١٣٤٣/٣)، وابن حبان (٢٠٧/١)، والبيهقي في الكبرى (١٥٠/١٠).

(٢) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١٢/١)، وذكره المناوي في فيض القدير (٢٩٥/٥).

أي سادة.. من ردَّ أخباره الصادقة كمن رد كلام الله تعالى، آمنا بالله، وبكتاب الله، وبكل ما جاء به نبينا ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [النساء:١١٥] انتهى(١).

وقلت فيما يناسب هذه الحكمة المباركة ارتجالاً:

كتابُ الله للإسلامِ نورٌ ... بِهِ الْدَرَجَت جميعُ المعجزاتِ
أتى بجَليلِ برهانٍ جَلِيٍّ ... وآياتٍ صراحٍ بَيِّناتِ
بَوَاطِنهُ طَوَت كُل المعَانِي ... وظَاهِره طَريقٌ للنجاةِ
فَمَن أحياهُ بَاطِنهُ بنورٍ ... وظَاهِرهُ بعنوانِ الثَّباتِ
فَقَد رَبحَت تِجارتهُ بحق ... وأسعد في الحياةِ وفي المماتِ
وَمَن قَطعتهُ أيْدِي الغَي عنه ... تَقَطَّع بالمواضي المرهفاتِ
فَخذهُ لِكُل مَكرمةٍ طَرِيق ... تَفُز بِالبَاقِيَاتِ الصَّالحاتِ

***

الحكمة الرابعة والخمسون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[ذِكْرُ الله جُنَّةٌ مِنْ كُلِّ نَازِلَةٍ سَمَاوِيَّةٍ، وحَادِثَةٍ أَرْضِيَّةٍ. أَجَلْ إِنَّ الذَّاكِرَ جَلِيْسُ الحَقِّ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَأَدَّبَ مَعَ المذْكُورِ؛ لِكَي لاَ يُقْطَعُ عَنَ المجَالَسَةِ الَّتِي هِيَ بَرَكَةُ القَبُولِ والطَّهَارَةُ مِنْ الْغَفْلَةِ]

نبَّه أن الذِّكر بمنـزلة الحصن من النوازل السماوية، والحوادث الأرضية، وأيَّد ذلك بقوله: (إن الذاكر جليس الحق)، ولا ريب أن من كان جليس الحق كان في أمان الله من النوازل والحادثات.

---

(١) انظر: البرهان المؤيد (ص٢٣).

وقد جاء في الخبر أن الله تعالى يقول: «**أنا جليس من ذكرني**[١]».

وورد أيضًا أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ: إن الله تعالى يقول: «**أعطيت أمتك ما لم أعطه أمة من الأمم، فقال: وما ذاك يا جبريل؟.**

قال: قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢]، **ولم يقل هذا لغير هذه الأمة**[٢]».

وفي معنى المجالسة ورد أن موسى عليه السلام قال: «**يا رب أين تسكن؟ قال: في قلب عبدي المؤمن**[٣]».

ومعناه: سكون الذِّكر في القلب، وإلا فالرب جلَّت عظمته، وعلت قدرته منــزَّهٌ عن المسكن والمكان، فإذا من كان جليس الحق وجب عليه.

كما قال سيدنا المؤلف: إن يتأدب معه سبحانه وتعالى بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وصحة الاستناد إليه، وكمال الاعتماد عليه؛ لكي لا يقطع عن المجالسة التي هي عبارة عن بركة القبول بالإقبال على الحق، والطهارة من الغفلة التي هي الاشتغال بالخلق، وكل الإفلاس الاستئناس بالناس.

وقد قال العارفون: الذِّكر منشور الولاية، فمن وُفق للذكر فقد أُعطي المنشور، ومن سُلب الذِّكر فقد عُزل.

وقال أبو علي الدقاق قُدِّس سرُّه: ذكر الله سيف المريد يقاتل به الأعداء، ويدفع به الآفات والبلاء، وإن العبد إذا أفزع بقلبه إلى الله ﷻ يدفع عنه في الحال ما يكرهه، وهذا سر ما جاء في نص الحكمة المباركة الأحمدية.

***

(١) رواه البيهقي في الشعب (١/٤٥١)، وأبو نعيم في الحلية (٨/٢١٧).
(٢) لم أقف عليه هكذا. وفي معناه ذكر المناوي في فيض القدير (٢/٤٩٦)، حديث: «ما وسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن» وهو صحيح كشفًا.
(٣) ذكره ابن رجب في جامع العلوم (١/٣٩٨) بنحوه.

الحكمة الخامسة والخمسون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[كُلُّ لِسَانٍ يَتَكَلَّمُ مُتَرْجِمًا عَنْ حَضْرَةِ القَلْبِ يُظْهِرُ بِضَاعَتِهَا وَيَفْتَحُ خِزَانَتِهَا، فَمَنْ طَهُرَتْ حَضْرَةُ قَلْبِه طَابَ لِسَانُهُ وعَزُبَ بَيَانُهُ، فَإِنْ اعْتَبَرَ بِالفَتْحِ السَّيَّالِ عَلَى لِسَانِه، واعْتَنَى بِتَطْهِيرِ حَضْرَةِ القَلْبِ ازْدَادَ عِرْفَانُهُ وبُرْهَانُهُ، ومَنْ اكْتَفَى بِحَظِّ اللِّسَانِ بَقِيَ مَعَ الأَقْوَالِ قَصِيرُ البَاعِ عَنْ تَنَاوُلِ ثَمَرَاتِ الأَفْعَالِ]

أوضح ﷺ أن مفتاح خزانة القلب وترجمان حضرتها اللسان، فإن طاب وعزب فقد دلّ على ما أضمرته زاوية القلب، وإن خبث وساء فقد برز نتيجة ما في القلب.

على أن سر المرء يظهر من فلتات لسانه كما قيل:

إنَّ الكــلامَ لَفــي الفؤاد وإنَّمَا   جُعِــل اللّسَان على الفؤادِ دَليلاً

ألا ترى كيف قال رسول الله ﷺ: «**ليس المؤمن بالطّعان، ولا اللعّان، ولا الفاحش، ولا البذيء**[١]».

فقد اعتبر أوصاف الضمير بهفوات اللسان، ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «**ليس الخلف أن يعد الرجل ومن نيته أن يفي، ولكن الخلف أن يعد الرجل ومن نيته ألا يفي**[٢]».

وقوله ﷺ من حديث: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**[٣]».

فعلى هذا ترتب ما ترتب على اللسان؛ بسبب اغترافه من حضيرة القلب، فإن كان المغترف صاحب قلب طاهر، واعتبر حالة اغترافه من ساحة قلبه الطاهرة بالفتح، ومطر الحكمة السيال من سماء قلبه الجاري على لسانه، وأيقظه الاعتبار فأحسن الانتباه، واعتنى بتطهير حضرة القلب فوق ما هي عليه ازداد عرفانه بربه، وعلا برهانه على حالة نطقه.

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٠/٤)، والحاكم في المستدرك (٥٧/١)، والبيهقي في الكبرى (١٩٣/١٠).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٣٥٨/٥).

(٣) رواه البخاري (٢٨/١)، ومسلم (١٢١٩/٣)، والبيهقي في الكبرى (٢٦٤/٥).

ومن اكتفى بحظ اللسان وحسن البيان، فغفل وأهمل القلب بقي مع سبك الأقوال وحسن الألفاظ محجوبًا عن مقامات أهل الكمال، قصير الباع قاصر الهمة عن تناول ثمرات الأفعال التي تدخله في إعداد أعيان الرجال.

وقد قال سيدنا المؤلف ﷺ في كتابه «البرهان»[1]:

دخل عليّ كرَّم الله وجهه ﷺ مسجد رسول الله ﷺ فرأى أعرابيًا في المسجد يقول: إلهي أريد منك شويهة، ورأى أبا بكر الصديق ﷺ في زاوية أخرى يقول: إلهي أريدك. فشتان بين المرادين! شتان ما بين الهمتين! تلعب الآمال بالعقول، تلعب بالهمم، كلٌ يطير بجناح همته إلى أمله، ومقصد قلبه، فإذا بلغ غاية همته وقف فلم يجاوزها.

قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء:٨٤]: أي على نيته وهمته.

أي أخي.. لا تجعل غاية همتك ومنتهى قصدك أن تمر على الماء، أو تطير في الهواء يصنع الطير والحوت ما أردت، طر بجناح همتك إلى ما لا غاية له انتهى.

وقلت مفردًا:

لــيسَ اللسان برافعٍ لكَ منبرًا   إلا لَــم يُــصان بِهِمةٍ وشمائلٌ

***

الحكمة السادسة والخمسون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[رَوْحُ جِسْمِ المَعْرِفَةِ الانْتِبَاهُ الدَّائِمُ، والسرُّ السَّلِيْمُ، والْقَلْبُ الرَّحِيْمُ، والْقَدَمُ الثَّابِتُ]

بيَّن سيدنا المؤلف ﷺ أن معرفة العبد بربه كالجسم، ولكن بمجرد المعرفة به سبحانه وتعالى على ما عليه العامة من الإيمان بوجوده، والاعتراف بنوافذ أقداره، لا يكون كافيًا في مقام المعرفة الكاملة؛ لتجرد ذلك الجسم من الروح التي تدبر أعضاءه، وتقوم بحركاته

---

(١) انظره فيه: (ص٥٢).

وسكناته.

وقد جعل المؤلف روح جسم المعرفة مركبة من الانتباه الدائم، وهو دوام التفكر بآلاء الله، والتبري من الغفلة عن الله، والسر السليم أيضًا، وهو سلامة النية في الأعمال من شوائب الرياء، والالتفات إلى الأغيار، والقلب الرحيم وهو القلب الذي أتحفه الله تعالى بالرحمة للخلق والشفقة عليهم.

والقدم الثابت: وهو الإيمان الصادق الذي لا يشوبه الريب فيما أنزل الله على رسوله ﷺ.

فعلى هذا من اجتمعت فيه هذه الخصال فقد أتحف الله جسم معرفته بروح قدسية تلحقه بالقوم العارفين بالله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ولا يخفى أن الانتباه الدائم إنما يحصل من الخشية من الله تعالى، والخوف منه سبحانه، وقد صحَّ أن رسول الله ﷺ كان يقول في بعض أدعيته المباركة: «**اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك**[(١)]» إلى آخر ما قاله في دعائه المبارك.

وأما السر السليم فهو اليقين الذي تهون به مصائب الدنيا، وقد سأله رسول الله ﷺ في دعائه من ربه، وأما القلب الرحيم الخاشع الأواه وهو الذي أشار إليه النبي ﷺ حيث قال: «**اللهم إنا نسألك قلوبًا أوَّاهة مخبتة منيبة في سبيلك**[(٢)]».

واستعاذ من عكسه ﷺ، فقال في بعض أدعيته الشريفة: «**اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع، وقلبٍ لا يخشع**[(٣)]».

ولما كان الخشوع من أشرف الخصال الناتجة المقربة إلى الله تعالى سأله رسول الله ﷺ من ربه، واستعاذ من فقدانه، وعرفنا عزة قدره فقال ﷺ: «**أول شيء يُرفع من هذه الأمة الخشوع حتى لا ترى فيها خاشعًا**[(٤)]».

---

(١) رواه الترمذي (٥/٥٢٨)، والنسائي (٦/١٠٦).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (١/٧١٦).

(٣) رواه مسلم (٤/٢٠٨٨)، وأحمد (٣/٢٨٣)، والحاكم في المستدرك (١/١٨٥).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٥/١٢٤)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (١/٢٠٤).

فإذا نظام روح المعرفة الانتباه، وسلامة السر، ورحمة القلب، وثبوت القدم في طريق الله على ما يرضى الله، وبعد المعرفة بالله، فالطريق إليه سبحانه وتعالى سهل، والوصول إليه جلّت قدرته بتوفيقه هيّن، والمحجة البيضاء شريعة حبيبه سيد الأنبياء ﷺ واضحة السبيل لا ضلال بعدها أبدًا.

***

الحكمة السابعة والخمسون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[مِنْ الحِكْمَةِ أَنْ تُودِعِ المعْرُوفَ أَهْله، ومِنْ الصِّدْق أَلاَّ تَمْنَعَهُ غَيْرَ أَهْله، وثَمْرَةُ الصَّنِيْعَيْنِ مِنْ اللهِ تَعَالَى، إِذَا أَوْدَعْتَ مَعْرُوفًا فَلاَ تَنْكرهُ فَإِنَّهُ ثَقِيْلٌ عِنْدَ الله، مَا أفلحَ مَنْ دَسَّ، وَلاَ عَزَّ مَنْ ظَلَمَ، وَلاَ يَتِمُّ حَالٌ لِبَاغٍ، وَلاَ يُخذَلُ عَبْدٌ رَضِيَ بِالله وَكِيْلاً وَنَصِيْرًا. مُشَكِّكٌ لاَ يَفْلَحُ، ودَسَّاسٌ لاَ يَصِلُ، وَبَخِيْلٌ لاَ يسودُ، وحَسُودٌ لاَ يُنْصَرُ، وَكَلْبُ الدُّنْيَا لاَ يَسْتَوْلِي عَلَى لَحْمِ جِيْفَتِهَا، وَالله مُحَوِّلُ الأحْوَال، غَارَةُ الله تقصِمُ، وتقهِرُ، وتُدَمِّرُ، وتَفْعَلُ، وتقلب حال مملكة كسروية لكسر قلب عبد مؤمن انتصر بالله]

أراد سيدنا المؤلف ﷺ بقوله: (من الحكمة أن تودع المعروف أهله): أي من الحكمة العقلية أن يطمئن إليها الطبع، وتسكن لها النفس.

إيداع المعروف أهل الاستحقاق الذين يعرفون قدره، ويقومون بواجبات شكره.

وأراد بقوله: (ومن الصدق ألا تمنعه غير أهله): أي ومن الصدق مع الله سبحانه وتعالى أن تودع المعروف عباد الله المستحق منهم وغير المستحق، لا لجزاء ولا لشكر، بل لله جلّت قدرته، وأن تطلب ثمرة الصنيعين اللذين هما إيداع المعروف عند المستحق وغيره من الله تعالى، ويناسب هذا المعنى قول القائل:

يَـــد المَعروفِ غنمٌ حيثُ كَانت   تَحْمِلُهَـــا كفـــورٌ أم شـــكورُ
فَفِـــي شُـــكرِ الشَّكور لها جزاء   وعِـــندَ الله مَـــا كفـــر الكفـــورُ

وألزم سيدنا المؤلف بالاعتراف بالمعروف فقال: (إذا أودعت معروفًا فلا تكفره)، هذا

إن كان المعروف كثيرًا أو قليلاً.

وكفر المعروف: تغطيته وستره وكتمانه، وسر هذه الحكمة مأخوذ من قوله ﷺ: «من أودع معروفًا فلينشره، فإن نشره فقد شكره وإن كتمه فقد كفره[١]».

وروى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس[٢]» وما أحسن قول القائل:

فَلَو كَانَ يُستغْنِي عَن الشُّكر ماجدٌ ... لعـزَّةِ ملـك أو عُلـوِّ مَكَـانِ
لمـا أمَـرَ الله العبـادَ بِـشُكْرِهِ ... فَقَـالَ اشْـكُرُوا لِي أيُّها الثَّقلَانِ

وقال قدّس سرُّه: ما أفلح من دسَّ الدس من التدسيس وهو: إخفاء الشيء في الشيء.

وبيَّن ﷺ أن استعمال الدسيسة المضرة للناس، المذمومة في الدين قاطعة لأسباب الفلاح، وموجبة للخيبة والعياذ بالله.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا•وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:٩، ١٠]: أي قد أفلح من زكى نفسه بأن طهَّرها من الذنوب بفعل الطاعة ومجانبة المعصية، وقد خاب من دسَّاها: أي من دسَّ نفسه من الفجور، أو دسَّ نفسه في الصالحين وليس منهم، أو اشتغل بالمعاصي ودسَّ أفعاله وأخفاها عن الناس؛ ليظهر لهم صلاح حاله حياء منهم، مع عدم الحياء من الله سبحانه وتعالى.

وقال: (ولا عزَّ من ظلم): أي لا يصل إلى مقام العزة المقبولة عند الله، المحبوبة لدى النفوس. من ظلم: أي من غيَّر الموضوعات عن مواضعها فوضع الشيء في غير موضعه، وعدا على الناس.

وقد ورد أن أعظم دليل على سلب الإيمان والعياذ بالله كثرة ظلم أهل الإيمان، وفي

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى (١٨٢/٦)، والطبراني في الكبير (١١٥/١)، والقضاعي في الشهاب (١/ ٢٩٤) بنحوه.
(٢) رواه أحمد (٢١٢/٥)، والبيهقي في الكبرى (١٨٢/٦)، وابن حبان (١٩٨/٨).

الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي، وجعلته محرَّمًا بينكم فلا تظالموا**[١]».

وقال ﷺ: «**الظلمة وأعوانهم في النَّار**[٢]».

وقول المؤلف ﷺ: (ولا يتم حال لباغٍ) مأخوذ من قوله ﷺ: «**لو بغى جبل على جبل لدكَّ الباغي منهما**[٣]».

وقوله: (لا يُخذل عبد رضي بالله وكيلاً ونصيرًا) يؤيِّده قول النبي ﷺ: «**من أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس**[٤]».

و«**من أصلح سريرته أصلح الله علانيته**[٥]».

وقوله تعالى عزَّ من قائل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣].

وقد اتبع سيدنا المؤلف كلامه الذي ذكر بقوله: (مشكك لا يفلح ودسَّاس لا يصل)، أراد بذلك أن من كان على شكٍّ وريبةٍ في أمره مع ربه لا يفلح أبدًا؛ لأن الفلاح مشروط بتزكية القلب، وطهارة النفس.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس:٩].

والدسَّاس: الذي يدس نفسه في زمرة الصالحين وأهل الحق وليس منهم، لا يصل إلى حضرة الحق، ولا يحسب من أهل الحق وأنى يكون له ذلك والنبي ﷺ يقول:

«**من تزيَّن بعمل الآخرة وهو لا يريدها ولا يطلبها لُعن في السَّماوات والأرض**[٦]».

---

(١) رواه مسلم (١٩٩٤/٤)، وأبو نعيم في الحلية (١٢٥/٥)، وابن حبان (٣٨٥/٢).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٤٧٠/٢)، وذكره المناوي في فيض القدير (٢٩٦/٤)، والعجلوني في كشف الخفاء (٦٥/٢).

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢٠١/٢).

(٤) ذكره المناوي في فيض القدير (٣٧/٦).

(٥) ذكره ابن كثير في التفسير (٢٠٥/٤).

(٦) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٠/١٠)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٢/١)، والمناوي في فيض القدير (١٠٣/٦).

وقول المؤلف: (وبخيل لا يسود، وحسود لا ينصر) صريح المفاد، ثابت المعنى عقلاً ونقلاً، على أن السيادة لا تتم لبخيل على قوم.

ويؤيِّد ذلك قول النبي ﷺ: «**السخيُّ قريبٌ من الله تعالى، قريبٌ من الناس، قريبٌ من الجنة، بعيدٌ من النار، والبخيلُ بعيدٌ من الله تعالى، بعيدٌ من الناس، بعيدٌ من الجنَّة، قريبٌ من النار، وجاهلٌ سخيٌّ أحبُّ إلى الله مِن عابدٍ بخيلٍ**[(١)]».

ويكفيك في هذا البحث قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ**﴾ [آل عمران: ١٨٠].

فإذًا من كان بعيدًا عن الله لا تتم له سيادة عن الناس.

وأما الحاسد فهو أقبح من البخيل؛ لأن البخيل يمنع ما له ويقطع نفعه عن الناس، والحسود يغضب إذا انتفع الناس من الناس ولا يكتفي بذلك، بل يريد زوال نعمة الله عن محسوده.

وإذا من كانت هكذا سريرته ساءت بين الناس سيرته، ومن ساءت سيرته قلَّ شاكرهُ، وعزَّ ناصره، والنبي ﷺ يقول: «**لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا**[(٢)]».

وقال ﷺ: «**ليس مني ذو حسدٍ**[(٣)]».

وقول المؤلف قُدِّس سرُّه في بقية كلامه: (وكلب الدنيا لا يستولى على لحم جيفتها). شبَّه الدنيا بالجيفة المنتنة، وطالبها الحريص عليه بالكلب إشارة لما ورد في الخبر وهو: «**الدُّنيا جيفةٌ وطلاَّبها كلاب**[(٤)]».

وإيضاحًا للمغرور بالأيام الحريص على الحطام أن إمكانه دون طلبه؛ لأن الدنيا دار من لا دار له، ويبنيها من لا عقل له، كما جاء في الخبر: «**كيف لا وأيامها زوال ولياليها**

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٢/٤)، والبيهقي في الشعب (٤٢٩/٧).
(٢) رواه الطبراني في الكبير (٣٠٩/٨)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣٤٧/٣).
(٣) رواه الديلمي في الفردوس (٤١٩/٣)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩١/٨).
(٤) ذكره المناوي في فيض القدير (١١٢/١)، والعجلوني في كشف الخفاء (٤٩٢/١).

تمر كالخيال[١]».

ويعجبني من هذا المعنى قول سويد بن عامر المصطلقي الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «لو أدركته لأسلم[٢]» بما نصّه:

لا تَأمَــنَنَّ وإن أمْــسَيتَ في حرمٍ إن المَــنَايَا بكفــي كُــل إنْــسَانِ
وَاسلُك طَرِيقَك تَمشِي غَير مُختَشِعٍ حَــتى يبــيِّن مَــا يمــني لَكَ المانِ
فَكُــل ذِي صَــاحِب يومًا يُفَارِقهُ وَكُــل زَادٍ وَإن أبقَيــتَهُ فــانِ
وَالخَــيرُ والــشَّرُّ مقرونان في قرنٍ بِكُــل ذَلِــكَ يَأتِــيكَ الجَديدانِ

وانظر ما ألطف قول المؤلف ﷺ: (والله محول الأحوال)، فإن هذه الكلمات أتت بعد الجملة الأولى مؤكدة لمعانيها مشيدة لمبانيها.

وأتبعها بقوله: (غارة الله تقصم): أي تقدُّ وتقطع، وتقهر، وتدمر، وتفعل كل أفعال القهر والبطش؛ تعزُّزًا وانفرادًا بالقدرة والطول، والقوة، والحول، وتقلب حال مملكة كسروية من العز، والشوكة، والرفعة، والمكنة إلى الخزي، والذل؛ بسبب كسر قلب عبد اعترف بعبديته، منقطع عن الأغيار لسيده، مؤمن متوكل بصدق الإيمان على الله، وقد انتصر متجرِّدًا من حوله وقوته بالله، ولا يبعد ذلك على قدرة الله إن ربك على كل شيء قدير.

الحكمة الثامنة والخمسون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[كُلُّ النَّاسِ يَرُونَ أَنْفُسَهُمْ فَيُغَانُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَالْمُحَمَّدِيُّ يَسْتَغْفِرُ وَيَدْفَعُ الحِجَابَ، والمَحْجُوبُ يَزْدَادُ طَمسًا عَلَى طَمسٍ، والمَعْصُومُ: مَنْ عَصَمَهُ اللهُ]

أشار بهذه الحكمة لقول النبي ﷺ: «إنه ليُغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم

(١) لم أقف عليه هكذا.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٦/٨) بنحوه.

مائة مرة[1]».

قال الإمام عبد الرءوف المناوي قُدِّس سرُّه في كتابه: «التيسير على الجامع الصغير» عند شرح هذا الحديث ما نصُّه: «إنه»: أي الشأن «ليغان» بغين معجمة من الغين: أي: الغطاء. «يُغان»: أي ليغشى قلبي.

«على قلبي»: الجار والمجرور نائب عن فاعل.

«وإني لأستغفر الله»: أطلب منه الغَفْر: أي الستر في اليوم الواحد مائة مرة.

وهذا غين أنوار لا غين أغيار، ولا حجاب، ولا غفلة، وأراد بالمائة التكثير، فلا ينافي رواية سبعين انتهى.

وأوضح سيدنا المؤلف قُدِّس سرُّه أن حجاب العين يغشي قلوب الناس جميعًا فتنحجب عن لذائذ الحضور برؤية الأنفس، فالمحمدي: أي المؤمن الذي تَخلّق بخلق النبي ﷺ، واقتدى به بالأقوال، والأفعال يستغفر الله، ويدفع الحجاب بذكر الله، فتنجلي حضيرة قلبه برجوعه من غي نفسه إلى ربه، وهذا الخلق من سر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١].

ومُلَخَّص ما ذكره الإمام الفخر الرازي في تفسير الآية أن الطائف قرأه الكسائي طيف بغير ألف، وابن كثير، وأبو عمرو، وكذلك والباقون طائف بالألف، واختلفوا في معناه وفيه.

فمنهم من قال: إنه مصدر.

ومنهم من قال غير ذلك.

وقال بعضهم في معناه: إنه الغضب والوسوسة.

وقالوا: إنه الخاطر.

وقالوا: إنه ما يطوف حول القلب من الخيال وغير ذلك.

---

(١) رواه مسلم (٢٠٧٥/٤)، والبيهقي في الكبرى (٥٢/٧)، والحاكم في المستدرك (٦٩١/١).

فالمتّقون إذا مسَّهم هذا الطائف من الشيطان حالة غضب على عجزه لا يقدرون على الدفع عن أنفسهم، ذكروا الله سبحانه وتعالى وتحققوا أن كل واحد منهم عاجز بالنسبة إلى قدرة الله، وتذكروا أيضًا ما أمرهم الله به من ترك إمضاء الغضب، والرجوع إلى ترك الإيذاء والإيحاش، فتنقلب قلوبهم عند حضور هذه التذكرات في عقولهم إلى إسداء الخير للمغضوب عليهم، والعفو في الحال يزول طائف الشيطان، ويحصل الاستبصار، والانكشاف، والتجلّي، والخلاص من وسوسة الشيطان.

هذا ملخص ما ذكره الفخر رحمه الله.

والذي عليه مشايخنا السَّادة الرفاعية أن الذين اتقوا: أي الذين خافوا الله إذا مسَّهم خاطر من الشيطان تزيِّن لهم عملاً قبيحًا غير مرضي عهد الله، وانحجب القلب حالة تغطيته بالخاطر المذكور، ذكروا الله فزانوا الخاطر بميزان الشرع وحاسبوا أنفسهم وتذكروا عذاب الله وغضبه، فدفعوا بهذا حجاب العين عن القلب، فإذا هم مفاجأة في الحال مبصرون بأعين بصائر الطريق والحق والباطل، فيدفعون الشيطان وما أتى به من البطلان، ويشدون مآزر الحزم، وحزم العزم إلى طاعة الله ومرضاته، ويستغفرون الله ندمًا عمَّا ألمَّ بهم من الخواطر الشيطانية، معرضين عن الأغيار بالكلية.

هذا شأن من كان محمدي القدم، وأما من كان محجوبًا عن التقوى وخوف الله، إذا مسَّه طائف من الشيطان، ازداد طمسًا على طمسٍ، وحجابًا على حجابٍ، والعصمة والوقاية من الله سبحانه وتعالى.

***

الحكمة التاسعة والخمسون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[لاَ دَوَاءَ لِلْحمق، وَلاَ دَافِعَ لِلْحَقِّ، وَلاَ صُحْبَةَ لِلْمَغْرُورِ، وَلاَ عَهْدَ لِلْغَادِرِ، وَلاَ نُورَ لِلْغَافِلِ، وَلاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ، كَتَبَ اللهُ عَلَى كُلِّ نَفسٍ زَكِيَّةٍ أَنْ تُعَذَّبَ فِي الدُّنْيَا بِأَيْدِي الأَشْرَارِ وأَلْسِنَةِ الفُجَّارِ، وَكَتَبَ عَلَى كُلِّ نَفسٍ خَبِيثَةٍ أَنْ تَسِيءَ لِلْمُحْسِنِ، وأَنْ تَمكَرَ بِالمجمل، والعَوْنُ الإِلَهِيُّ مُحِيطٌ بالعَبْدِ المُخلص المُنْكَسِرِ، ومَا لِلظَّالمين مِنْ أَنْصَارٍ،

عَلاَمَةُ العَدُوِ أنْ يَرْغَب بمَا في يَدك، وأنْ يَرْغَب عَنْكَ إذَا قَلَّ مَا لَكَ، وَأنْ يَسْتل سَيْفَ لسَانه بمَغيْبَتكَ، وَأنْ يَكْرَهُ أنْ تُمْدَحُ، فَدَعْهُ لله فَهُو عثور عَلَى رَأسه كالنَّارِ تأكُلُ حَطَبَهَا، وَكَفَى بِاللهِ نَصيرًا، وعَلاَمَةُ الصديْق أنْ يُحبَكَ لله فالْصقْ بِهِ؛ فَإنَّ أهْلَ المحَبَّةِ لله قَلِيْلٌ]

أراد بقوله: (لا دواء للحمق) قطع الأمل عن معالجة الأحمق؛ لأن الحمق داءٌ عزيزٌ في الطبع لا ينسلخ إلا بانسلاخ الروح عن البدن؛ ولذلك ورد أن عيسى ﷺ كان يقول: ما أعجزني إحياء الموتى، ولكن أعجزني معالجة الأحمق، وما يُنسب للإمام علي كرَّم الله وجهه قوله:

لِكُـــلِّ داءٍ دواء يَـــستَطِب بِـــهِ ... إلاَّ الحماقــةِ أعْـــيَت مِن يُدَاوِيهَا

ولهذا نهى الشرع عن مصاحبة الأحمق.

وجاء في الأثر: الصحبة مع العاقل زيادة في الدين والدنيا والآخرة، والصحبة مع الأحمق نقصان في الدين والدنيا وحسرة، وندامة عند الموت، وخسارة في الآخرة.

وقول المؤلف: (ولا دافع للحق) مؤيِّد بقوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [يونس:٨٢].

ومن أحسن الحكم في هذا المعنى قول عليّ أمير المؤمنين ﷺ وكرَّم الله وجهه: للحق نور يبرز ضعيفًا مضمحلاً، ثم ينمو ويعظم، ولباطل صولة تبرز عظيمة قوية، ثم تضمحلّ وتضعف حتى لا يبقى لها أثر، ويناسب هذا المعنى قول الفاضل عبد الباقي العمري الموصلي رحمه الله في الإمام علي أمير المؤمنين ﷺ.

إِذَا الحـــق انتمـــى لحِمَى عَليّ. ... فَـــلا تَعجَـــب فَـــإِنَّ الحَقَّ يَعْلُو

وانظر كيف يقول النبي الكريم ﷺ: «الحقُّ أصلٌ في الجنة، والباطلُ أصلٌ في النَّار[1]».

وقول سيدنا المؤلف: (ولا صحبة للمغرور) حكمة جليلة؛ لأن المغرور برأيه المعجب

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٦/٢٧٧)، وذكره المناوي في فيض القدير (٣/٤١٥).

بنفسه لا يعرف قدر صاحبه ولا يتبع رأيه، ويرى أنه على شيء حال كونه ليس بشيء فإذا لا يتمكن العاقل من صحبته.

وقوله: (ولا عهد للغادر) مبرهن بالطبع، فإن من كان طبعه الغدر لا يقف عند عهد، ولا يتقيَّد بحد.

وقوله: (ولا نور للغافل) ثابت بالبداهة؛ لأن الغفلة ظلمة، والانتباه نور، وهما ضدان والضدان لا يجتمعان، ومن الغفلة عند الله تنتج المعاصي، والمعاصي تنتج سوء الفهم حتى يضل صاحبها سواء السبيل.

وقد أنشد الإمام الشافعي ﷺ هضمًا لنفسه وتعليمًا لغيره:

شَكَوتُ إلى وكيعٍ سُوء فِهْمِي فَأَرْشَدَنِي إلى تَرْكِ المَعَاصِي

وأَخْبَرَنِي بِأَنَّ العِلم نورٌ وَنُور الله لا يُهْدَى لِعَاصِ

وقد أوجز سيدنا المؤلف الحكمة فذكر ما جاء في السُّنة بقوله: (ولا إيمان لمن لا عهد له).

وبيان ذلك أن الرجل لا يجترئ على نقض العهد والميثاق بعد أن جعل الله عليه وكيلاً إلا لأحد أمرين: إما أنه لا يعتقد اللقاء ولا يخشى الحساب، وإما أن يستخف بعهد الله، وكلاهما والعياذ بالله نقصٌ في الدين والإيمان، ونزغ ودسيسة من عمل الشيطان.

وقوله: (كتب الله): أي قضى وقدر، (على كل نفس زكية): صالحة، مطهَّرة من العيوب المذمومة شرعًا، (أن تُعذب) وتُهان بنسبة حالها، سواء كانت كبيرة أو صغيرة في الدُّنيا لا في الآخرة، (بأيدي الأشرار): أي بما اكتسبته أيديهم من المساعي القبيحة، وأن تُساء بألسنة الفجار فتذم بلا موجب، وتستغاب بلا سبب، وتذكر بالسوء وهي مبرأة، وذلك لهوان هذه الدنيا عند الله؛ ولكونه أراد سبحانه وتعالى أن يرفع لتلك النفس الزكية المرضية لواء عز في الآخرة الباقية.

وكتب سبحانه وتعالى وقضى وقدر على كل نفسٍ خبيثةٍ ممزقةٍ عن طريق الحق أن تسيء لمن أحسن إليها، وأن تمكر بمن عاملها بالجميل، ولكن العون والحفظ الإلهي محيطٌ بالعبد المخلص لله، المنكسر لسلطان ربوبيته شامل في حركاته وسكناته له، وما للظالمين

الذين يضعون الباطل محل الحق من أنصار وأعوان يحفظونهم من سيوف بطش الله، وسهام غيرة الله.

على أن الظالم سيف الله ينتقم به، ثم ينتقم منه.

وقال: علامة العدو التي تدلك عليه كونه عدوًا أن يرغب بما في يدك من العرض والحطام، وأن يرغب عنك، ويهجرك إذا قلَّ مالك وضعف حالك، وأن يستل سيف لسانه بمغيبتك، فيجرح جسم عرضك. وصريح ما قاله القائل:

جِـرَاحَات الـسِّنَان لَهَـا التِئَام وَلاَ يَلْـتَام مَـا جَـرَحَ اللِّـسَانُ

ومن علامته أيضًا أن يكره أن تُمدح وتُذكر بخير، ويسرّ أن تُذم وتُذكر بسوءٍ، فدعه لله ولا تقابله، فإن من انتصر لنفسه تعب، ومن سلم الأمر لمولاه تولى نصره وكفاه.

واصبر عليه معتزًا بالله منتظرًا غارة الله، وأبشر فهو عثور يقع على رأسه، ويحذر لحتفه بظلفه، ومثله كالنار تضرم لهبها وتأكل حطبها وكفى بالله نصيرًا لمن أعرض عن الأغيار وانتصر بالملك الجبار.

ثم قال: وعلامة الصديق أن يحبك لله لا لعرضٍ ولا لغرضٍ، فالصق به ولازمه ولا تنفك عنه، فإن أهل المحبة لله قليل، بل أقل من القليل.

وقد عرَّف سيدنا الإمام علي أمير المؤمنين ﷺ وكرَّم وجهه شأن الصديق الذي تسكن الروح إليه، ويستريح القلب معه بقوله:

صَـدِيقُكَ الَّـذِي بِأمرٍ بِكَ مَعَكَ وَمَـن يـضُرُ نَفْـسهُ لِيـنفعك

وَمَـنْ إِذَا ريـب الزَّمان صدعك شـتت شمـل نفـسه لـيجمعك

***

الحكمة الستون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[أَوَّلْ كَلاَم بَعْض الْفُقَرَاءِ وكَأنَّكَ تَدْرَأُ الحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ، لَوْ كُنْتَ فِي زَمَنِ الحَلاَّجِ

لأَفْتَيْتَ مَعَ مَنْ أَفْتَى بِقَتْلِه إِذَا صَحَّ الخَبَرُ، ولأَخَذْتَ بالتَّأويلِ الَّذي يُدْرَأُ عَنْهُ الحَد، ولقنعتَ مِنْهُ بالتَّوبَةِ والرُّجُوعِ إِلَى الله، فَإِنَّ بَابَ الرَّحْمَنِ لاَ يُغْلَقُ، وَهَبَ اللهُ عِبَادًا مِنْ عِبَادِه رُتَبًا رَفِيْعَةً أَطْلَعَ عَلَيْهَا أَهْلَ الوَهب، فَمَنْ أَدْرَكَ سِرَّ الله فِي طَيِّ هَذِهِ المواهب تَوَاضَعَ لِلْخَلْقِ جَمِيْعًا، فَإِنَّ الخَوَاتِيْمَ مَجْهُولَةٌ وسَاحَةُ الكَرَمِ وَسِيْعَةٌ، وَلاَ قَيْدَ فِي حَضْرَةِ الوهب، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاء].

أشار بقوله: (أول كلام بعض الفقراء وكأنك تدرأ الحدود بالشبهات) إلى قول النبي ﷺ: «**ادرءوا الحدود بالشبهات، وأقيلوا الكرام عثراتهم إلا في حد من حدود الله**[(١)]» فعلى هذا نؤول ما أمكن التأويل.

وقوله: (لو كنت في زمن الحلاج لأفتيت مع من أفتى بقتله إذا صحَّ الخبر) فيه شأن عظيم من الغيرة، والانتصار لله ولرسوله وللشريعة المطهرة.

ولنذكر هنا نبذة مختصرة من سيرة الحلاج ليظهر سر مقصود سيدنا المؤلف قُدِّس سرُّه فنقول:

الحلاج هو أبو مغيث الحسين بن منصور من أهل البيضاء وهي بلد بفارس نشأ بواسط العراق، وصحب الإمام الجنيد البغدادي وغيره، وقد اختلف في أمره، وكثر به القال والقيل في عصره، وذهب الشيوخ بعده في شأنه إلى مذاهب كثيرة.

فمنهم من كفَّره، ومنهم من عظَّمه، ومنهم من اعتذر له، وعذره وشاع عنه، وذاع وملأ الدفاتر والأسماع أنها كانت تصدر عنه ألفاظ، يردها ظاهر الشرع، وينبو عنها السمع مثل قوله: أنا الحق.

وقوله: ما في الجبة إلا الله، وقد اعتذر له عن هذه الألفاظ.

ومثلها الإمام أبو حامد الغزالي[(٢)] في كتابه «مشكاة الأنوار».

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/١٠) بنحوه.

(٢) هو حجة الإسلام الولي الكامل العارف بالله تعالى سيدي أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ﷺ، صاحب كتاب الإحياء المعروف بين المسلمين، وُلد رحمه الله سنة خمسين وأربعمائة، وتفقَّه على إمام الحرمين، وبرع في علومٍ كثيرةٍ، وله مصنَّفاتٌ منتشرةٌ في فنونٍ متعددة، =

وذكره القشيري في رسالته بين المشايخ الأخيار إلا إنه صرَّح بخطيئاته ولـــمَّح بشبهاته.

وقد أفتى الإمام الجنيد البغدادي[1] قُدِّس سرُّه وﷺ بقتله مع من أفتى.

وعدَّه جماعةٌ من القوم بين الأولياء بأن الشيخ عبد القادر الجيلي ﷺ ذكر أنه عارف، وقال: لو كنت في زمنه لأخذت بيده.

وسيدنا المؤلف ﷺ من الذين يقولون بولايته ويعتقدون خطأه.

وقد صرَّح في كتابه: «البرهان» بذلك ما نصَّه:

ينقلون عن الحلاج أنه قال: (أنا الحق) أخطأ بوهمه لو كان على الحق ما قال: أنا الحق. يذكرون له شعرًا يوهم الوحدة كل ذلك ومثله باطلٌ، ما أراه رجلاً واصلاً أبدًا إلى آخر ما قال.

ومن المعلوم أن علماء بغداد أجمعوا على قتله وصلبه، وكتب القاضي بإباحة دمه، ورُفعت الفتاوى إلى الخليفة فأذن في قتله فقتله وأُحرق بالنار، وأُلقي رماده في الدجلة ونصب الرأس ببغداد، وأُرسل إلى خراسان ليراه أصحابه الذين افتـــتنوا به.

=

فكان من أذكياء العالم في كل ما يتكلّم فيه، قال العارف الشاذلي: رأيت المصطفى في المنام باهى عيسى وموسى عليهما السلام بالغزالي ﷺ، وقال: هل في أمتكما مثله؟ قالا: لا، اهـــ.
توفّي ﷺ عن خمسٍ وخمسين سنةً..

(١) هو سيد الطائفتين ومفتي الفريقين وإمامهم وتاجهم وطاووس العباد وقطب العلم والعلماء:

أبو القاسم الجنيد بن محمد ابن الجنيد الخزاز القواريري قدس الله روحه ونوّر ضريحه

لقبه الأستاذ أبو القاسم القشيري قدّس الله روحه في رسالته بسيد الطائفة وإمامهم، ولقّبه جماعةٌ من الشيوخ بتاج العارفين في حكاية.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: كان الجنيد قطبًا في العلم، أصله من نهاوند وهي مدينة من الجبل قيل: إن نوحًا ﷺ بناها، ومولده ومنشأه بالعراق، وكان شيخ وقته، وفريد عصره، ومن كبار أئمة القوم وسادتهم، ومقبول على جميع الآل، وكلامه في الحقائق مشهور.

انظر في ترجمته: كتابنا الإمام الجنيد سيد الطائفتين، وروضة الحبور لابن الأطعاني بتحقيقنا.

هذا ملخص ما قيل في شأنه في سائر التواريخ، وكان قتله في سنة تسع وثلاثمائة، وقد ظهرت على يديه الكرامات العديدة، فالذي اعتقده قال بكرامته، ومن لم يعتقده قال: إن الذي ظهر منه سحرٌ وشعبذةٌ.

فلملخص ما ذكر اشترط سيدنا المؤلف على الفتوى بقتله صحة الخبر(١).

---

(١) قال الشيخ يوسف بن الملا عبد الجليل الموصلي: واختلف قوم فيه كالاختلاف في المسيح عليه السلام فقيل: هو ولي الله، وقيل: هو ساحرٌ، والتمس حامد بن العباس الوزير من الخليفة المقتدر تسليمه إليه، فكان يخرجه في مجلسه ويستنطقه، فلا يظهر منه ما يخالف الشريعة، وحامد مجد في أمر ليقتله حسدًا وبغيًا وعدوانًا لأولياء الله تعالى، ثم أنه رأى له كتابًا حكي فيه أن الإنسان إذا أراد الحج و لم يمكنه أفرد من داره بيتًا نظيفًا من النجاسات، ولا يدخله أحد، وإذا حضر الحج طاف حوله، وفعل ما يفعله الحاج بمكة، ثم يجمع ثلاثين يتيمًا، ويعمل أجود طعام يمكنه، ويطعمهم في ذلك البيت ويكسوهم، ويعطي كل واحدٍ سبعة دراهم، فيكون كمن حج، فأمر الوزير بقراءة ذلك قدام القاضي أبي عمرو، فقال القاضي للحلاّج: من أين لك هذا؟ قال: من كتاب الإخلاص للحسن البصري، و لم يعلم الحلاج ما دسّوه عليه، فقال القاضي له: كذبت يا حلال الدم، قد سمعناه بمكة وليس فيه هذا، فطلب الوزير خط القاضي بقوله حلال الدم، فدافعه القاضي فلم يندفع، وألزمه فكتب بإباحة دمه، وكتب بعده من حضر المجلس من العلماء، فقال الحلاّج: ما يحل لكم دمي، وديني الإسلام، ومذهبي السنة، ولي فيها كتب موجودة، فالله الله في دمي، وأرسل الوزير الفتاوى بذلك إلى المقتدر، فأذن له بقتله، فضرب ألف سوط، ثم قُطعت يده ثم رجله، ثم قُتل، وأُحرق، ونُصب رأسه ببغداد.

قال الفاضل العمري: ولعمري أنها مظلمة مُظلمة، وقضية ظالمة، ارتكبها الوزير لهوى نفسه، وأظهر أنها حماية للشريعة المؤيدة.

وفي شرح الجوهرة للقاني: فمن تكلم في أئمة الدين، وهداة المسلمين من الرؤساء المجتهدين، لا يلتفت إليه ولا يعول في شيء عليه، ومقت الله والسقوط من عينيه منجذب إليه، كما أنه لا التفات لمن رمي الجنيد وأصحابه من جملة الصوفية بالزندقة عند الخليفة جعفر المقتدر، حتى أمر بضرب أعناقهم، فأمسكوا إلا الجنيد، فإنه تستر بالفقه، وكان يفتي على مذهب شيخه أبي ثور، وبسط لهم النطع، فتقدم من آخرهم أبو الحسن النوري، فقال له الجلاد: لِمَ تقدمت؟ فقال: لأوثر أصحابي بحياة ساعة، فبهت السياف، وأنهى الخبر إلى الخليفة، فردهم إلى القاضي، فسأل النوري عن مسائل فقهية فأجابه، ثم قال: وبعد.. فإن لله تعالى عبادًا إذا قاموا قاموا بالله، وإذا نطقوا نطقوا بالله... إلى آخر كلامه، فبكى القاضي وأرسل يقول للخليفة: إن كان هؤلاء زناديق فما على وجه الأرض مسلم، فخلى سبيلهم، ثم قتل من الصوفية الحسين الحلاج في سنة تسع وثلاثمائة بما لم يتأمله مَنْ أمر بقتله انتهى.

=

ثم قال: (ولأخذت بالتأويل) هذا بعد تحقق كل شيء مما نقل عنه تأويلاً، تدرأ عنه الحد ويقبله الشرع، وإذا أمكن التأويل أقنع منه بالتوبة عن الكلام الذي يكلف سامعه التأويل، على أنه ذنبٌ عظيمٌ يجب فيه الرجوع إلى الله، وبعد التوبة فباب الرحمن لا يُغلق عند عبيده الذين أسرفوا على أنفسهم، وباءوا بذنوبهم إلى الله تعالى.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ثم انعطف سيدنا المؤلف على مقاصده المضمرة فأوضحها بقوله: وهب الله عبادًا من عباده: أي المسلمين والمؤمنين العارفين رتبًا رفيعةً عاليةً اطّلع عليها أهل الوهب والفتح، فمن أدرك سرّ الله المطوي طي هذه المواهب المنشورة على النوع الإنساني تواضع للخلق جميعًا وأحسن سريرته مع الله، فإن الخواتم ونهايات الخلق مجهولة لدى الخلق، وساحة الكرم وسيعة عظيمة الفيوضات، ولا قيد على الوهّاب في حضرة الوهب، يفعل ما يشاء متى يشاء ويختص برحمته من يشاء، فعلى هذا الأدب مع خلق الله وفق شريعة رسول الله أنجح الطرق وأحسن المذاهب، والتجرد من غرض النفس ومرض الطبع ترياق كل سالك إلى الله ورفيق كل ذاهب.

***

=

وقال أيضًا: ورُوي أنه لما قُدّم لتقطّع يداه قُطعت اليد اليمنى أولاً، فضحك، ثم قُطعت اليسرى فضحك ضحكًا بليغًا، فخاف أن يصفرَّ وجهه من نزف الدم، فكبَّ بوجهه على الدم السائل، ولطّخ وجهه بدمه. ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: يا مولاي، إني غريبٌ في عبادك، وذكرك أغرب منّي، والغريبُ يألف الغريبَ.

وقال أيضًا: وفي مشكاة الأنوار للإمام الغزالي فصل طويل في حاله يعتذر فيه عمّا صدر عنه مثل قوله: (أنا الحق.. وما في الجبة إلا الله)، وحملها على محامل حسنة، وقال: هذا من شدة الوجد مثل قول القائل: (أنا من أهوى ومن أهوى أنا).

وقال السيد الجليل الشيخ عبد القادر الجيلاني: عثر الحسين الحلاج فلم يكن في زمنه من يأخذه بيده، ولو كنت في زمنه لأخذت بيده. وانظر: الانتصار للأولياء (ص٣٩، ٥٨٤) بتحقيقنا.

الحكمة الواحدة والستون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[قَالَ بَعْضُ الأَعَاجِمِ مِنْ صُوْفِيَّةِ خُرَاسَان: إِنَّ رَوْحَانِيَّةَ ابن شَهْرَيَار الصُّوفِي الكبير قُدِّسَ سِرُّهُ تَتَصَرَّفُ فِي تَرْتِيبِ جموع الصُّوفِيَّةِ فِي الْعَرَبِ والعَجَمِ إِلَى مَا شَاءَ اللهُ، ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ للهِ الوَهَّاب الفَعَّال، النِّيَابَةُ المُحَمَّدِيَّةُ عِنْدَ أَهْلِ القلوب ثَابِتَةٌ، تَدُورُ بنوبة أَهْلِ الوَقْتِ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ، وتَصَرُّفُ الرُّوحِ لاَ يَصِحُّ لمخلوق، إِنَّمَا الكَرَم الإِلَهِي يَشْمَلُ أَرْوَاحَ بَعْضِ أَوْلِيَائه بَلْ كلهم، فَيُصْلِحُ شَأْنَ مَنْ يَتَوَسَّلُ بِهِمْ إِلَى الله، قَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت:٣١]، هَذَا الحَدُّ.

إِيَّاكَ وإِفْرَاطَ الأَعَاجِمِ، فَإِنَّ فِي أَعْمَالِ بَعْضِهِم الإِطْرَاءَ الَّذِي نَصَّ عَلَيْهِ الحَبِيبُ عَلَيْهِ صَلَوَاتُ الله وسَلاَمُهُ، وإِيَّاكَ وَرُؤْيَا الفعْلِ فِي الْعَبْدِ حَيًّا كَانَ أَوْ مَيِّتًا، فَإِنَّ الخَلْقَ كلهم لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا، نَعَمْ خُذْ مَحَبَّةَ أَحْبَابِ الله وَسِيلَةً إِلَى الله؛ فَإِنَّ مَحَبَّةَ الله لعبَاده سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ الأُلُوهِيَّة، يَعُودُ صِفَةً لِلْحَقِّ، ونعم الوَسِيلَةُ إِلَى الله سِرُّ ألوهيته، وَصِفَةُ رِبُوبِيَّتِه، الْوَلِيُّ: مَنْ تَمَسَّكَ كُل التَّمَسُّك بِأَذْيَالِ النَّبِي ﷺ ورَضِيَ بِاللهِ وَلِيًّا]

ابن شهريار الذي أشار إليه المؤلف ﷺ ترجمه الإمام شيخ الإسلام أحمد بن جلال المصري في كتابه «جلاء الصدأ»، وقال في شأنه:

هو الشيخ الولي الإمام الشهير الواصلة ميامن بركاته إلى الصغير والكبير، سلطان أجلّة العارفين، وبرهان أدلة الوارثين، غوث من استغاث به من الأمة، والكاشف عنهم الكرب والغمة، الذي اختاره الله من بين الأخيار، الشيخ المرشد أبو إسحاق إبراهيم بن شهريار الكازروني قدّس سرُّه العزيز.

ثم قال: وقد أخبر بظهور سيدي أحمد الرفاعي ﷺ، وأظهر على قدره وما له من القرب عند الواحد الصمد، مع أن وفاة الشيخ أبي إسحاق قبل مولد السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهما بإحدى وثمانين سنة. انتهى ملخصًا.

قلت: وكانت وفاة الشيخ المُشار إليه صبَّ الله سجال رحمته عليه سنة تسع وعشرين

وأربعمائة، وقد أثنى عليه الشيوخ، وعظّمه الرجال، وترجمه أصحاب الكمال بما يدل على مناقبه الشهيرة ومحامده الكثيرة، وقال قومٌ من الصوفية بتصرفه في حياته، وبعد مماته.

ونقل مثل ذلك عن الشيخ حياة بن قيس الحراني[1] أحد أصحاب سيدنا المؤلف رضي الله عنهما، وذكروا ذلك أيضًا عن الشيخ عبد القادر الجيلاني، والشيخ معروف الكرخي وغير واحد، وذكر ذلك البعض من أعيان الرفاعية عن سيدنا المؤلف ﷺ أيضًا.

والحال أنه قُدِّس سرُّه وعمَّنا برُّه لا يقول بهذا على الوجه المعروف عند الطائفة القائلة بتصرف بعض الأموات في قبورهم، بل ينكر ذلك البتّة، ويصرح بعد تصرف الروح لمخلوق، وإنما الكرم الإلهي يشمل أرواح الأولياء، فيصلح شأن مناديهم، ومن ينـــزل بناديهم، وقد نبَّه على عدم رؤيا الفعل في العبد حيًّا كان أو ميتًا، وصرح بأن الخلق حيّهم، وميتهم، كبيرهم، وصغيرهم على حال واحد في العجز، لا يملك أحد لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، وقد أوضحت ذلك الأحاديث، والدلالات، والآيات البينات القرآنيات، إلا أن الأولياء لما كانوا أحباب الله، ومحبة الله تعالى لهم صفة من صفات ربوبيته اتخذ العباد محبة الله لهم وسيلة إلى الله سبحانه وتعالى.

وأراد سيدنا المؤلف ﷺ أن يعرفنا الولي؛ لنحبه ونتوسل إلى الله بمحبة الله له، فقال:

الولي: من تمسَّك كل التمسك بأذيال النبي ﷺ، ورضي بالله وليًا، وقد ذكر صاحب معراج السالكين أنه سأل شيخه السيد حسين برهان الدين الصيادي الرفاعي قُدِّس سرُّه سواء لا يناسب هذا المعنى وها هو بنصِّه:

وسألته ﷺ عن كشف الولي حالة كونه في بغداد، وناد به في فاس كيف يطلع عليه ويراه وقد يتفق في الوقت الواحد أن يندب من الأماكن المتعددة على الألسن المتعددة،

---

(١) هو من أجلاء المشايخ، وعظماء العارفين، وأعيان المحققين، صاحب الكرامات والمقامات، والهمم الفخيمة، والبداية العظيمة، صاحب الفتح السني، والكشف الجليّ، حلال مشكلات القوم، وهو أحد الأربعة الذين يتصرفون في قبورهم بأرض العراق، وكان أهل خراسان يستسقون به فيُسقون.

كان يقول: اجعل الزهد عبادتك، واحذر أن تجعله حرفتك.

سكن ﷺ حرّان واستوطنها إلى أن مات بها سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وقبره هناك ظاهرٌ يُزار. وانظر في ترجمته: طبقات الشعراني (١٣٢/١)، والانتصار للكردي (ص٤٤٨) بتحقيقنا.

ويرى كل نادب له، ويطلع على أحوال الكل، وقد يقوم بمدد الله بمعونة الكل، وهو في مكانه الذي هو فيه فما هذا الحال؟

فقال: مثل قلب الولي كالحجر المغناطيسي العظيم الجسيم، إذا وضعته في صحن دار وسيعة مربعة مفروشة بالرخام الأبيض بسيطة، وجعلته النقطة الوسطى من الصحن، وطرقته الشمس الحارة صحن الدار من كل جانب، ووجهت من كل جهة قطع الحديد، وما يصح جذبه إليه، هل لا تسري جاذبيته إلى الجميع وتصلهم وهو في محله؟

قلت: بلى.

قال: وقلب الولي كذلك أعطاه الله سرًّا، إنجيل فيه حالة توجه القلب الآخر إليه، تنعكس مادته اليد وتصلح شأنه وشأن القلب الآخر، والآخر وصلة شعاعية لا يمنعها حجاب من الحجب الثقيلة؛ لأن الصحن الحضرة الوسيعة، والرخام طهارة النية، وحسن تربيع المحل صحة الطرز، وطرقة الشمس الحارة من كل جهاته، إعطاء نور المادة الممدة من جانب شمس العناية المقدسة، لكي لا تنقطع قوة الكيفيتين حالة المد والاستمداد، وإلا فلا تصح هذه الإحاطة لمخلوق؛ لأن الإحاطة بلا طلب ولا لفت قلب يوجب انعكاس مادة جاذبة، إنما هو شأن الله الذي يحفظك، ويعينك، ويصونك بحفظه وعونه وصونه، وأنت على غفلة، ويرزقك وأنت على معصية، ويحسن إليك وأنت على إساءة، وأنّى للعبد المسكين هذه الشؤون، تعالى الله علوًّا كبيرًا.

قلت: حينئذ ثبت ما قاله بعض الحنابلة بعدم مدد الولي بعد موته؟

قال: لا بل لم يثبت؛ لأن المادة الممدة في الولي ليست القطعة اللحمية المعطلة، وإنما هي كلمة المدد الربّاني المدلاة إليه، وهذه كلمة ليست بمعطلة، لا ينقطع مددها، ولا ينقضي أمدها، ولا تبديل لكلمات الله.

قلت: ولعل المدد وهب بقيد كون الولي حيًّا.

قال: هذا ظن على وجه باطل؛ إذ لعل المدد وهب بلا قيد، وهذا اللائق بالإلهية ولا ينقص من خزانة الكرم شيء، وإذا كانت المادة الممدة الفعالة مادة المدد المدلاة إلى قالب الولي وقلبه، المجتمع من ماء وطين لا يضر ولا ينفع ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، وهي

المتصرفة الضارة النافعة المددة، وجعل الله عبده الولي موضع مدده ووجهه البعيد عن مدده المحجوب عنه إليه، فمتى توجّه العبد إلى الوجهة التي جعلها الله موضع مدده، وقبل الحق اتجاهه، انصرفت إليه مادة المدد من موضعها سواء كان موجودًا أو مفقودًا، حيًا أو ميتًا، قريبًا أو بعيدًا، ولا فرق في هذا وهو الأصل عند العارفين.

قلت: حينئذ فما مزية الولي حالة كونه مجردًا عن الفعل، والفتق، والرتق، والحول، والقوة، والوهب، والسلب؟

فقال: مزيته الاختصاص ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥].

وفيما قاله هذا الإمام كفاية، والله ولي التوفيق والعناية.

الحكمة الثانية والستون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[مَنْ اعْتَصَمَ بِاللهِ جَلَّ، وَمَنْ اعْتَمَدَ عَلَى غَيْرِ اللهِ ذُلَّ، وَمَنْ اسْتَغْنَى بِالأَغْيَارِ قَلَّ، وَمَنْ اتَّبَعَ غَيْرَ طَرِيْقِ الرَّسُولِ ضَلَّ، الْعِلْمُ نُوْرٌ، وَالتَّوَاضُعُ سرُوْرٌ. الهمَّةُ حَالَةُ الرَّجُلِ مَعَ اللهِ، يَتَفَاوتُ علوُ مَرْتَبَةِ الإِيْمَانِ بعلوِ الهمَّة، مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ اللهَ الفَعَّالُ الْمُطْلَقُ صَرَفَ همَّتَهُ عَنْ غَيْرِه، مَنْ عَلَتْ فِي اللهِ همَّتُهُ صَحَّتْ إِلَى اللهِ عَزِيْمَتهُ، وانْفَصَلَتْ عَنْ غَيْرِ اللهِ هجْرَتهُ، مَائدَةُ الْكَرَمِ يَجْلسُ عَلَيْهَا البرُّ والفَاجِرُ، لله عِنْدَ الخَوَاتِيم حَنَانٌ ولُطْفٌ عَلَى عِبَاده فَوْقَ حَنَان الوَالِدَة عَلَى وَلَدهَا، إنَّ اللهَ إِذَا وَهَبَ عَبْدَهُ نِعْمَةً مَا اسْتَرَدَّهَا، فيوضَاتُ المَوَاهِبِ الإِلَهِيَّةِ فَوْقَ مَدَارِكَ العقُولِ وتَصَوُّرات الأَوْهَامِ.

مَنْ عَلمَ أَنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيْدُ فَوَّضَ الأَمْرَ إِلَى الفَعَّالِ الْمُقْتَدِر، وفَرَشَ جَبِيْنَهُ عَلَى تُرَاب التَّسْلِيم، كُلُّ الحَقَائقِ إِذَا انْجَلَتْ يُقرَأُ فِي صَحَائفهَا سَطْرٌ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨].

إِذَا أَمْعَنْتَ النَّظَرَ فِي دَوَائرِ الأَكْوَانِ رَأَيْتَ الْعَجْزَ مُحِيطًا بِهَا، والافْتِقَارَ قَائمًا مَعَهَا.

ولِرَبكَ الحَوْلُ وَالْقُوَّةُ والغنَى والقُدْرَةُ، وَحْدهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ، مَزَالقُ الأَقْدَامِ الدَّعْوَى،

ورُؤيَا النَّفسِ، ومُعَارَضَةُ الأَقْدَارِ، لَوْ كَانَ لَكَ مَا ادَّعَيْتَ مِن الحَوْل والقُوَّة والقُدْرَة لِمَا مُتَّ؟ أَيْنَ أَنْتَ يَا عَبْد الرِّئَاسَة؟ أَنْتَ يَا عَبْد الدَّعْوَى عَلَى غِرَّة، تَنَحَّ عَنْ رِئَاسَتِكَ وغرتكَ والْبِسْ ثَوْبَ عبديَّتِكَ وذلَّتِكَ، كُلُّ دَعْوَاك كَاذِبَةٌ، وكُلُّ رِئَاسَتِكَ وغرتكَ هزلٌ، الْقَوْلُ الفصلُ، ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء:٧٨].

أوضح ﷺ في جمل حكمه هذه أن من اعتصم بالله ملتجئًا إليه، منحرفًا عن غيره، صار جليلاً عند الله والناس.

ومن اعتمد على غير الله منقطعًا عن طريق الاعتصام بالله صار ذليلاً عند الله والناس.

ومن استغنى بالأغيار مترفعًا عن رتبة الافتقار إلى الله تعالى ابتلي بالقلة.

ومن اتبع برأيه غير طريق الرسول ﷺ وهو السُّنة السنية والشريعة الأحمدية فقد تاه عن طريق الصواب، وصار من أهل الضلالة، وهذا لا يكون إلا من الجهل.

ولذلك قال السيد المؤلف ﷺ: العلم نورٌ يهتدي به العبد إلى سبيل الرشاد، والتواضع غايته سرور لكونه من الأسباب الموصلة إلى العلم، وقد ورد بما معناه أن العلم يذبح، أو يضيع بين الكبر والحياء، فإن المتكبِّر تعظم عليه نفسه أن يسأل لكيلا يجهل، والمستحي يمنعه خجله عن السؤال فلا يصل إلى مقصده من العلم.

وقال: الهمة وهي الجزم الصحيح، والنيَّة الخالصة حالة الرجل مع الله، وبها يحصل التفاوت في علو مرتبة الإيمان، فمن أيقن وتحقق أن الله تعالى هو الفعال المطلق وغيره لا فعل له صرف همته وحول جزمه ونيته عن النظر إلى غيره، فإن من علت في الله همته وانحرفت عن الأغيار بالكلية نيته صحّت إلى الله عزيمته، وثبتت مع المقربين منـــزلته، وانفصلت عن غير الله هجرته «**فإن من كانت هجرته إلى الله ورسوله...**[1]» كما ورد في الحديث الصادق.

ولا ريب فإن مائدة الكرامة، ووليمة الإحسان يدعي إليها ويجلس عليها البر، والفاجر، والأصاغر، والأكابر، ولله سبحانه وتعالى عند الخواتيم ونهايات الآجال جنان، وعطف، وكرم، ولطف على عباده فوق حنان الوالدة الشفيقة على ولدها الصالح، وأن

(١) رواه الطبراني في الأوسط (١٢٣/٧).

الله إذا وهب عبده نعمة، وأتحفه من إحسانه خصيصة ما استردها؛ لأن فيوضات المواهب الإلهية فوق مدارك العقول السليمة، وتصورات الأوهام ومدارج الخواطر.

فعلى هذا من علم أن الله يفعل ما يريد، ولا راد لأمره، ولا منازع لحكمه فوَّض الأمر إلى الفعَّال المقتدر المتصرف في ملكه كيف شاء، وفرش جبينه إذعانًا وانقيادًا على تراب التسليم للحكم الحكيم؛ لأن كل الحقائق القائمة مع الخلائق إذا انجلت وانكشف غطاؤها يقرأ في صحائفها، ويشهد في كل لوح من ألواحها رسم الأمر الإلهي المنجلي فيه سطر ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨].

فبعد ذلك وقبل أن تصل إلى كشف هذه المسالك إذا امعنت النظر معتبرًا في دوائر الأكوان، وعوالم الذرات والإنسان رأيت العجز محيطًا بها من كل جانب، والافتقار قائمًا معها في جميع التقلبات والمذاهب، ولربك الحول، والطول، والقوة، والبقاء، والغنى، والقدرة وحده لا شريك له.

واعلم أن مزالق الأقدام الدعوى العريضة، ورؤيا النفس وأعمالها، ومعارضة الأقدار بالاعتراض عليها لو كان لك ما ادعيت أيها المدَّعي، وثبت لك ما نسبته لنفسك من الحول والقوة والقدرة، لما تحول حالك من الصغر إلى الكبر، ومنه إلى الهرم، ولما مت، وتحولت من الوجود إلى العدم.

أين أنت يا عبد الرئاسة المستغرق الأوقات بلذاتها الفانية! أين أنت يا عبد الدعوى المشغول بأوهامها الواهية! أنت على غرة، تنحَّ وتباعد عن رئاستك الفانية وغرتك الواهية، والبس ثوب عبديتك لربك، وتردَّى برداء ذلتك له بلسانك وقلبك، فإن كل دعواك الوصل، والقطع، والفتق، والرتق كاذبة، وكل رئاستك بوهمك، وغرتك بوقتك وجسمك هزل، القول الفصل المستجمع لكل فضل.

قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ﴾ [النساء:٧٨]، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولا يخفى أن ما أورده سيدنا المؤلف ﷺ في هذه الجمل المباركة من الحكم الفائقة والمعاني الرائقة مؤيد بكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، غني فيه المقام عن الإيضاح، وقد أوردت ما يناسب بعض مقاصده الكريمة في قصيدة لي تخلصت فيها بمدح النبي ﷺ وهي:

هَــوِّن عَلَــيكَ أخِــي فَالأيَّــام مَهمَــا اسْــتطَالَ مَطَالَهَــا أحــلامُ
واصْــبِر لغــصَّتِهَا فإنَّهَــا وَإن ضَــاقَت مَــدَار مَــا لَــدَيْها دوامُ
كَــادَت تُــشابِه أبــرة الفُلــك التِي ثَبــتَت وَدَارَت حَــولُهَا الأجْــرَامُ
تَجْــرِي لِغَايــة مُــستَقَر شَمْــسَهَا فَــيَحفُّها عِــند العَمُــود ظَــلامُ
قَــد كُــوِّرَت لفًّــا وَدَارَت أرضُهَا والــنَّاس بالــشِّبر البَــسيطِ نــيامُ
مَــا أعجَب المهدِي الذِي خفت على مقْــــدارَهَا في دُورِه الأعــــلامُ
هُــو كَالــسَّرير تَهُــزه مــن نفسِهِ كُــرويَّة الــبرهان وَهُــو مقــامُ
خُــذ مِــنهُ فِيمَا صَارَ عَنْكَ يَد النَّوى مَعــنى فعــلٍ تُذِيعُــهُ الأقــلامُ
قَــد يَحْــسَبُ النَّاس الجِبَال جوامِدًا ومُــرُورهَا للــنَّص فِــيهِ نظَــامُ
فَاصــبِر لِعُمــرِك فَالــزمَان حوادِث تَمْــضِي ورأس المَــال فِــيهِ كَــلامُ

***

الحكمة الثالثة والستون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[سِرْ بَيْنَ الحَائط حَائط الشَّرْعِ والْعَمَلِ، اسْلُكْ طَرِيْقَ الاتِّبَاعِ؛ فَإنَّ طَرِيْقَ الاتِّبَاعِ خَيْرٌ، وطَرِيْقَ الابْتِدَاعِ شَرٌّ، وبَيْنَ الخَيْرِ والشَّر بونٌ بَيِّنٌ، مَرِّغْ خَدَّكَ عَلَى البَابِ، وافْرِشْ جَبِيْنَكَ عَلَى التُّرَابِ، وَلاَ تَعْتَمد عَلَى عَمَلِكَ، والجَأْ إِلَى رَحْمَتِهِ تَعَالَى وقُدْرَتِهِ، وتَجَرَّدْ مِنْكَ وَمِنْ غَيْرِكَ عَلَّكَ تُلْحَقُ بِأَهْلِ السَّلاَمَةِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٣]، بَرَكَةُ العَبْدِ الوَقْتُ الَّذِي يَتَقَرَّبُ به إِلَى الله ﷻ، الأَوْلِيَاءُ لَهُمْ الحُرمَةُ فِي البَابِ الإلَهِيِّ، ولَوْلاَ أَنْ جَعَلَ لَهُمْ هَذه القِسْمَةَ لَمَا اخْتَصَّهُمْ دُونَ غَيْرِهِمْ بِوِلاَيَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هَؤُلاَءِ حِزْبُ الله، جَيْشَةُ العَرمْرَمُ الَّذِي أَيَّدَ اللهُ به الشَّرِيْعَةَ، ونَصَرَ به الحَقِيْقَةَ، وصَانَ به شَرَفَ نَبِيِّه ﷺ وأَلْحَقَهُ به. قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤]، المَعْرِفَةُ بِاللهِ عَلَى أَقْسَامٍ، وأَعْظَمُ أَقْسَامِهَا تَعْظِيْمُ أَوَامِرُ اللهِ تَعَالَى بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ الرَّبِّ،

حِجَابُ الْغَفْلَةِ لاَ غير، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢]، الْعَبْدُ الْعَارِفُ يفزَعُ إِلَى اللهِ، يَتَوَقَّعُ سِرَّ اللهِ، وَسِرُّ اللهِ الْعَوْنُ النَّاشِئُ مِنْ مَحْضِ الْكَرَمِ، والفَضْلُ مِنْ دُوْنِ سَابِقَةِ صنع ولاَ عمَل، الْقَلْبُ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ إِصْبَعي قُدْرَةِ الرَّحْمَن، فَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُثَبِّتَ القُلُوبَ عَلَى مَحَبَّتِهِ ودِينِهِ، وَكَفَى بِهِ وَلِيًّا]

أراد بقوله: (سر بين الحائطين) الوقوف بين الأمر والاستقامة بالتمكن في طريق الاتّباع للشارع الكريم عليه أفضل الصلوات والتسليم؛ لأن طريق الاتّباع خير جامع لمقاصد الدُّنيا والآخرة، وطريق الابتداع شرٌّ قاطعٌ لفوائد الدنيا والآخرة، والمباينة الحاصلة بين حال الخير والشر صريحة بيِّنة لا تخفى على ذي عقل.

ولهذا قال سيدنا المؤلف ﷺ: (مرغ خدك على الباب): أي تمكن من إظهار ذلك في باب الله، (وافرش جبينك على التراب) إشارة لكثرة الصلاة، ودوام السجود لله، أو للتواضع لله وللخلق.

وألحقها بقوله: (ولا تعتمد على عملك) إشارة لقول النبي ﷺ: «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**[1]».

ولهذه الإشارة تمم المؤلف كلامه بقوله: (والجأ إلى رحمة الله تعالى وقدرته).

ثم قال: (وتجرد منك): أي من رؤية نفسك؛ لأن من عرف نفسه فقد عرف ربه، (ومن غيرك): أي بعد تجردك من رؤية وجودك تجرد من رؤية الموجودات عامة، علك بعد ذلك تلحق بأهل السلامة، وهم الذين آمنوا بالله وكانوا يتقون: أي يخافون الله، فلا تشتغل قلوبهم بغير أو غين طرفة عين تقربًا إلى الله، وتباعدًا عن غيره؛ لأن بركة العبد ونتيجة سعادته الوقت الذي يتقرب به إلى الله ﷻ، ويتباعد به عن غيره.

ثم قال: (الأولياء): أي الذين والوا الله وعادوا النفس، والشيطان، والهوى، والدنيا لهم الحرمة والرعاية في الباب الإلهي، ولولا أن جعل لهم هذه القسمة: أي قسمة الحرمة والرعاية، والحفظ، والوقاية لما اختصَّهم وأيَّدهم دون غيرهم من خلقه بولايته، وقربه سبحانه وتعالى.

---

(١) رواه أحمد (٢/٤٥١)، وابن حبان في صحيحه (٢/٦٠).

هؤلاء: أي الأولياء، حزب الله جيشه العرمرم: أي الجمع والعسكر الكثير الغالب الذي أيّد الله به الشريعة وحماها، ونصر به الحقيقة وأعزَّ حماها، وصان به شرف نبيّه ﷺ، وألحقه به: أي خلق ذلك الحزب بخلق نبيّه ﷺ فصان به شرفه العالي من التغيير والاندراس، وتحريف الوضع والأساس، وتكفل له الله تعالى بالكفاية كما تكفل به لنبيه ﷺ حيث قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]: أي يكفيك الله ويحفظك من شرور الدنيا والآخرة، أنت ومن اتبعك وتخلّق بأخلاقك من طائفة المؤمنين الذين آمنوا بالله وبما جئت به.

ثم قال: (المعرفة بالله على أقسام): أي المعرفة بحكمة الله في ملكه، وخلقه، والقصد من إظهار عظمة ربوبيته على أقسام كثيرة، وأعظم أقسامها إصابة، وأجلّها حكمة، وأقربها لرضا الله تعظيم أوامر الله تعالى، بامتثال ما أمر به وترك ما نهى عنه.

وهذا هو الانتباه السليم الذي هو ضد الغفلة، وأقرب الطرق إلى الله تعالى، ولهذا اتبع سيدنا المؤلف جملته الماضية بقوله: (بين العبد والرّب حجاب الغفلة لا غير)، فقد عيَّن أن الغفلة حائل، وقاطع عن الله تعالى، والانتباه حبل متين يلزم الاعتصام به ليصل به العبد إلى الله، وأيّد مقصده بقول الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢].

ثم قال: (العبد العارف): أي الذي ذاق طعم المعرفة المبحوث عنها، يفزع إلى الله لا لغيره، ويتوقع سر الله، وهو العون الناشئ من محض الكرم والفضل من دون سابقة صنع ولا عمل، وهو فرج الله الذي يحف بعبده من حيث لا يدري، وهذا التوقع والانتظار عمل طاهر يؤيّده قول النبي ﷺ: «**انتظار أمتي فرج الله عبادة**[1]».

وفي رواية: «**انتظار الفرج عبادة**[2]».

وفي رواية ابن عمر رضي الله عنهما: «**انتظار الفرج بالصبر عبادة**[3]».

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٢٠٤/٧)، والحكيم الترمذي في النوادر (٢٢١/٢) بنحوه.

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٢٠٥/٧)، وذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (٤٨/٢).

(٣) رواه البيهقي في الشعب (٢٠٤/٧)، والقضاعي في الشهاب (٦٢/١)، وذكره المناوي في فيض القدير (٥٢/٣).

فإذا توقع الفرج وانتظاره يتم بالصبر ويصلح فيه فيصير عبادة، ولا طاقة للعبد على الصبر إلا بمعونة الله تعالى فإن الله تعالى يقول: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، أمر بالصبر وبيّن للصابر أنه لا طاقة له على الصبر إلا به: أي بمعونته وتوفيقه.

ولذلك قال المؤلف ﷺ: (القلب ينقلب بين إصبعي قدرة الرحمن، فاسألوا الله أن يثبت القلوب على محبته ودينه).

وفي هذه الجملة إشارة لما ورد على لسان عليّ أمير المؤمنين كرَّم الله وجهه: قلوب العباد بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

وما أحسن ما قلته بفضل الله في هذا المعنى:

تَعَــــالى الله إنّ اللهَ رَبٌّ عظيم اللُّطفِ كشَّاف الكُروبِ

أَحَــاطَ بجملةِ الأشيَاءَ عِلمًا تــصرَّف في القوالبِ والقلوبِ

***

الحكمة الرابعة والستون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[المَظَاهِرُ البَارِزَةُ منهَا مَا فُيِّضَ للْخَيْرِ وَمنهَا مَا فُيِّضَ للْشَرّ، وَالْمُنصَرفُ فيهَا بَاريهَا، فَالمظْهَرُ الْمُفَيِّضُ للْخَيْرِ يُشكَرُ، وَالمظْهَرُ الْمُفَيَّضُ للْشَرّ يُنكَرُ، وَاللهُ في الحَالَيْنِ يُذْكَرُ، لاَ يتمُّ نظَامُ رَجُلٍ أَقَامَهُ اللهُ مظهَرًا للْشَرّ؛ لأنَّ اللهَ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَتمَّ نظَامَهُ لمَا أَقَامَهُ مَظْهَرًا فيْمَا يَكْرَهُهُ، دَعْ عَنْكَ الاهتمَام بتَقْوِيم المُعْوَج قَبْلَ بُرُوز السَّانحَة المقومة، فَإنَّ سحَابَ الخَيْرِ يمطرُ بإبانه، ولاَ يُطْلَبُ قَبْلَ أَوَانهُ، لاَ تُسقطْ همَّتكَ بيَد همّكَ فَتَنْقَلبُ عَنْ المَطَالب العَليَّة، فَإنَّ الهَمَّ كَافُورُ الهمَّة، والإقْدَام عَنْبَرهَا، وَالمَقْضيُّ كَائنٌ وَغَيره لاَ يَكُون، قفْ عنْدَ أفْعَالكَ الّتي وُهبَتْ لَكَ، وَلاَ تُكَلّفْ نَفْسَكَ تَبْديلَ مَا اضْطَرَبْتَ بفعْله، وَلاَ ترك مَجْبُورًا أَوْ مُخْتَارًا، فَإنَّ الأَمْرَ بَيْنَ الأَمْرَيْن، كُلُّ وليٍّ يَقُولُ وَيَصُولُ، فَهُوَ في حجَاب القَوْل والصَّوْلَة حَتَّى يَنقَهر تَحْتَ سَطْوَة الرُّبُوبيَّة، وَيَفيء إلَى أَمْر الله، فَإذَا فَاءَ دَنَا فَتَدَلَّى بصدْقه إلَى قَاب قَوْسي المُتَابَعة المُحَمَّديَّة، وَحينَئذ تَصحُّ لَهُ رُتْبَة العُبُوديَّة الّتي هي أَكْمَلُ الرُّتَبَ وَأعْلاَهَا، وأقْرَبُهَا منَ الله وَأدْنَاهَا، وَأَعْظَمُهَا وَسيلَة إلَيْه وَأَقْوَاهَا، وَلَيْسَ

لِلْخَلْقِ سِوَاهَا]

أشار بأول جملة مما ذكر لقول النبي ﷺ: «**مِن النَّاس نَاسٌ مفاتيح للخيرِ، مغاليق للشرِّ، ومِن النَّاس نَاسٌ مفاتيح للشرِّ، مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل مفاتيح الشر على يديه**[١]».

فكلمة (طوبى) كلمة تهنئة وتبشير، وإشارة للجمع بين خيري الدنيا والآخرة، وكلمة (الويل) كلمة سوء وثبور، وإشارة لسوء الحال في الدنيا والآخرة، وكلتا الكلمتين تذكر بمعرض الدعاء والتبشير، فمن قُيِّض للخير بُشِّر على لسان الشارع العظيم ﷺ بخيري الدارين ونعيم الحياتين، ومن قُيِّض للشر بُشِّر بالعذاب الأليم، وقبح الحال .

فعلى هذا فالرجل المقيض للخير يشكر حاله، والمقيض للشر ينكر حاله والله تعالى يذكر لجلالة عظمته، وقوة تصرفه في الحالين طمعًا بإحسانه، وخوفًا من صدمة بطشه إن ربك على كل شيء قدير.

ولهذا السر قال سيدنا المؤلف بعد الجملة الأولى: (لا يتم نظام رجل أقامه الله مظهرًا للشر): أي لا يصلح له رأي، ولا ينتظم له تدبير؛ لأن الله جلت عظمته لو أراد أن يتم نظامه: أي يجمع شتات أمره، ويصلح شأنه لما أقامه: أي نصبه مظهرًا: أي شيئًا بارزًا واقفًا فيما يكرهه، وهو صنع الشر.

فإذًا دع عنك الاهتمام بتقويم المعوج: أي بهداية من طمس الله على قلبه وقيضه للشر، قبل بروز السانحة المقومة: أي قبل ظهور وارد غيـــبي يسنح على قلبه بواعظ الحالة المقومة لاعوجاجه المصلحة لشأنه، فإن سحاب الخير يمطر بإبانه، ويجيء بوقته وزمانه ولا يطلب قبل حلول أوانه.

ومع ذلك قال سيدنا المؤلف: (لا تسقط همتك بيد همك)، فتقف عن سعيك وعزمك (ولا تنقطع عن السعي والاجتهاد فتنقلب عن المطالب العالية)، فإن الهم، والغم، والعجز، والكسل كافور الهمة، يقطع نتائجها ويدفعها عن مقاصدها، والإقدام والسعي، والصبر، والاستقامة عنبر الهمة، يرفعها إلى المراتب الصحيحة والمنازل الرفيعة، والمقضي المقدر في عالم الغيب كائن لا بدَّ من صيرورته وكينونته، وغيره لا يكون ولا يصير.

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (١/ ٤٢٠).

وألحق سيدنا المؤلف جملته هذه بقوله: (قف عند أفعالك التي وُهبت لك)، فالأفعال التي يصح بها الوهب لا تكون إلا أفعالاً مرضية؛ ولذلك نسبتها إلى الوهب، وأمر السالك بالوقوف عندها، وألا يختار لنفسه غير ما اختاره الله تعالى له.

ثم قال: (ولا تكلف نفسك تبديل ما اضطررت بفعله)، وأجبرك سائق الوسع والطاقة لأجله، (ولا تراك مجبورًا أو مختارًا): أي ولا تقل بقول أهل الجبر والاختيار، فإن الأمر الصادق الذي ينتظم به أمر الدين بين الأمرين: أي بين الجبر والاختيار، فإن للعبد من الرَّب مواهب أفعال جعله مجبورًا على فعلها إن شاء وإن أبى، كالنوم، واليقظة، والطعام، والشراب وأمثال ذلك، وأعطاه الإرادة الجزئية في أفعال ترتب عليها الثواب والعقاب، وللقدرة في الكل تصاريف عظيمة يلزم على العارف أن يعتبر بها.

ولذلك قال سيدنا المؤلف: (كل ولي يقول ويصول): أي يتكلم محجوبًا بالحجاب الآية التي تظهرك، صائلاً بالقوة التي تُعطى له، ذاهلاً عن التصرف الإلهي المحكم في شؤونات العبد وأحواله، فهو في حجاب القول الذي قاله، والصولة التي صال بها لا يزال وراء ذلك الحجاب بعيدًا بسببه عن الباب، حتى ينقهر تحت سطوة الربوبية، ويكشف بالانقهار لتلك السطوة العظيمة ذلك الحجاب، ويفيء إلى أمر الله، ويرجع بالانكسار إلى الله، فإذا فاء إلى أمر الله دنا بانكسار فتدلَّى بصدقِه إلى قاب قوسي المتابعة المحمدية والتخلق بأخلاق الحضرة الطاهرة النبوية.

وحينئذ تصح له رتبة العبودية، ومنزلة العبدية التي هي أكمل الرتب وأعلاها، وأشرف المنازل وأسماها، وأقربها من الله وأدناها، وأنورها لديه وأبهاها، وأعظمها وسيلة إليه سبحانه وتعالى وأقواها، وليس للخلق إلى الحق سبحانه وتعالى من طريقة مقربة سواها، وحسن ما ألهمته في معنى العبودية بفضل الله:

عُبُوديةُ المخلُوقِ تَعريفهَا ... تَنزِيهُ مَولاَنا عَنِ الغَيرِ
والذُّل لِلخَالِقِ في مُلكِهِ ... والصَّبر في الشَّرِ وفي الخَيرِ
فَهذِهِ طَريقةُ المصطَفَى ... وَمَن جَرَى مجرَاه في السَّيرِ

***

الحكمة الخامسة والستون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[كُلُّ مَنْ اكْتَحَلَ بِإثْمِدِ التَّوْفِيْقِ عَلِمَ الْيَقِيْنَ وَحَقَّ الْيَقِيْنِ، إنَّ الْمَبَاطِنَ وَالْمَظَاهِرَ تَحْتَ قَهْرِ الْبَاطِنِ الظَّاهِرِ، صَفَاءُ الْقَلْبِ وَالْبَصِيْرَةِ وَنَفَاذُ نُوْرِ الْبَصَرِ يَكُوْنُ مِنْ قِلَّةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ؛ لأَنَّ الْجُوْعَ يُزِيلُ التَّكَبُّرَ، وَالتَّعَاظُمَ، وَالتَّجَبُّرَ، وَبِهِ تَعْذِيْبُ النَّفْسِ حَتَّى تَصِيْرَ مَشْغُولَةً بِالْحَقِّ، وَمَا رَأَيْتُ شَيْئًا يكسرُ النَّفْسَ مِثْلَ الْجُوعِ قَطْ. وَأَمَّا الشِّبَعُ فَإِنَّهُ يُورِثُ قَسْوَةَ الْقَلْبِ وَظُلْمته، وَعَدَم نَفاذ نُوْرِ الْبَصِيْرَةِ، وتكثر بِسَبَبِهِ الْغَفْلَة.

رِعَايَةُ خَوَاطِرِ الْجِيْرَانِ أَوْلَى مِنْ رِعَايَةِ خَوَاطِرِ الأَقَارِبِ؛ لأَنَّ الأَقَارِبَ خَوَاطِرُهُمْ مَجْبُوْرَةٌ بِالْقَرَابَةِ والجيران؛ لأَنَّ الْقَلْبَ الْمنورَ يَمِيْلُ إِلَى صُحْبَةِ الصُّلَحَاءِ وَالْعَارِفِيْنَ، وَيَنْفرُ مِنْ صُحْبَةِ الْمُتَكَبِّرِيْنَ الْجَاهِلِيْنَ، مُعَامَلَةُ عِبَادِ اللهِ بالإحْسَانِ توصلُ الْعَبْدَ إِلَى الديان، والصَّلاَةُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ تُسَهِّلُ المرورَ عَلَى الصِّرَاطِ، وَتَجْعَلُ الدُّعَاءَ مُسْتَجَابًا، وَالصَّدَقَةُ تُزِيْلُ غَضَبَ اللهِ، وَالإِحْسَانُ لِلْوَالدين يُهَوِّنُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ.

صُحْبَةُ الأَشْرَارِ وَالْحَمْقَى والظلَمَة وَأَهْلِ الْحَسَدِ ظُلْمَةٌ سَوْدَاء، العَارِفُ مَنْ كَانَ عَلَى جَانِبٍ كَبِيْرٍ مِنْ سُلُوكِ طَرِيقِ الْحَقِّ مَعَ الْمُوَاظَبَةِ وَالاسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ، فَلاَ يَتْرُكهُ دَقِيْقَةً وَاحِدَةً].

أراد بقوله: (كل من اكتحل...) إلى آخر الجملة أن من جلا إثمد التوفيق عين بصيرته رأى كما يرى الرجل بعين بصره، وعلم علم اليقين وحق اليقين أن كل شأن مبطن، ومظهر خاضعة حركاته وسكناته، ومقيَّدة إشاراته وإراداته في بطونه وظهوره تحت قهر الباطن والظاهر جلَّت قدرته، وهناك يلتفت العاقل عن المبطن والمظهر إلى من أبطن وأظهر. وذكر المؤلف ﷺ أسباب جلاء القلب والبصيرة فقال: (صفاء القلب والبصيرة).

ثم بيَّن المؤلف ذلك بقوله: (ونفاذ نور البصر يكون من قلة الطعام والشراب)؛ وعلل ذلك بكون الجوع يزيل الكبر والتعاظم، ويعذب النفس حتى تصير مشغولة بالحق، وقد كان السلف الصالح يشتغلون بالله عن الطعام والشراب كما قيل:

لَهَـــا أَحَاديث مِن ذِكرَاك تشغلُهَا ... عَـــن الـــشَّرابِ وتُلهِيهَا عَن الزَّاد

قال صاحب آداب الاقطاب في الحديث: عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال: «**جاءت فاطمة رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ بكسرة خبز فقال: ما هذه الكسرة يا فاطمة؟ فقالت: صنعت قرصًا وخبزته ولم تطب نفسي حتى آتيتك منه بهذه الكسرة، فقال: أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام**(١)».

وكان سهل بن عبد الله يأكل في كل خمسة عشر يومًا أكلة، فإذا دخل شهر رمضان أفطر على الماء، ولا يأكل حتى يرى هلال شوال.

ودخل بعضهم على بعض الشيوخ فرآه يبكي فقال: ما لك؟ قال: إني جائعٌ، فقال: ومثلك يبكي من الجوع؟ فقال له: اسكت، أما علمت أنه أراد من جوعي أن أبكي.

وقد نبَّه سيدنا المؤلف على أن الشبع يورث قسوة القلب وظلمته، ويمنع نفاذ نور البصيرة، وتكثر بسببه الغفلة، وقد كان أئمة القوم كلهم على ذلك.

قال صاحب آداب الأقطاب: قال أبو سليمان الدراني(٢):

مفتاح الدنيا الشّبع، ومفتاح الآخرة الجوع.

وقال يحيى بن معاذ: الجوع نور، والشبع نار، والشهوة مثل الحطب يتولد منه الاحتراق، فلا تطفأ ناره حتى تحرق صاحبه.

وقال: لئن أترك من عشاي لقمة أحب إلَيَّ من أن أقوم الليل كله.

وقال مالك بن دينار: من غلب شهوات الدنيا فذلك الذي يفر الشيطان من ظلّة.

وقال أبو علي الروذبادي: إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام: (أنا جائعٌ) فألزموه السوق ومروه بالكسب.

وقيل للشبلي: إن أبا تراب النخشبي قال: جئت في البرية فرأيتها كلها طعامًا فقال عبد له: فق به، ولو بلغ محل التحقيق كان كمن قال: أظل عند ربي فيطعمني ويسقيني.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١/٢٥٨)، وابن سعد في الطبقات (١/٤٠٠).

(٢) هو العالم الفاضل الشيخ الجليل أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني ﷺ وداريا قرية من قرى دمشق من بني عبس، وكان كبير الشأن في علوم الحقائق والورع، مات سنة خمس عشرة ومائتين، ومن كلامه ﷺ (لا ينبغي لفقير أن يزيد في نظافة ثيابه على نظافة قلبه بل يشاكل ظاهره باطنه).

لما شغل المصطفى ﷺ بمخاطبة مولاه، والتلذذ بذكراه سقي من معين الخطاب لذيذ الشراب، وشغل عن الغذاء برب الأرباب، قال: «**أظل عند ربي فيطعمني ويسقيني**[١]» انتهى.

ونبَّه سيدنا المؤلف ﷺ على رعاية خواطر الجيران أكثر من خواطر الأقارب؛ لأن خواطر الأقارب مجبورة بالقرابة، والجيران ليس لهم هذا الحظ، وهذا سر قوله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره**[٢]».

ثم بيَّن أن القلب المنور: أي المطهر من ظلمة الخبث المضيء بنور الاتباع يميل إلى صحبة الصلحاء والعارفين. وينفر من صحبة المتكبِّرين والجاهلين وذلك لسر قوله ﷺ: «**المرء مع من أحب وله ما اكتسب**[٣]».

ولما ورد أيضًا: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**[٤]».

ولقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان:١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

ثم بيّن سيدنا المؤلف أن معاملة عباد الله بالإحسان توصل العبد إلى الله، والصلاة على النبي ﷺ تسهل المرور على الصراط، وتجعل الدعاء مستجابًا، والصدقة تزيل غضب الله، والإحسان للوالدين يهوّن سكرات الموت، وصحبة الأشرار، والحمقى، والظلمة، وأهل الحسد ظلمة سوداء، ولكل جملة مما ذكر دليل من سنة النبي ﷺ.

قال ﷺ في العباد الذين يعاملون الخلق بالإحسان، ويقومون بقضاء حوائج الناس ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما: «**إن لله تعالى عبادًا اختصَّهم بحوائج الناس، تفزع الناس إليهم في حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله**[٥]».

---

(١) رواه أحمد (٢/٢٥٣)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢/٣٣٠).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٥/٦٨)، وابن ماجة (٢/١٢١١)، والقضاعي في الشهاب (١/٢٨٦).

(٣) ذكره ابن حجر في فتح الباري (١٠/٥٦٠).

(٤) رواه البيهقي في الشعب (٧/٥٥)، وأبو نعيم في الحلية (٣/١٦٥)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/٢٦٣).

(٥) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/١٩٢).

وغير خاف أن من جعله الله آمنًا من عذابه فقد أدخله في أوليائه وأحبابه بشاهد قوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، وجاء في الصلاة عليه عنه ﷺ أنه قال: «من صلّى عليَّ صلاة واحدة صلّى الله عليه بها عشر صلوات، وحطَّ عنه عشر خطيئات ورفع له عشر درجات(١)».

وقال ﷺ: «من صلّى عليَّ حين يصبح عشرًا وحين يمسي عشرًا أدركته شفاعتي يوم القيامة(٢)» وغير ذلك مما لا يحصى.

ومما وفقني الله إليه قولي في كتابي (ضوء الشمس):

ومن العلامات الدالة على محبته أيضًا كثرة الصلاة والسلام عليه وعلى آله الكرام وأصحابه العظام، وقد ورد الأمر بالصلاة والسلام على النبي ﷺ في الكتاب العزيز فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [الأحزاب:٥٦].

وفي هذه الآية الكريمة دليل قاطع وبرهان ساطع على أن هذا النبي المكرم والرسول المعظم ﷺ رفيع القدر في الملأ الأعلى وفي الملأ الأدنى؛ لأن الله تعالى أخبر عن الملأ الأعلى وهم الملائكة الكرام، بأنهم يصلون على سيد الآنام، ومصباح الظلام، وأمر الملأ الأدنى وهم المؤمنون بالصلاة والسلام عليه ﷺ، وأعظم من ذلك أنه معظم عند الله سبحانه وتعالى؛ لذلك أخبرنا سبحانه وتعالى بأنه يصلي عليه صلاة أحسن ما قيل فيها إن معناها العناية، لكن في كل محل بحسبه، فالصلاة من الله تعالى اعتناؤه بنبيه ﷺ بإعلاء قدره، وإظهار فخره، وإعلان شرفه، والثناء عليه، وإيصال كل خير وبر إليه، ومضاعفة تعظيمه وزيادة تعزيزه وتكريمه، والصلاة من الملائكة والآدميين تضرع إلى الله تعالى في أن يزيد عزه، وإكرامه، ويرفع قدره ومقامه، وهو سبحانه وتعالى ما زالت أفضاله لهذا النبي الكريم والرسول الرحيم متواصلة أبدًا الدوام لا يعتريها انقطاع ولا انقصام، ومع ذلك فقد أمر تعالى بالصلاة محضًا؛ لإظهار قدر نبينا المعظم ورسولنا المكرم ﷺ؛ ولتمحيض ذنوبنا وستر

---

(١) رواه ابن حبان (١٨٥/٣)، والحاكم في المستدرك (٧٣٥/١)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣٢٣/٢).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (١٦٨/٦)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٦١/١).

عيوبنا وتشريفنا، بجعلنا محلاً لصلاته تعالى علينا كما يُستفاد من الأحاديث الشريفة.

ونبّه سيدنا المؤلف على أن الإحسان للوالدين يهوّن سكرات الموت، وقد ورد الأمر الإلهي بذلك، وقد قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ [البقرة:٨٣].

ونبّه القرآن أيضًا على الإحسان للوالدين بالدعاء لهما، فقال تعالى على لسان عبده: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [نوح:٢٨]، ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء:٢٤].

وهذا كان دأب المرسلين العظام وأدبهم، ألا ترى كيف قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١]، وقال ﷺ: «**الجنة تحت أقدام الأمهات**[1]».

وقال ﷺ: «**ما على أحدكم إذا أراد أن يتصدق لله صدقة تطوعًا أن يجعلها على والديه إذا كانا مسلمين فيكون لوالديه أجرها، وله مثل أجورهما بعد أن لا ينتقص من أجورهما شيئًا**[2]».

وأما ما ورد في الصدقة فمنه قول النبي ﷺ: «**خير أبواب البر الصدقة**[3]».

وورد: الصدقة تدفع البلاء وتزيد العمر.

وفي حديث ابن أبي الدنيا: «**التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله تعالى، والعفو لا يزيد العبد إلا عزًا فاعفوا يعزكم الله، والصدقة لا تزيد المال إلا كثرة فتصدَّقوا يرحمكم الله ﷻ**[4]».

وقد نهى سيدنا المؤلف عن صحبة الأشرار والظلمة وأهل الحسد، على أن الطبع البشري كالماء يتلوّن بلون إنائه، وأهم ما حذّر منه سيدنا المؤلف صحبة الظلمة قال تعالى:

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (١١٦/٢)، والقضاعي في الشهاب (١٠٢/١)، وذكره المناوي في فيض القدير (٣٦١/٣).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (١٠٩/٤).

(٣) رواه الديلمي في الفردوس (١٨٠/٢)، والطبراني في الكبير (١٨٤/١٢)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٠/٣).

(٤) رواه ابن عدي في الكامل (٣٣٥/٢)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٣٨٤/١).

﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود:١١٣].

قال في الكشاف: وتأمَّل قوله: ولا تركنوا فإن الركون هو: الميل اليسير، وقوله: إلى الذين ظلموا: أي إلى الذين وجد منهم الظلم، و لم يقل إلى الظالمين.

وحكي أن الموفق صلَّى خلف الإمام، فقرأ بهذه الآية فغشي عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا في من ركن إلى من ظلم فكيف بالظالم.

وعن الحسن رحمه الله: جعل الله الدين بين لاءين: ولا تطغوا، ولا تركنوا انتهى.

فلا نشك أن الموفقين يحفظهم الله من صحبة الممقوتين، ويلهمهم التمسك بالصالحين.

وانظر كيف نبَّه المؤلف على أن العارف من كان على جانب كبير من سلوك الحق وهو اتباع النبي ﷺ في الحركات والسكنات؛ لأن سعادة الدارين لا تكون إلا بكمال الاقتداء به ﷺ، ومن انحرف عن طريق اتباعه فهو ظالم في طريقه.

قال تعالى: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤].

وقال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

وقال ﷺ: «من اقتدى بي فهو مني ومن رغب عن سنتي فليس مني[1]».

الحكمة السادسة والستون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[الصُّوْفِيُّ يَتَبَاعدُ عَنْ الأَوْهَامِ والشكُوك، وَيَقُولُ بوحدَانيَّة الله تَعَالَى فِي ذَاته وَصفَاته وَأَفْعَاله؛ لأَنَّهُ لَيْسَ كَمثْله شَيءٌ، يَعْلَمُ ذَلكَ علْمًا يَقينًا، لِيَخرج مِنْ بَاب العلْمِ الظَّنيِّ، وَيَخلَعَ منْ عُنُقه رِبْقَةَ التَّقْليْد، الصُّوْفِيُّ لاَ يَسْلُكُ غَيْرَ طَرِيْقِ الرَّسُولِ الْمُكَرَّمِ ﷺ، فَلاَ يَجْعَل حَرَكَاتَهُ وَسَكَنَاتَهُ إلاَ مَبْنِيَّةً عَلَيْه، الصُّوْفِيُّ لاَ يصرف الأَوْقَاتَ فِي تَدْبيْرِ أُمُور نَفْسه؛ لِعلْمِه أَنَّ الْمُدَبِّرَ الحَقُّ ﷻ، وَلاَ يَلْجَأ فِي أُمُورِه ويعُول عَلَى غَيْرِ الله تَعَالَى،

(١) رواه أحمد (٥/٤٠٩)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/١٩٣).

الصُّوْفِيُّ يَتَجَنَّبُ مُخَالَطَةَ الخَلْقِ مَهْمَا أَمْكَنَ؛ لأَنَّ الصُّوْفِي كُلَّمَا زَادَ اخْتِلاَطُهُ بِالخَلْقِ ظَهَرَتْ عيُوْبهُ، وَالْتَبَسَ عَلَيْهِ الأمر، وَإِذَا خَالَطَ البَعْضَ فَلْيَخْتَرْ لِنَفْسِهِ صُحْبَةَ الصَّالِحِيْنَ، فَإِنَّ المَرْءَ عَلَى دِيْنِ خَلِيْلِه، نفسُ الفَقِيْرِ مِثْل: الْكِبْرِيْتِ الأَحْمَر، لاَ يُصْرف إلاَّ بِحَقٍّ لِحَقٍّ، مَنْ لَمْ يَزِنْ أَقْوَالَهُ وَأَفْعَالَهُ وَأَحْوَالَهُ فِي كُلِّ وَقْت بالكتَاب وَالسُّنَّة وَلَمْ يَتَّهِمْ خَوَاطِرَهُ، لَمْ يثبُتْ عِنْدَنَا فِي دِيْوَانِ الرِّجَال، مَنْ عَلمَ مَا يَحْصَلُ لَهُ هَانَ عَلَيْه مَا يَبْذل، مَنْ اسْتَقَامَ بِنَفْسِه اسْتَقَامَ بِه غَيْره، كَيْفَ يَسْتَقِيم الظِّلُّ وَالْعُودُ أَعْوَجُ، الْفَقِيْرُ إِذَا كَسَرَ نَفْسَهُ وَذَلَّ وَانْدَاسَ، وَاحترقَ بنَارِ الشَّوْق وَالصِّدْق وَثَبَتَ فِي مَيْدَانِ الاسْتِقَامَة بَيْنَ يَدَي الله تَعَالَى صَارَ مَعْدَنَ الخَيْرَات، وَمَقْصَدَ المَخْلُوقَات، وَصَارَ كَالغَيْث أَيْنَمَا وَقَعَ نَفَعَ، وَيَكُون حِيْنَئِذٍ رَحْمَةً وَسَكِيْنَةً عَلَى خَلْقِ الله تَعَالَى]

أراد المؤلف ﷺ بقوله: (الصوفي يتباعد عن الأوهام والشكوك...) إلى آخر ما قال تنـــزيه الله سبحانه وتعالى في ذاته وصفاته وأفعاله.

وقد أجمع علماء الدين رضي الله عنهم على أن شرط صحة العبادات وجود الإيمان.

والإيمان في اللغة: التصديق.

وشرعًا: التصديق بما علم من الدين بالضرورة.

وقال ﷺ: «**الإيمان اعتقاد بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان**[١]».

فمن كان مؤمنًا موحدًا لله تعالى كما ذكر سيدنا المؤلف يخلع ربقه التقليد.

ولا يخفى أن العلماء اختلفوا فيمن آمن، وكانت عقائده بمجرد التقليد مع عدم النظر في علم العقائد، والوقوف على شيء من علم التوحيد.

فقال جماعة منهم كالأشعري والقاضي[٢] والأستاذ وإمام الحرمين: لا يكتفي بتقليده.

وحكى بعضهم الإجماع على ذلك، وعزاه بعضهم للإمام دار الهجرة سيدنا مالك ﷺ ونقل عن الجمهور عدم جواز التقليد في العقائد الدينية.

---

(١) رواه ابن حبان (٤٤١/١)، وذكره المناوي في فيض القدير (١٨٥/٣) بنحوه.

(٢) أي أبي بكر الباقلاني، صاحب التمهيد والإنصاف، والإرشاد في أصول الدين وغيرها.

والأبحاث الكلامية في هذا الموضع كثيرة، فعلى هذا صحَّ ما اشترطه سيدنا المؤلف على الصوفي الكامل من التباعد عن الأوهام والشكوك، والوقوف على هذا العلم النفيس؛ ليخلع من عنقه ربقة التقليد.

ثم قال: الصوفي لا يسلك غير طريق الرسول المكرم ﷺ على أن سلوك غير طريقة ﷺ إنما هو بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وقال صاحب الجوهرة:

وَكُلُّ خَيرٍ في اتّباعِ من سَلَف وَكُلُّ شَرٍّ في ابتداعِ مَن خَلَف

وقال النبي ﷺ: «**من أحيا سنتي فقد أحبَّني ومَنْ أحبَّني كان معي**[1]».

وقال: الصوفي لا يصرف الأوقات في تدبير أمور نفسه، وهذا هو الرضا بعينه، والرضا الذي عناه الشيوخ رضي الله عنهم اختلفت فيه أقوالهم.

قال صاحب آداب الأقطاب: قد أكثر المتصوفة في ذكر الرضا واختلفوا فيه.

فمنهم من قال: حال.

ومنهم من قال: مكتسب، فالراضي بالله لا يعترض على مقاديره.

قال أبو علي الدَّقاق: الرضا: ألا تعترض على الحكم والقضاء.

قال المشايخ: الرضا باب الله الأعظم- يعني من لزم الرضا- فقد لقي بالترحيب الأوفى وألزم بالتقريب الأعلى، فالرضا لا يقع من العبد إلا بعد الرضا عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

وقد جاء أن موسى عليه السلام قال: «إلهي دلني على عمل إذا عملته رضيت عني، فقال: إنك لا تطيق ذلك، فخرَّ موسى عليه السلام ساجدًا متضرعًا فأوحى الله تعالى إليه: يا ابن عمران رضائي في رضاك بقضائي[2]».

وقد سُئلت رابعة متى يكون العبد راضيًا؟ فقالت: إذا سرَّته المصيبة كما تسرُّه النعمة.

---

(١) رواه الترمذي (٤٦/٥)، والطبراني في الأوسط (١٦٩/٩).

(٢) لم أقف عليه.

وقيل للحسين بن علي رضى الله عنهما إن أبا ذر يقول: الفقر أحب إليّ من الغنى والسقم أحب إليّ من الصحة، فقال: رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من أتكل على حسن اختيار الله تعالى لم يتمنَّ غير ما اختاره الله ﷻ له.

وسُئل أبو عثمان عن قول النبي ﷺ: «اسألك الرِّضا بعد القضاء[1]»؟

فقال: لأن الرِّضا بعد القضاء هو الرِّضا.

وقال أبو سليمان الداراني: أرجو أن أكون عرفت طرفًا من الرِّضا لو أنه أدخلني النار لكنت راضيًا بذلك.

قال المحاسبي[2]: الرِّضا: سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

وقال الحريري[3]: من رضي بدون قدره رفعه فوق غايته.

---

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (١/٢٦١).

(٢) علم العارفين في زمانه وأستاذ السائرين، الجامع بين علمي الباطن والظاهر، شيخ الجنيد.

قال الذهبي: هو العارف شيخ الصوفية أبو عبدالله الحارث بن أسد البغدادي المحاسبي صاحب التصانيف الزهدية. من كتبه: الرعايا، وبدء الإنابة، وآداب النفوس، ودواء القلوب، والمراقبة، واليقين، والصبر والرضا، وفهم القرآن ومعانيه، ومائية العقل، ومحاسبة النفوس، والتوهم، وغيرها. توفي سنة ٢٤٣ هـ.

انظر في ترجمته: طبقات الصوفية (ص٥٦)، وحلية الأولياء (١٠/٧٣)، والرسالة القشيرية (٢/٣٦٧)، والوافي بالوفيات (٥/٧١٧)، وتهذيب الكمال (٢١٥)، وسير أعلام النبلاء (١٢/١١٠)، وشذرات الذهب (٢/١٠٣). وكتابنا الجنيد سيد الطائفتين (ص٥).

(٣) هو شيخ الصوفية أبو محمد الحريري، وقيل: الجريري، الزاهد قيل: اسمه أحمد بن محمد بن حسين، وقيل: عبدالله بن يحيى، وقيل: حسن بن محمد.

كان للأثقال حمولاً، وعن القواطع ذبولاً، وكان للحكمة عن غير أهلها صائنًا، وللمدعين والمكتسبين بها شائنًا. لقي السري السقطي، والكبار، ورافق الجنيد، وكان الجنيد يتأدب معه، وإذا تكلم في شيء من الحقائق قال: هذا من أبي محمد، فلما توفي الجنيد أجلسوه مكانه، وأخذوا عنه آداب القوم.

وانظر في ترجمته: تاريخ بغداد (٤/٤٣٠)، وحلية الأولياء (١٠/٣٤٧)، وطبقات الشعراني (١/١١٠)، وطبقات الصوفية (١)، (٢٥٩).

وقال أبو تراب النخشبي[١]: لا ينال الرِّضا من للدنيا في قلبه مقدار.

قال رسول الله ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا**[٢]».

وقال أبو عثمان: منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته، وما نقلني إلى غيره فسخطته انتهى.

ونبَّه سيدنا المؤلف على العزلة بقوله: الصوفي يجتنب مخالفة الخلق، إلى أن قال: وإذا خالط البعض فليختر لنفسه صحبة الصالحين.

قال: القوم العزلة صفة أهل الصفوة، وهي من أمارات الوصلة، والأولى بمن أراد العزلة أن ينوي بها كف شرِّه عن الناس، لا كف شرِّ الناس عنه؛ لأن الأول استصغار نفس، والثاني كبر.

وقال يحيى بن معاذ[٣]: الخلوة جلسة الصديقين.

وقال الشبلي[٤]: الإفلاس مجالسة الناس.

---

(١) صحب أبا حاتم العطار وحاتم الأصم، وهو من جملة مشايخ خراسان وكبارهم المشهورين بالعلم والفتوة والتوكل والزهد والورع، مات رحمه الله تعالى بالبادية سنة خمس وأربعين ومائتين.
انظر في ترجمته: حلية الأولياء (١٠/٤٥_٥١)، وطبقات الشعران الكبرى (١/٩٦)، والرسالة القشيرية (٢٢)، وطبقات الشافعية (٢/٥٥_٥٦)، وصفة الصفوة (٤/١٤٥)، والانتصار (ص ٤٢٢) بتحقيقنا.

(٢) رواه الترمذي (٥/١٤)، والبيهقي في الشعب (١/٢١٨)، وذكره المناوي في فيض القدير (٣/ ٥٥٧).

(٣) هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي الواعظ. يكنى أبا زكريا نزيل الري. تكلم في علم الرجاء وأحسن الكلام فيه، وروى الحديث. وتوفي فيما بين نيسابور وبلخ، وقيل: إنه مات في بعض بلاد جوزجان، وخرج يحيى إلى بلخ، وأقام بها مدة ثم رجع إلى نيسابور. ومات بها سنة ثمان وخمسين ومائتين. وانظر في ترجمته: طبقات الصوفية (١٤)، (ص١٠٧)، وحلية الأولياء (١/٥١)، والطبقات الشعرانية الكبرى (١/٩٤)، وتاريخ بغداد (١٤/٢٠٨)، وكتابنا في الجنيد (ص٤٩).

(٤) هو الولي الكامل العارف بالله تعالى أبو بكر بن دلف بن جحدر الشبلي، وقيل: اسمه جعفر ابن يونس كما حكاه الشيخ السلمي، كان إمام أهل الورع والأحوال، كان واليًا بنهاوند والبصرة، صحب الشيخ الجنيد والصناج والطبقة، وصار أوحد وقته علمًا وحالاً، تفقَّه على مذهب الإمام

وقال الجنيد: هذا زمان وحشة، فالعاقل من أثر فيه الوحدة.

وقال جماعة: من قوي على عزلة النفس فليعتزل، ومن اشتغل في الخلوة بنفسه وجلس معها فالأولى له الاجتماع على الناس.

ولهذا شرط سيدنا المؤلف على من أراد الاختلاط أن يختلط بالصالحين[1].

= مالك، وكتب حديثًا كثيرًا، وله كلامٌ كثيرٌ، منه: سهو طرفة عينٍ عن الله لأهل المعرفة شركٌ. وتوفّي قُدِّس سرُّه سنة أربعٍ وثلاثين وثلثمائةٍ، ودُفن بمقبرة الخيزرانِ. وانظر: كتابنا الإمام الجنيد سيد الطائفتين.

(١) قال ابن عياد في آداب العزلة: اعلم أيدك الله أنك إذا أردت الوصول إلى الله فاستعن بالله واجلس على بساط الصدق مشاهداً ذاكراً له بالحق ورابطاً قلبك بالعبودية المحضة على سبيل المعرفة ولازم الذكر والمراقبة والتوبة والاستغفار، فأنا أشرح لك هذه الجملة لئلا يقع الغلط فيها على سبيل الوصلة وهي أن تقول الله الله مثلاً أو ما شاء الله من الذكر مراقباً لقلبك بالتقوى بترك الدفع عن نفسك والجلب لما وتجد ذلك في آيتين من كتاب الله تعالى قوله عز وجل: ﴿أمَّنْ هذا الذي هو جُندٌ لكم ينصركم من دُون الرَّحمن﴾ الآية. فهذه الآية في الدفع.
وفي الجلب قوله تعالى: ﴿أمَّنْ هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ الآية.
ووصف الذكر أن تذكر بلسانك وتراقب قلبك فما ورد عليك من خير من الله قبلته، وما ورد عليك من ضده كرهته رجاءً إلى الله في الدفع والجلب كما وصفت لك وأحذرك أن تجلب لنفسك أو تدفع عنها شيئاً إلا بالله، فإن جاء من سرك شئ من ذنب أو عيب أو نظر إلى عمل صالح أو حال جميل فبادر إلى التوبة والاستغفار من الجميع أما من الذنب أو العيب فواجب شرعًا.
وأما من العمل الصالح أو الحالة الجميلة فبالغيبة واعتبر باستغفار النبي ﷺ بعد البشارة والتيقن بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر هذا في معصوم لم يقترف ذنباً قط وتقدس عن ذلك صلى الله عليه وسلم فما ظنك بمن لا يخلو من ذنب أو عيب في وقت من الأوقات.
وأما الجلوس على بساط الصدق فبتحقيق أوصافك من الفقر والضعف والعجز والذل، واجلس عليه ناظراً لأوصافه تعالى من الغنى والقدرة والعزة والقوة فتلك من أوصاف العبودية.
وهذه من أوصاف الربوبية والصدق ملازمة أوصافك ولا تنتقل عنها إلى ما ليس لك فتكون من الخائنين بقلب الحقائق وقل: يا غني يا قوي يا قدير يا عزيز من للفقير غير الغني ومن للضعيف غير القوي، ومن للعاجز غير القادر، ومن للذليل غير العزيز فأجلسني على بساط الصدق، وألبسني لباس التقوى الذي هو خير، وهو من آياتك واحجبني بعظمتك عن كل شئ هو لك، واملأ قلبي بمحبتك حتى لا يكون فيه متسع لغيرك إنك على كل شئ قدير. وانظر: المفاخر العلية (ص٣٣) بتحقيقنا.

وما أحسن ما قاله ذو النون المصري ﷺ:

وَلا عَـيش إلاّ مَـعَ رِجال قُلُوبِهِم   تَحِـنّ إلى التَّقوى وَتَرتَاح بِالذكرِ

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ: (من لم يزن أقواله وأفعاله..) إلى آخر ما قال يريد بذلك الانتباه من الرجل لأفعال نفسه، وخروجه من ساحة الغفلة، وتشييد بناء أفعاله على المحجة البيضاء شريعة النبي ﷺ، ودقق عليه بعد تنقية الأفعال بتنقية الخواطر القبيحة التي تشغل القلب عن ذكر الرَّب، وأوضح أن من لم يكن كذلك لم يثبت في ديوان الرجال، أحباب الله أصحاب القلوب الذين أطلعهم على غوامض الغيوب.

ولذلك قال سيدنا المؤلف: (من علم ما يحصل له هان عليه ما يبذل): أي من علم جليل ما يحصل له من الفتح الإلهي، والمقامات العليَّة القريبة من الله تعالى هان عليه، وقلَّ عنده ما يبذل لاستحصال ما تقدم ذكره من نقود الهمة، وبضاعة العزيمة التي ببركتها يصير مستقيمًا في نفسه، مقوّمًا لغيره.

فإن العبد إذا استقام بنفسه استقام به غيره وإلا فلا، أجل كيف يستقيم الظل والعود أعوج! الفقير إذا كسر نفسه: أي أنزلها عن نخوتها الكاذبة، وذلّ لله، وانداس بأرجل العبرة، واحترق بنار الشوق لربه، والصدق في حبّه، وثبت قدمه، وعلت همه في ميدان الاستقامة بصحة الإقامة بين يدي الله تعالى. صار معدن الخيرات، وكنـز المبرات، ومقصد المخلوقات، ومهبط الرحمات، وصار كالغيث المنسكب من معادن الرحمة أين وقع نفع بإذن الله.

ويكون حينئذ رحمة وسكينة على خلق الله تعالى، ويدخل في إعداد أحباب الله وأوليائه الذين يحبهم، ويحب من أحبهم، ويغار لهم ويصونهم، ألا هم القوم لا يشقى جليسهم رضي الله عنهم وجعلنا بفضله منهم.

الحكمة السابعة والستون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[رُبَّمَا اتُّبِعَ الكَاذِبُ وَهُجِرَ الصَّادِقُ، وَكَثُرَت طَقْطَقَةُ النِّعَالِ حَوْلَ المَغْرُورِيْن، وَتَبَاعَدَ النَّاس عَنْ المَتْرُوكِين، فَلاَ تَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ حَالُ النَّفْسِ تُحبُّ القبَّةَ المُزَيَّنَةَ،

وَالقَبْرَ المَنْقُوشَ، وَالروَاقَ الوَسِيْعَ، وَتَأَلّفَ الشَّيْخَ الكَبِيْرَ العمَامَة، الوَسِيْعَ الكَمِّ، الكَثِيْرَ الحشمَة، فَسَيِّرْ همَّةَ القَلْب لاَ همَّة النَّفسِ؛ لكَشْفِ هَذه الحُجُب. وَقُلْ بنَفسكَ: لَوْ رَأَيت رَسُولَ الله ﷺ عَلَى حَصِيرَة، وَقَدْ أثرت بجَنْبه الشَّرِيْف، وَرَأَيت أَهْلَ بَيْته رُضوَان الله وَسَلاَمه عَلَيْهِمْ، لاَ طَعَامَ لَهُمْ وَلاَ حشمَ، ثُمَّ رَأَيْت كسْرَى العجم عَلَى سرِيْرِه المُرَصَّع بالجَوَاهرِ وَاليَوَاقيْت، وَأَهْلَ بَيْته مستغرقين بالتَّرَف وَالنَّعِيْم، مُحَاطِينَ بالخَدَمِ وَالحَشمِ أَيْنَ تَكُونيْنَ؟ وَمَعَ أيِّ صَفٍّ تَنْصَرفيْنَ؟ فَلاَ بُدَّ إنْ وَفّقَهَا الله أَنْ تُحبَّ مَعيَّة رَسُولِ الله ﷺ وَأَهْلِ بَيْته، فَقَدْ بهَذَا الشَّأْنُ همَّة القَلْب إلَى أَهْلِ الحَال المُحَمَّدي تُحْسَبُ في حزْبِ الله، ﴿أَلاَ إنَّ حزْبَ الله هُمُ المُفلحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢]، وَإيَّاكَ أَنْ تَنْظُر حَال تَقَشُّفكَ شَيْئًا، فَإنَّ الجُوْعَ بلاَ مَعْرِفَة وَأَدَب مُحَمَّديٍّ وَصْفٌ منْ أَوْصَاف الكلاَب، فَارْفَعْ قَدْرَكَ بالأَدَب المُحَمَّديِّ إلَى مَرَاتب أَهْلِ الْوَصْلَة منْ صدُورِ القوْم، وَاقْطَعْ عَنْكَ رُؤيَا العَمَلِ، وَاطْمسْ حرُوفَ أَنَانِيَّتكَ فَإنَّهَا بَقيَّة إبْليسَ، وَكُنْ عَبْدًا مَحْضًا تَفُز بقُرْب سَيِّدكَ، وَكَفَى بالله وَليًّا]

أراد سيدنا المؤلف بقوله: (ربما اتبع الكاذب...) إلى آخر ما قال: انحطاط همّة المحجوبين بظواهر الأحوال والآثار عن الحقائق، وهم الذين تنصرف هممهم وراء النفوس، فلا يميزون بين مقاصد القلوب ومقاصد النفوس، فتنقاد هممهم لطقطقة النعال حول المغرورين، وترتبط غاياتهم بالقبب، والقبور، والعمائم، والجبب، والخدم، والحشم، وتقف عزائمهم عند ذلك فلا يفرقون بين الكاذب والصادق، والمبطل والمحق، وكل ذلك من أشراط الساعة، فحينئذ يلزم على العاقل أن يسيِّر همة القلب لا همة النفس؛ لأن همة القلب صادقة، وفيها من الفراسة بارقة، وهمة النفس كاذبة، وفي جميع مطالبها خائبة لكشف هذه الحجب الثقيلة بمهمة نيته الصادقة الجليلة، وألا يغتر بظواهر الأحوال، وأن يميز هذه الدقائق، ولا يقف إلا على الحقائق.

ويقول لنفسه: لو رأيت رسول الله ﷺ على حصير وأهله جياعًا، ورأيت كسرى على سرير مرصَّع بالجواهر وأهله بأنواع النعم.

فلا بدَّ إن وفّقت أن تكوني مع رسول الله ﷺ، وأهل بيته الكرام، فالزمي طريقة رسول الله ﷺ، فإنها أنجح الطرائق وأوضح الحقائق، وهذا الذي ذكرناه إلزام بترك الحرص على الدنيا، وكف الطرق عن ظواهر زينتها ومظاهرها الفانية.

وقد دخل عمر ﷺ على رسول الله ﷺ وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال:

«يا رسول الله لو اتخذت فراشًا أو ترضى هذا، قال: ما لي وللدنيا وما للدنيا وما لي، والذي نفسي بيده ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سافر في يوم صائف واستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها[١]».

وفي رواية أخرى أن عمر ﷺ لما رأى رسول الله ﷺ على الحصير كما تقدم قال له: **«يا رسول الله كسرى العجم مجوسي ينام على فراش الديباج، وأنت رسول الله لو اتخذت فراشًا فقال له ﷺ: ما لي وللدنيا... [٢]».**

وذكر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قال: لوح من ذهب مكتوب فيه: عجبًا لمن أيقن بالقدر كيف ينصب! عجبًا لمن أيقن بالنار كيف يضحك! عجبًا لمن يرى الدنيا بأهلها كيف يطمئن إليها! أنا الله لا إله إلا أنا محمد عبدي ورسولي.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: تُوفي رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رفٍّ لي، وقال لي: إني عرض عليّ أن تجعل لي بطحاء مكة ذهبًا فقلت: لا يا رب أجوع يومًا وأشبع يومًا، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرَّع إليك، وأمَّا اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك[٣].

وعن عائشة أيضًا رضي الله تعالى عنها وأرضاها قالت: «لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعًا قط، و لم يبث شكوى إلى أحد.

وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى، وأنه كان ليظل جائعًا يلتوي طول ليلته من الجوع، فلا يمنعه صيام يومه، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها، ورغد عيشها. ولقد كنت أبكي رحمةً له مما أرى به، وأمسح بيدي على بطنه مما أرى به من الجوع، وأقول: نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك، فيقول: يا عائشة ما لي وللدنيا، إخواني

(١) رواه البيهقي في الشعب (٣١١/٧)، وأبو نعيم في الحلية (٢٣٤/٤) بنحوه.
(٢) رواه ابن حبان (٢٦٥/١٤)، والحاكم في المستدرك (٣٤٤/٤) بنحوه.
(٣) رواه البخاري (٢٣٧٠/٥)، ومسلم (٢٢٨٢/٤) بنحوه.

من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم، فقدموا على ربهم، فأكرم مآبهم، وأجزل ثوابهم، فأجدني أستحي أن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غدًا دونهم، وما من شيء هو أحب إليّ من اللحوق بإخواني وأخلائي.

قالت: فما أقام بعد إلا شهرًا حتى توفي صلوات الله وسلامه عليه[1]».

هذا معنى ما قصده سيدنا المؤلف ﷺ من قوله بعد الجملة الأولى: (فقد بهذا الشأن همة القلب..) إلى آخر ما قال.

وأما قوله: (وإياك أن تنظر حال تقشفك..) إلى آخر الحكمة فإنه يسوق بذلك السالك إلى أدب الفتوى المعروف عند القوم.

وفي ذلك إشارة إلى ما وقع للشقيق البلخي ﷺ، فإنه سأل الإمام جعفر الصادق ﷺ وسلامه عن الفتوى فقال له الإمام: ما الفتوى عندكم؟

فقال شقيق: إن أعطينا شكرنا وإن منعنا صبرنا.

فقال جعفر الصادق ﷺ: والكلاب عندنا بالمدينة هكذا.

فقال شقيق: يا ابن رسول الله فما الفتوى عندكم؟

فقال: إن أعطينا آثرنا وإن منعنا شكرنا وصبرنا، فعلى هذا من تأدَّب بأدب أهل البيت المحمدي يرتفع قدره إلى مراتب أهل الوصلة المقربين من الله المحبين عنده.

وقد اشترط المؤلف ﷺ بعد ذلك: التجرد من رؤيا العمل، وطمس حروف الأنانية التي هي بقية إبليس، فإن إبليس لعنه الله قال في شان آدم: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢].

فقد نهى سيدنا المؤلف عن الاتصاف بصفة إبليس، وأمر السالك بالتزام العبودية المحضة الخالصة، التي هي سنة سيد المرسلين، وإمام المقربين ﷺ وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين أجمعين.

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (٣/٣٥٧)، وعياض في الشفا (١/١١٢).

الحكمة الثامنة والستون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[تَعلَّقَ النَّاسُ اليَوْمَ بأهْلِ الحرف، وَالكيميَاء، وَالوحْدَة، وَالشَّطْحِ، وَالدَّعْوَى العَرِيضَة. إيَّاكَ وَمُقَارَبَة مثْلِ هَؤلاَءِ النَّاس؛ فَإنَّهُمْ يَقُودُونَ مَنْ اتَّبَعَهُمْ إلَى النَّار، وَغضَب الجَبَّار، وَيُدْخلُونَ في دِيْنِ الله مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَهُمْ منْ جلدتنَا إذَا رَأيْتَهُمْ حَسبْتَهُمْ سَادَات الدُّعَاة إلَى الله تَعَالَى، حَسْبُكَ الله، إذَا رَأيْتَ أحَدًا منهُمْ قُلْ: يَا لَيْتَ بَيْني وَبَيْنكَ بُعْد المَشْرقَين. جَاهلٌ منْ أهْلِ هَذه الخرقَة يُلْحقَ يَدَكَ بيَد القَوْم، وَيَأمُرُكَ بذكْرِ الله، وَمُلاَزَمَةُ الكتَاب وَالسُّنَة خَيْرٌ مِنْ تِلْكَ الطَّائِفَة كلهَا، فرْ مِنْهُمْ كفرَارِكَ مِنْ الأَسَدِ، كَفِرَارِكَ مِنَ المَجْذُوم.

قَالَ حُذَيْفَةُ ﷺ: كَانَ النَّاسُ يَسْألُونَ رَسُولَ الله ﷺ عَنْ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أسْألَهُ عَنْ الشَّرِّ مَخَافَةَ أنْ يدركُني، فَقُلْتُ: «يَا رَسُولَ الله إنَّا كُنَّا في جَاهليَّة وَشَرٍّ، فَجَاءَ الله بهَذَا الخَيْر فَهَلْ بَعْد هَذَا الخَيْر منْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْد ذَلكَ الشَّر منْ خَيْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ وَفيْه دخن، قُلْتُ: وَمَا دخنهُ؟ قَالَ: قَوْمٌ يهدُونَ بغَيْرِ هَدْيي تَعْرِف منْهُمْ وَتنكر، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلكَ منْ شَرٍّ؟ قَالَ: دُعَاة عَلَى أبْوَابِ جهَنَّم، مَنْ أجَابَهُمْ إلَيْهَا قَذَفُوهُ فيْهَا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، صفْهُمْ لَنَا، قَالَ: هُمْ منْ جلدتنَا يَتَكَلَّمُون بألْسنَتنَا، قُلْتُ: فَمَا تَأمُرني إنْ أدْرَكَني ذَلكَ، قَالَ: تَلزم جَمَاعَةَ المُسْلمينَ وَإمَامهمْ، قُلْتُ: فَإنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إمَامٌ، قَالَ: فَاعْتَزلْ تلْكَ الفرَق كُلهَا، وَلَوْ أنْ تَعُضَّ عَلَى أصْلِ شَجَرَة حَتَّى يَأتيكَ المَوْت وَأنْتَ عَلَى ذَلكَ[1]».

هَذه وَصيَّةُ نَبِيِّكَ الأَمِيْنِ سَيِّدنَا وَسَيِّد العَالَميْن عَلَيْه صَلَوَات الله وَسَلاَمه، فَاحْفَظْهَا وَاعملْ بهَا]

أراد بقوله: (تعلق الناس اليوم بأهل الحرف والكيمياء..) إلى آخر ما قال: ميل الناس ومحبتهم لأصحاب المذاهب الباطلة، والأحوال الكاذبة، وكل طريق تُشم منه رائحة الدنيا، والباطل الذي تألفه النفس، ولذلك بعد أن عدد هذه المذاهب حذر من مصاحبة أصحابها،

(١) رواه مسلم (١٤٧٥/٣)، والبيهقي في الكبرى (١٩٠/٨) بنحوه.

ونهى عن التقرب منهم، وقال: إنهم يقودون من اتبعهم إلى النار؛ وعلة ذلك كونهم يدخلون في دين الله ما ليس منه، وذلك كالقول بأسرار الحروف والاشتغال بالكيمياء، وأين هي، وقد صدق الشاعر بقوله:

صَادَ الصَّديق وَكَاف الكِيمياء معًا لا يوجدانِ فَدَع عَن نَفسِكَ الطمعَا

وكالقول بالوحدة التي خاض بها بعض المتصوفة، فهووا والعياذ بالله، وانحرفوا عن طريقة الله وشريعة رسول الله ﷺ.

وكالشطح وهو التجاوز والتزحزح من محلٍّ إلى محلٍّ آخر.

وعلى اصطلاح الصوفية كلمات تصدر على لسان الرجل حالة غيبته، فيتعالى بها على أمثاله، وعلى من هو أعلى منه في مقامه وحاله.

وكالدعوى العريضة التي هي رعونة نفس تنشأ من الغرور، وخشونة الطبع، وعدم الفهم والاطلاع على حقيقة البشرية.

وبيّن سيدنا المؤلف أن أصحاب هذه المشارب، وأرباب هذه الطرق القبيحة، والمذاهب من جلدتنا: أي من النوع الإنساني المتزين بزي العلماء والصلحاء، بل إذا رأيتهم وشاهدت حسن أثوابهم، ولطيف عباراتهم، وغريب إشاراتهم، وما كنت من أصحاب الفهم المنيع، والعلم الوسيع، تحسب أنهم من سادات الدعاة إلى الله، ومن قادات المتمسكين بشريعة رسول الله، والحال هم بخلاف ظنك، يكفيك الله ويحفظك منهم.

إذا رأيت أحدهم تباعد عنه وأبغضه لله، ثم قل: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين.

واعلم أنك إذا ربطت يدك بيد جاهل من أهل خرقة القوم، وكان منتهى إرشاده لك أن يأمرك بذكر الله، وملازمة الكتاب والسُّنة، فهو خير لك من تلك الطائفة الدساسة المتحجبة كلها.

وحرصًا على السالك قال له سيدنا المؤلف: (فرَّ منهم): أي من هؤلاء المتحجبين، وأصحاب القول بالوحدة، وأرباب الشطح المردود، والدعوى الكاذبة، كفرارك من الأسد والمجذوم؛ لأن افتراس الأسد وتأثيره في تمزيق الجسد، وسريان الجذام في جثة الرجل أهون من أن يتمزق دينه، ويقع في ورطة الشرك بالله، حمانا الله، ثم استشهد على ما قاله بحديث

حذيفة ﷺ.

وفي النص النبوي والحديث المحمدي كفاية لمن حفته من الله العناية.

الحكمة التاسعة والستون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[وَإِيَّاكَ وَالتَّعَزُّز بالطَّرِيْق، فَإِنَّ ذَلكَ مِنْ سُوءِ الأَدَب مَعَ الله وَالخَلْق، وَإِنَّمَا بُنِيَ هَذَا الطَّرِيْق عَلَى التَّذَلُّل، فَإِنَّ القَوْمَ ذَلُّوا حَتَّى أَتَاهُم اللهُ بعزّ عَليٍّ مِنْ عنده، وَافْتَقَرُوا حَتَّى أَتَاهُم بِغِنًى مِنْ فَضْله، وَاحْذَرْ صُحْبَة الفِرْقَة الَّتِي دَأْبُهَا تَأْوِيل كَلِمَات الأكَابر، وَالتَّفكه بحكَايَاتِهِمْ وَمَا نُسبَ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّ أَكْثَر ذَلكَ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِمْ. وَمَا كَانَ ذَلكَ إلاَّ مِنْ عقَاب الله للْخَلْق، لَمَّا جَهلُوا الحَقَّ وَحَرصُوا عَلَى الخَيْر، فَابْتَلاَهُمْ اللهُ بأنَاس مِنْ ذَوِي الجُرْأَةَ السُّفَهَاء، فَأَدْخَلُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ أحَاديْث تُنَــزّه مَقَام رِسَالَته ﷺ عَنْهَا مِنَ المرغبَة وَالمرهبَة وَالغَامضَة وَالظَّاهِرَة.

وَسَلَّطَ اللهُ أَيْضًا أُنَاسًا مِنْ أَهْلِ البِدْعَة وَالضَّلاَلَة، فَكَذَبُوا عَلَى القَوْمِ وَالرِّجَال الأَكَابر، وَأدْخَلُوا فِي كَلاَمِهِمْ مَا لَيْسَ مِنْهُ، فَتَبعَهُمْ البَعْضُ، فَأُلْحقُوا بآخرينَ أعْمَالاً، فَعَلَيْكَ بِالله. وَتَمَسَّكْ للْوصُول إِلَيْه بذَيْلِ نَبيِّه ﷺ، والشَّرْع الشَّرِيْف نصب عَيْنكَ، وَجَادة الإجْمَاع ظَاهِرَة لَكَ، لاَ تُفَارِق الجَمَاعَة أَهْل السُّنَّة تِلْكَ الفِرْقَة النَّاجيَة، وَاعْتَصِمْ بِالله وَاتْرُكْ مَا دُونه، وَقُلْ فِي سِرِّكَ: أي سَيِّدي قولي:

فَلَيْــتَكَ تَحلُــو وَالحَــيَاةُ مريــرةٌ   وَلَيْــتكَ تَرضَــى والآنَــام غِــضَابُ
وَلَــيتَ الــذي بَينِي وَبَيــنك عَامرٌ   وَبَينِــي وَبَــين العَــالمين خَــرابُ
إِذَا صَــحَّ مِــنكَ الــودُّ فَالكُــلُّ هيِّنٌ   وَكــل الــذي فَــوق التُّــراب تُرَابُ

وَلاَ تَعْمَلْ عَمَل أَهْلِ اللغو، فَتَعْتَقد العصمَة فِي المَشَايِخ، أَوْ تَعْتَمد عَلَيْهِمْ فِيمَا بَيْنكَ وَبَيْنَ رَبكَ، فَإِنَّ اللهَ غَيورٌ لاَ يُحبّ أَنْ يَدْخلَ فِيمَا آلَ إِلَى ذَاته بَيْنه وَبَيْنَ عَبْده أَحَدًا.

نَعَمْ هُمْ أدلاَءُ عَلَى الله، وَسَائل إِلَى طَرِيْقه، يُؤْخَذُ عَنهُمْ حَال رَسُول الله ﷺ رَضيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، لتَوَسَّلْ إِلَى اللهِ أَنْ يَرْضَى اللهُ عَنهُمْ، لاَ يُخزِي اللهُ عِبَادَهُ الَّذِيْنَ

أَحَبَّهُمْ وَهُوَ أَكْرَمُ الأَكْرَمِينَ]

أراد سيدنا المؤلف ﷺ بقوله: (وإيَّاك والتعزز...) إلى آخر ما قال: إرشاد المريد إلى ترك التعزز، والتَّعالي على الخلق افتخارًا بعمله، وترفعًا على الناس بمجرد كونه من أهل الطريق، ودلَّه ﷺ على أن هذا الخلق من سوء الأدب مع الله والخلق وذلك؛ لتعززه بعمل مجهول القبول، ولسوء ظنه بالخلق، وقبح معاملته لهم برؤيا نفسه عليهم.

والحال أن هذا الطريق الذي عول عليه، وانتسب إليه بني على التذلل لله، والتواضع للخلق؛ لأن القوم رضي الله عنهم ذلوا لله، وألزموا أنفسهم البقاء على ذلك، حتى أتاهم الله بعز على من عنده لا من عند أنفسهم، وافتقروا إلى الله متجردين من رؤية الحول والقوة، حتى أتاهم بغنى من فضله لا من حولهم، ولا من طولهم.

ثم حذَّر سيدنا المؤلف كل سالك خالص من صحبة الفرقة والطائفة، التي جعلت دأبها وديدنها تأويل كلمات الأكابر، التي نقلت بالأسانيد الكاذبة عنهم، كالشطح المجاوز حد التحدث بالنعمة، والقول بالوحدة، وخرق بردة الشريعة بألفاظ لا يجوزها الظاهر وتفكهوا بمجرد حكاياتهم، وما نسب إليهم من الكرامات، مع الانحراف عن طريقتهم الصحيحة، والتباعد عن العمل بأخلاقهم المليحة.

والحال أن أكثر ما نُسب إليهم من الأقوال الغامضة، والكلمات المبطنة التي تحتاج للتأويل مكذوب عليهم، وكان ذلك من عقاب الله للخلق لما أهملوا العلم، وجهلوا الطريق الحق، وحرصوا مع الجهل على الخير، فابتلاهم الله عقابًا لهم بأناس من ذوي الجراءة على الله السفهاء، فأدخلوا على رسول الله ﷺ أحاديث موضوعة، تنـزه مقامه ﷺ عنها، وأدخلوا فيها من الكلمات المرهبة، والمرغبة، والأساليب، والأعاجيب الغامضة، والظاهرة.

وسلَّط الله أيضًا أناسًا من أهل البدعة والضلالة، فتجرأوا كذبًا وزورًا على طائفة القوم، وأدخلوا في كلامهم تقليدًا ما ليس منه، فتبعهم البعض من الجهلاء الذين لا يميزون بين الحق والباطل، فألحقوا بآخرين أعمالاً: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤].

ثم بعد ذلك أمر سيدنا المؤلف السالك بملازمة باب الله، وبالتمسك بشريعة النبي ﷺ، والتزام طريقة الإجماع، وعدم مفارقة أهل السُّنة والجماعة بصحة التوكل على الله، والرِّضا

منه والتسليم له، وتلا له أبياتًا من شعره المبارك، أشار بها إلى الانقطاع إلى الله تعالى أولها: (فليتك تحلو..) إلى آخر الأبيات، وقد تقدم ذكرها في الأصل.

ثم نهى السالك عن عمل أهل اللغو الذين ينسبون التأثير في الأفعال للشيوخ، ويعتقدون عصمتهم، وبين منـــزلة القوم وأنهم أدلاء على الله، وعنهم يؤخذ حال رسوله ﷺ، إن الله لا يخزي من توسَّل إلى الله بهم، بشرط ترك الاعتماد على المخلوق أدبًا مع الله، فإن الله غيور.

وقد أحسن سيدنا المؤلف ﷺ بيان هذه الحقيقة في كتابه (البرهان المؤيد) فقال:

إنكار بوارق الأرواح جهلٌ بمدد الفتاح، لا تعطيل لكلمة الله، الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، يتولى أمورهم وأمور مناديهم، ومن ينـــزل بناديهم حال حياتهم وبعد مماتهم بلحوق علم منهم، وبغير لحوق علم منهم، العبد إذا كان راحمًا يستر النائم، ولا يذكر له ذلك، يوصل الخير إلى الفقير ولا يعرفه الخبر، الله الرحمن الرحيم، العظيم، الكريم ينتصر لعبده الولي من حيث لا يدري، يرزقه من حيث لا يحتسب، تعصمه جبال عنايته من ماء غرق الأكدار، والاقتدار، تدفع عنه وعن محبيه الأقدار بالأقدار، لا به ولكن له التنـــزلات المحكمة، ليس لها من دون الله كاشفة، من اعتصم بالله عصم ومن وقف مع الأغيار ندم.

قال سيدي الشيخ منصور الربّاني ﷺ: الاعتصام بالله ثقتك به، وتنـــزيه خواطرك عن غيره، القوم أرشدونا دلونا على الطريق، كشفوا لنا حجاب الإغلاق عن خزائن درر الكتاب والسُّنة، عرفونا حكمة الأدب مع الله ورسوله، هم القوم لا يشقى جليسهم من آمن بالله، وعرف شأن رسوله أحبهم واتبعهم.

أي سادة القوم.. بايعوا الله بصدق النيات، وخالص الطويات على كثرة المجاهدات، وملازمة المراقبات والطاعات، والصبر على جميع المكروهات، وقال سبحانه وتعالى فيهم: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٢٣]، بادروا ركوب العزائم بالعزم، وقوة الحزم، فهجروا المنام، وتركوا الشراب والطعام، وقاموا لله بالخدمة في حنادس الليل والظلام، وخدموا بالخشوع والسهر والقيام، والركوع والسجود والصيام، وتملَّلوا في محاريبهم بين يدي محبوبهم؛ لنيل مطلوبهم، حتى وصلوا إلى مقام القرب، ومحل الأنس،

وظهر لهم سر قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف:٣٠]، فأعطاهم الله الدرجة العليا و المحل الأدنى.

ولا ريب فالقريب من القريب قريب، والمحب عند أحباب الحبيب حبيب حبيب لهم حبيب لمحبيهم، محبوب عند الله ترفعه بركة محبته إلى درجة المحبوبية ما شاء الله كان.

الحكمة السبعون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[اتْرُكْ الفضُولَ، وَانْقَطِعْ عَنْ العَمَلِ بالرأي، وَإِذَا أَدْرَكَكَ زَمَانٌ رَأَيْتَ النَّاسَ فِيْه عَلَى مَا قُلْنَاه فَاعْتَزِلْ النَّاسَ، فَقَدْ قَالَ ﷺ: «إِذَا رَأَيْتَ شحًا مُطَاعًا وَهَوَى مُتَّبعًا، وَأُعْجِبَ كُل ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَوَيْصَةِ نَفْسكَ[1]».

تَخَلَّقْ بِخُلُقِ نَبِيِّكَ، كُنْ لَيِّنَ العَرِيْكَةِ، حَسَنَ الخُلُقِ، عَظِيْمَ الحلمِ، وَفِيْرَ العَفْوِ، صَادِقَ الحَدِيْث، سَخِيّ الكفِّ، رَقِيْقَ القَلْبِ، دَائِمَ البشرِ، كَثِيْرَ الاحتمَالِ وَالإغْضَاء، صَحِيْحَ التَّوَاضعِ، مُرَاعِيًا للْخلْقِ، رَاعِيًا حَق الصُّحْبَة، مُتَوَاصِلَ الأَحْزَانِ، دَائِمَ الفكْرَةِ، كَثِيْرَ الذِّكْرِ، طَوِيْلَ السُّكُونِ، صَبُورًا عَلَى المَكَارِه، مُتَّكِلاً عَلَى الله، مُنْتَصِرًا بالله، مُحبًّا للفُقَرَاءِ وَالضُّعَفَاءِ، غضُوبًا لله إِذَا انْتُهكَتْ مَحَارِمَ الله كُلمَا وُجِدَتْ وَلاَ تَتَكَلَّف لما فقدت، وَلاَ تَأْكُل مُتَّكِئًا، وَالْبِسْ خَشِنَ الثِّيَاب كَي يَقْتَدِي بِكَ الأَغْنِيَاء، وَلاَ تَحْزَن لجَدِيْد ثِيَابكَ قُلُوبُ الفُقَرَاءِ، وَتَخَتمْ بِالْعَقِيْقِ، وَنَمْ عَلَى فِرَاشٍ حَشِيٍّ بالليف، أَوْ عَلَى الحَصِيْرِ، أَوْ عَلَى الأَرْضِ قَائمًا بسُنَّة نَبِيِّكَ ﷺ في الحَرَكَات وَالسَّكَنَات وَالأَفْعَالِ وَالأَقْوَالِ وَالأَحْوَالِ، حَسِّنْ الحَسَنَ، وَقَبِّحْ القَبِيْحَ، وَلاَ تجْلس وَلاَ تَقُم إِلاَّ عَلَى ذِكْرٍ، وَلْيَكُنْ مَجْلسكَ مَجْلس حلْمٍ وَعِلْمٍ وَتَقْوَى وَحَيَاءٍ وَأَمَانَة، وَجَلِيْسكَ الفَقِيرِ وَمُوَاكِلكَ المسْكِين، وَلاَ تَكُنْ سَخَابًا وَلاَ فَحَّاشًا، وَلاَ تَذم أَحَدًا وَلاَ تَتَكَلَّم إِلاَّ فِيْمَا تَرْجُو ثَوَابه، وَأَعْطِ كُلَّ جَلِيْسٍ لَكَ نَصِيْبَهُ، وَلاَ تَدَّخِر عَنْ النَّاسِ بِرَّكَ، وَاحْذَرْ النَّاسَ وَاحْتَرِسْ مِنْهُمْ، وَلاَ تَطْوِ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ بِشْرَكَ، وَلاَ تُشَافِه أَحَدًا بمَا يَكْرَه، وَصُنْ لِسَانكَ وَسَمَاعكَ عَنْ الكلاَمِ القَبِيْحِ، وَلاَ تنهر الخَادِمَ، وَلاَ تَرُد مَنْ سَأَلَكَ حَاجَةً إِلاَّ بِهَا أَوْ بِمَا يسر مِنْ

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٧/٥)، والبيهقي في الشعب (٨٣/٦) بنحوه.

الْقَوْلِ، وَإِذَا خُيِّرْتَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ فَاخْتَرْ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ مأثمًا، وَأَجِبْ دَعْوَةَ الدَّاعِي، وَتَفَقَّدْ أَصْحَابَكَ وَإِخْوَانَكَ، وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَلاَ تُقَابِلَ عَلَى السَّيِّئَةِ بِالسَّيِّئَةِ، وَقُمْ اللَّيلَ بَاكِيًا فِي البَابِ، وَطِبْ بِاللهِ وَحْده، وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا].

أراد بقوله ﷺ: (اترك الفضول...) إلى آخر الجملة: ترك الإسراف في المأكل والمشرب وغير ذلك مما اعتاده البشر كالكلام، والضحك وما أشبه ذلك قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف:٣١]، ومما يدل على الإيجاز في الكلام، وإقلاله ما هو مروي عن أبي أمامة أن النبي ﷺ كان إذا بعث أميرًا قال:

«**أقصر الخطبة وأقلّ الكلام، فإن من الكلام سحرًا**[١]».

ونبّه سيدنا المؤلف على عدم العمل بالرأى، وهو عندهم اتّباع ما طاب للنفس، وحسن عندها، وإن خالف المشروع، ويؤيد ذلك حديث: «**إذا رأيت شحًّا مطاعًا**[٢]...» إلى آخره.

وحرصًا على اتّباع المشروع، وترك الهوى والرأي قال سيدنا المؤلف للسالك: تخلّق بخلق نبيك: أي السيد العظيم علة المخلوقين، وسيد ولد آدم أجمعين، سيدنا ونبينا محمد رسول الله ﷺ.

ثم قال بعد قوله: (**تخلّق بخلق نبيك**): (**كن ليّن العريكة**) إلى آخر ما قال.

وإفادة ذلك أن كل ما ذكره كان من أخلاقه ﷺ.

فقد ثبت أنه ﷺ كان ليّن العريكة، حسن الخلق، بل أحسن الناس خلقًا، وكان حسن العشرة، كثير الأدب، سخي الكف.

قال البخاري: ما سُئل رسول الله ﷺ عن شيء فقال: لا.

وقال ابن عباس: كان ﷺ أجود من الريح المرسلة.

وعن أنس ﷺ أن رجلاً سأل النبي ﷺ فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى بلده وقال:

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٥٤/٨).

(٢) تقدم تخريجه.

أسلموا، أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة، وأعطى غير واحد مائة من الإبل، وأعطى صفوان مائة، ثم مائة، ثم مائة.

وهذه كانت حاله ﷺ، وقد رد على هوازن سباياها، وكانوا ستة آلاف، وأعطى العباس من الذهب ما لم يطق حمله.

وحُمل إليه تسعون ألف درهم، فوُضعت على حصيرٍ، ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

وجاءه رجلٌ فسأله فقال: ما عندي شيء ولكن ابتع عليّ فإذا جاءنا شيء قضيناه، فقال له عمر: ما كلفك الله ما لم تقدر عليه فكره النبي ﷺ ذلك، فقال رجلٌ من الأنصار: «**يا رسول الله أنفق ولا تخشى من ذي العرش إقلالاً، فتبسَّم النبي ﷺ، وعرف البشر في وجهه، وقال: بهذا أمرت**[1]».

قال أنس: كان النبي ﷺ لا يدَّخر شيئًا لغد، والأخبار الواردة في ما له ﷺ من الجود والكرم مشهورة عند العرب والعجم، معروفة عند سائر الأمم، وقد عقدت لها بابًا مختصرًا في كتابي: «ضوء الشمس».

وأما عفوه واحتماله ﷺ وصبره وما كان عليه من علو الجانب، وقبول عذر المعتذر فقد بلغ المنتهى الذي لا يطال، والموقع الذي لا ينال، وقد كان يقابل المسيء بالإحسان، وإذا صدر من قوم في شأنه ﷺ حال لا يناسب جليل قدره، وعظم مقامه الكريم يقول عافيًا ﷺ: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**[2]».

قال القاضي أبو فضل رحمه الله تعالى: انظر ما في هذا القول من جماع الفضل ودرجات الإحسان، وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم؛ إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم، حتى سامح وعفا ولم يقابلهم بالجفاء، ثم لم يكتفِ بذلك حتى منحهم بمحض الجود والعناية، فدعا لهم بالمغفرة أو الهداية فقال: (**اللهم اغفر**)، وفي رواية: (**اللهم اهدِ**)، وبيَّن انتسابهم إليه وخصوصيتهم لديه فقال: (**قومي**).

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (١٧٢/٢) بنحوه.

(٢) رواه البخاري (١٢٨٢/٣)، وابن حبان (٢٥٤/٣)، والطبري في التفسير (٣٦/١٢).

و لم يكتفي بجميع ذلك حتى أتى عنهم بالاعتذار، ورجاء عدم المؤاخذة على ما صنعوه من الأوزار، فقال: إنهم لا يعلمون.

وكان ﷺ صحيح التواضع، مراعيًا للخلق، أبرأ الناس من الكبر، وقد أمر ﷺ بالتواضع في أحاديث كثيرة من قوله ﷺ: «**تواضعوا وجالسوا المساكين تكونوا من كبراء الله تعالى، وتخرجوا من الكبر**(١)».

قال العلاّمة المناوي في قوله: تكونوا من كبراء الله تعالى: أي الكبراء عنده.

وصحَّ أنه ﷺ كان يقول: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**(٢)»، ويكفيه خطاب الله تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

وكان ﷺ متكلاً على الله منتصرًا به وجيء له برجل فقيل له: «**هذا أراد أن يقتلك، فقال ﷺ للرجل: لن تراع لن تراع، ولو أردت ذلك لم تسلّط علي**(٣)».

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرًا من مظلمة ظلمها قط ما لم تكن حرمة من محارم الله تعالى، وما ضرب بيده شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله تعالى، وما ضرب خادمًا ولا امرأة(٤).

ومما لخصته من كتب السُّنة ما منَّ الله عليّ بكتابته في كتابي: «حضرة الإطلاق في مكارم الأخلاق» وهو:

قال الجهابذة من أكابر هذا الدين رضي الله عنهم أجمعين: كان رسول الله ﷺ أوسع الناس عقلاً، وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم طبعًا، وأوفرهم علمًا، وأزيدهم زهدًا، وأشدهم في الله، وأغيرهم على دين الله، وأعبدهم لله، وأعفهم وأبعدهم عن مواضع الريب، وكان أشد الناس تواضعًا، وأقنع الناس وأكثر الخلق حياءً، وكان إذا وعظ الناس لا يصرح باسم أحد خشية أن يخجله، وإنما يقول: ما بال أقوام يفعلون كذا، وكان يؤاكل الفقراء

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٩٧/٨).
(٢) رواه البيهقي في الشعب (١٠٧/٥)، وأبو يعلى في المسند (٣١٨/٨).
(٣) رواه الطبراني في الكبير (٢٤٨/٢).
(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (١٢٦/٨) بنحوه.

والمساكين، ويفلي لهم ثيابهم، ويلبس ما وجد، ويأكل ما وجد، ويكرم أهل الفضل على اختلاف طبقاتهم، ويكرم أقاربه وأرحامه، ولا يقدمهم على من هو أفضل منهم.

ولا يجفو على أحد بقولٍ ولا فعل، ويغضب لله ويرضى لله، وإذا غضب لا يقاوم غضبه أحد، ولا يؤاخذه من أساء، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ويحب العفو والصّفح.

ويخرج إلى بساتين أصحابه فيأكل منها ويحتطب، ثم يحمل الحطب إلى بيته، وكان ﷺ يقبل عذر المعتذر، ويمزح مع الصبيان والنساء، ولا يقول إلا حقًّا، وكان لا يرتفع على خدمه في مأكل، ولا ملبس، بل يأكل هو وإيَّاهم في إناء واحد، ويلبسهم مثله.

وكان لا يحقِّر مسكينًا لفقره، ولا يهاب ملكًا لملكه، ويدعو هذا وهذا إلى الله ﷻ دعاءً واحدًا، وكان أرحم الخلق بالخلق، وكان إذا دعا الخادم و لم يجبه قال له: لولا خشية القصاص يوم القيامة لأوجعتك بهذا السواك، وكان ﷺ هيِّنًا ليِّنًا، ليس بفظٍّ ولا غليظ، رحيمًا بالخلق، وقد ترفع عليه الأصوات بالكلام الجافي فيحتمله، وإذا سئل أن يدعو على أحد عدل عن الدعاء عليه ودعا له، وما ضرب بيده قط امرأة، ولا خادمًا ولا غيرهما.

وكان لا يدعوه ﷺ أحد حرًّا كان أو عبدًا إلا وقام معه في حاجته؛ جبرًا لخاطره.

وكان ﷺ يجلس حيث انتهى به المجلس، وكان يجلس متوجِّهًا إلى القبلة، ويقول: إنه سيد المجالس، وكان يكرم كل داخل عليه ويؤثره بالوسادة التي تكون تحته.

وكان أكثر الناس تبسُّمًا.

وكان متواصل الأحزان، وكان حزنه لله خوفًا من الله لا لغرض من أغراض الأكوان.

وكان أعدل الناس يدور مع الحق حيث دار، لا تأخذه في الله لومة لائم، يصل لله، ويقطع لله، ويحب لله، ويبغض لله، ويقف عند حدود الله، وينتصر لله، ولا يعمل عملاً إلا لله، ويرى الحر والعبد والقريب والبعيد في الله سواء، يحب الفقراء والمساكين ويحنو عليهم، ويسلِّم في طريقه على الصبيان.

وكان يلاعب الحسن والحسين وربما أركبهما على ظهره ﷺ، ويمشي بهما على يديه

ورجليه، ويقول: «نعم الجمل جملكما، ونعم العدلان أنتما[١]».

وكان يبش في وجه جليسه، ويعطي كل جليس حظَّه من البشاشة حتى يظن ذلك الجليس أنه أكرم جلاّسه عليه وأحبهم إليه، وماذا نبسط من أخلاقه الشريفة المحمدية وخلقه القرآن، وقد وسع بخلقه الكريم العظيم الإنس والجان.

فَبَالغ وَأكْثر لَن تُحيط بِوَصفه ... وَأينَ الثُّريَّا مِن يَدِ المتَنَاوَل

قد علم كل ذي فهم من أرباب الخبرة بسيرة النبي ﷺ، العالمين بسُنَّته السَّنية أنه كان يلبس الخشن من الثياب، ويتختَّم بالعقيق، وينام على فراش حشي بالليف، وربما نام على الحصير ﷺ، ولا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، وإذا خُيِّر بين أمرين اختار أيسرهما ما لم يكن مأثمًا، فإذا ما ساق إليه سيدنا المؤلف، وحثَّ عليه كله من سنة النبي المعظَّم ﷺ، ولا ريب أن الواصلين إلى الله أحرزوا شرف الوصول ببركة اتباع هذا الرسول المقبول.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

وقال ﷺ: «عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار[٢]».

وعن عطاء في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]: أي إلى كتاب الله وسنة رسول الله تعالى ﷺ كيف لا وهو ﷺ بلّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، وكان آخر كلامه من الدنيا: «جلال ربي الرفيع فقد بلغت[٣]» ثم قضى أرواحنا له الفداء، فمن أراد الله به الخير في الدارين وفَّقه للتخلُّق بأخلاق نبيِّه سيد الكونين، جعلنا الله من المتمكنين في اتباعه، ومن أخصِّ المعدودين من خواص أتباعه آمين.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٥٢/٣).

(٢) رواه ابن حبان (١٧٩/١)، والبيهقي في الكبرى (١١٤/١٠).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٥٨/٣).

الحكمة الواحدة والسبعون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[قَالَ إِمَامُنَا الشَّافِعِيُّ ﷺ: مَنْ شَهِدَ فِي نَفْسِهِ الضَّعْفَ نَالَ الاسْتِقَامَةَ.

وَقَالَ: أَرْكَانُ المُرُوءَةِ أَرْبَعَةٌ: حُسْنُ الخُلُقِ، وَالتَّوَاضُعُ، وَالسَّخَاءُ، وَمُخَالَفَةُ النَّفْسِ.

وَقَالَ: التَّوَاضُعُ يُورِّثُ المَحَبَّةَ، وَالْقَنَاعَةُ تُورِّثُ الرَّاحَةَ.

وَقَالَ: الكَيِّسُ، العَاقِلُ الفَطِنُ، المُتَغَافِلُ.

وَقَالَ: إِنَّمَا العِلْمَ مَا نَفَعَ، فَاشْهَدْ نَفْسَكَ بِالضَّعْفِ وَالْفَقْرِ تَسْتَقِمَ، وَشَيِّدْ أَرْكَانَ المُرُوْءَةِ تُحْسَبُ مِنْ أَهْلِهَا، وَتَوَاضَعْ وَاقْنَعْ تَصِر مَحْبُوبًا مُسْتَرِيحًا، وَتَغَافَلْ تَكُنْ كَيِّسًا، وَخُذْ مِنَ الْعِلْمِ مَا يَنْفَعُكَ، إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى رَبِّكَ فَإِنَّ دُنْيَاكَ خَيَالٌ وَكُلُّهَا زَوَالٌ، وَاللهُ مُحَوِّلُ الأَحْوَالِ.

يَـا أَيُّهَـا المعـدودُ أَنفاسُـهُ   لا بُـدَّ يَـومًا أن يَـتِمَّ العَـدد
لاَ بُـدَّ مِـن يَـومٍ بِـلا لَيلَةٍ   ولَـيلَةٍ تَأتـي بِـلا يَـومِ غد

إِنَّ اللهَ طَوَى أَوْلِيَاءَ فِي بردِ سَتْرِه تَحْتَ قِبَابه، وَحَجَبَهُمْ عَنْ غَيْره، لاَ يَعْرِفهم إِلاَّ هُوَ. وَهَذَا إِلْزَامٌ بِحُسْنِ الظَّنِّ فِي الخَلْقِ، فَإِيَّاكَ وَسُوء الظَّنِّ بِأَحَد إِلاَّ إِذَا قَامَتْ لَكَ عَلَيْه حجَّةٌ شَرْعِيَّةٌ، فَرَاعِ شَرْعَ اللهِ مِنْ دُوْن انْتصَار إِلَى نَفْسكَ آخذًا بِالإِخْلاَص، مُتجردًا عَنْ غَرَضِ نَفْسكَ، وَمَرَضِ قَلْبِكَ، وَقَبِّحْ مَا قَبَّحَهُ الشَّرْعِ، وَحَسِّنْ مَا حَسَّنَهُ الشَّرْعِ، وَلاَ يَكُنْ قَوْلَكَ وَفِعْلَكَ إِلاَّ للهِ، وَإِذَا لَمْ تَقُمْ لَكَ حجَّةٌ شَرْعِيَّةٌ عَلَى الرَّجُلِ لاَ تَأْخُذ الخلق أَوْ تُؤَاخذهمْ بِالشُّبهَات، عَلَيْكَ بِحُسْنِ الظَّنِّ فَإِنَّ للهِ مَعَ الخَلْقِ مُضْمرَات أَسْرَار، يغَارُ عَلَيْهَا لاَ يَعْلَمهَا إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة:١٤٨]، فَلْتَكُنْ وَجهتكَ الحجَّة البَيْضَاء، شَرِيْعَة سَيِّدِ الأَنْبِيَاء عَلَيْه صَلَوَات الله وَسَلاَمه، وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا].

قال الشارح: أراد المؤلف ﷺ بقوله: (قال إمامنا الشافعي) إمام مذهبه أحد الأئمة الأربعة المجتهدين، ناصر السُّنة والدين، محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن

السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف جد النبي ﷺ، وشافع الذي نسب إليه الشافعي.

لقي النبي ﷺ وهو مترعرع وأبوه السائب أسلم يوم بدر، كان يوم بدر صاحب راية بني هاشم التي كان يُقال لها: (العقاب)، وكان لا يحملها إلا رئيس القوم فإن لم يكن حاضرًا حملها رئيس مثله، وكانت لأبي سفيان ولغيبة أبي سفيان في العير حملها السائب لاستجماعه أوصاف الرئاسة، وأسر في ذلك اليوم، وفدى نفسه ثم أسلم ﷺ، وأم الإمام الشافعي فاطمة بنت عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

وُلد ﷺ بغزة سنة خمسين ومائة على الأصح، ثم حُمل إلى مكة وهو ابن سنتين، ونشأ بها ﷺ، فلما سلمه أهله إلى المعلم ما كانوا يجدون أجرة المعلم، فكان المعلم يقصر في تعليمه، لكن كلما علم المعلم صبيًا شيئًا تعلم الإمام الشافعي ذلك الشيء بمجرد سماعه له، وأتقن القرآن لسبع سنين، وتفقّه في أول أمره على مسلم بن خالد مفتي مكة، وأذن له مسلم المذكور بالإفتاء والتدريس وهو ابن خمس عشرة سنة، وحفظ الموطأ للإمام مالك في تسع ليال وهو ابن عشر سنين.

وكان ﷺ إمام الدنيا وعالم الأرض شرقًا وغربًا، جمع الله له من العلوم والمفاخر والمناقب والمآثر ما لم يجمع لإمامٍ آخرٍ، وانتشر له من الذّكر والعلم والفضل الباهر ما لم ينتشر لأحدٍ سواه، وبسبب ذلك حُمل عليه حديث: «**عالم قريش يملأ طباق الأرض علمًا**[1]»، ويحمل هذا الحديث الشريف عليه.

قال الإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة الدين رضي الله عنهم، وكان الإمام أحمد المشار إليه يقول: ما عرفت ناسخ الحديث ومنسوخه حتى جالست الشافعي.

وفضائل الإمام الشافعي أكثر من أن تُحصى، وقد أفردوا لها التآليف الكثيرة، وممن أفرد فضائله بالتأليف الأستاذ أبو منصور البغدادي، والحاكم، والأصفهاني، والبيهقي، والإمام داود الظاهري، والإمام الرازي، والإمام الخطيب البغدادي، والدارقطني، وإمام الحرمين، والزمخشري، والسبكي، والحجة القدوة ابن حجر، وخلائق كثيرون ما بين

---

(١) ذكره النووي في تهذيب الأسماء (٧٣/١).

متقدم ومتأخر.

وقال الإمام أحمد بن حنبل ﷺ: ما أعلم أحدًا أعظم منّة على الإسلام في زمن الشافعي من الشافعي.

وقال في شأنه أيضًا: كان الشافعي كالشمس في النهار، وكالعافية للناس.

فانظر: هل لهذين من خلفٍ أو عنهما عوض.

تُوفي ﷺ يوم الجمعة بعد العصر، سلخ رجب سنة أربع ومائتين، وله أربع وخمسون سنة، ودُفن في قرافة مصر في قبته المشهورة ﷺ.

نقل عنه سيدنا المؤلف ما تقدم ذكره من الحث على الاستقامة، وأنها لا تحصل للعبد إلا إذا شهد في نفسه الضعف.

وأن أركان المروءة: حسن الخلق، والتواضع، والسخاء، ومخالفة النفس، وأن التواضع يورث المحبّة، والقناعة تورث الراحة، وأن الكيِّس العاقل الفطن المتغافل، وكيف لا يكون كما نقل والنبي ﷺ يقول: «**حسن الخلق نصف الدين**[1]».

وقال ﷺ: «**حسن الملكة نماء، وسوء الخلق شؤم**[2]».

وقال: «**التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة**[3]» الحديث.

وقال ﷺ: «**السخي قريبٌ من الله، قريبٌ من الناس، قريبٌ من الجنة، بعيدٌ من النار**[4]» الحديث.

وقال ﷺ: «**القناعة مالٌ لا ينفد**[5]».

وقد صحَّ أنه ﷺ كان يسكت تغافلاً لا غفلةً عن أشياءٍ لا يضر السكوت عنها دينًا.

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (١٤٠/٢)، وذكره المناوي في فيض القدير (٣٨٤/٣).

(٢) رواه أبو داود (٣٤١/٤)، والطبراني في الكبير (١٧/٥)، والقضاعي في الشهاب (١٧٠/١).

(٣) ذكره المناوي في فيض القدير (٢٨٤/٣)، والعجلوني في كشف الخفاء (٣٨٤/١).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) رواه الديلمي في الفردوس (٢٣٦/٣)، والطبراني في الأوسط (٨٤/٧).

وحسن في هذا المعنى قول الشاعر:

لَيسَ الغَبي بِسَيِّدٍ في قَومِهِ   لَكِن سَيد قَومِهِ المُتَغَابِي

وقد أحسن سيدنا المؤلف بعد أن نقل عن الإمام الشافعي ما نقل، وأتقن عبارته، وزين إشارته فقال: خذ من العلم ما ينفعك إذا أقبلت على ربك؛ فإن دنياك خيال... إلى آخر ما قال.

فقد أتى ﷺ بنصيحة جده النبي المكرَّم ﷺ، فإنه قال ﷺ: «**إن الله تعالى يبغض كل عالمٍ بالدنيا جاهل بالآخرة**[1]»، فعلى هذا لزم على من طلب العلم أن يتعلم علم الآخرة الباقية قبل اشتغاله بعلم الدنيا الفانية؛ لأن الدنيا خيال وكلها زوال.

وحسن ما أورده سيدنا المؤلف في كتابه «البرهان» من الحث على ترك الدنيا، وبيان حقيقتها، وحال المرء فيها بما نصه:

إذا طبعت مرآة بصيرة القلب بتراكم صدأ الغفلة عن الرب توارت وجوه الحقائق عن بواطن الإفهام، وامتنع عنها إنفاذ نور الإلهام، فأظلم وجه البيان بتصاعد أبخرة الخيالات، وغمامات الأوهام، ما يغني الشمس عن المكفوف مع كمال إشراقها، وما له عيون تقبل منه نورها وبرهانها، وما يجدي فرط الإشراق مع ضعف الأحداق، نحن في موقف إشراق شمس القدرة، وعيون أفهامنا ضعيفة، وبغمامات الغفلة محتجبة.

فما لنا عيون تصلح لرؤية ذلك الجمال، ولا قلوب تحمل مهابة تلك العظمة وعزة ذلك الجلال، كلنا تجري بنا سبل الفناء، وتقذفنا في أغوار غايتنا المغيبة عنا، المحجوبة دوننا كلنا تجري سفن المنايا برياح حرصنا، وشراع أطماعنا في بحار آمالنا، وتقذفنا لجج آجالنا وهمومنا، موكلة بقضاء مهماتنا عن عاجل أمورنا، وأيدي الحوادث تتلاعب بنا، وهواتف الفناء تزعجنا.

النَّاسُ في غَفلاتِهِم   وَرَحَى المنيَّةِ تُطحَنُ
مَا دُونَ دائرة الرَّحَى   حِصنٌ لِمَن يتحَصَّنُ

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٢/٢٥٨).

كل يومٍ يُنادي ملك الموت من بين أيدينا ومن خلفنا: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء:٧٨]، وظلمات أجداثنا تنتظر ولوج أجسادنا، ونحن غرقى في غمرة غفلاتنا وسكرة شهواتنا.

فيا أيها العاقل إلى متى تصرف نفسك عن طريق النجاة إلى سبيل المعاطب والمهلكات! وتصرفها عن فسحة الطاعات إلى مضايق المخالفات، وتعرضها لما بين يديها، وتسقيها من كؤوس الخطيئات وأدناس السيئات، وتوردها موارد الفتن والآفات.

أي أخي العمر قصير، والناقد بصير، وإلى الله المصير[١].

وقد نبَّه سيدنا المؤلف في بقية ما أوردناه من جمل حكمه المباركة، أن الله طوى أولياءه في بردِ ستره تحت قبابه، يشير بذلك إلى الحديث القدسي وهو:

«**أوليائي تحت قبائي، لا يعرفهم غيري**[٢]».

وأوضح أن القصد من ستر الأولياء وكتمهم وإخفائهم تحت قباب العناية الربَّانية إنما هو إلزام كل أحدٍ من الناس، المشرفين باتباع النبي ﷺ، الداخلين في إعداد أمته المباركة بحسن الظن في بقية إخوانه المسلمين.

وحذَّرسيدنا المؤلف من سوء الظن بالناس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢]، ولقول النبي ﷺ: «**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا كما أمركم، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره**[٣]»، التقوى هاهنا كررها ثلاثًا، وأشار إلى صدره ﷺ.

وقيد المؤلف ﷺ موافقة الظن بقيام حجة شرعية ظاهرة تقوم على الرجل، وشرط لها مراعاة شرع الله مع التجرد من غرض النفس ومرض القلب، وأمر بعدم أخذ الخلق، ومؤاخذتهم بالشبهات أدبًا مع الله في خلقه، وعملاً بقول النبي ﷺ:

---

(١) انظر: البرهان المؤيد (ص٥٨).

(٢) ذكره المناوي في التعاريف (١/٦٧٦).

(٣) رواه أحمد (٢/٤٧٠)، والبيهقي في الكبرى (٨/٣٣٣).

«ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم،فإن وجدتم للمسلم مخرجًا فخلوا سبيله، فإن الإمام لأن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة[1]».

***

الحكمة الثانية والسبعون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[أَبَى الْعَقْلُ إِلاَّ إِعْقَال مَا بَلَغَهُ بوَاسطَة الفهْمِ، وَأَبَى القَلْبُ إِلاَّ التَّرَقِّي إِلَى مَا فَوْقَ الفَهْمِ، فَاجْعَلْ همَّتَكَ قَلْبِيَّة، وَحكْمَتَكَ عَقْلِيَّة تَفْلَح، فِي الكفِّ عِرْقٌ مُتَّصلٌ بالقَلْب إِذَا أخذَ به شَيءٌ مِنْ الدُّنْيَا تَسْرِي آفتهَا إِلَى القَلْبِ، وَهَذهِ آفَةٌ عَظِيمَةٌ مخفيةٌ، لاَ يَطَّلِع عَلَيْهَا الخَلاَئِقُ.

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِ خَطِيئَة[2]»، ازهدْ فِي الدُّنْيَا، وَتَبَاعدْ عَنْ لَذَائذهَا، وَإِيَّاكَ وَنَوْم الليلِ كَالدَّابَة؛ فَإِنَّ للهِ فِي اللَيلِ تَجَلِّيَات وَنَفَحَات يَغْتَنِمهَا أَهْلُ القِيَامِ، وَيحرم ثَمَرَتَهَا أَهْلُ التَّلَذذ بالمَنَام.

قُلْ لِلْمَغْرُورِ بِأَمْنِه، المُتَلَذذ بِنَوْمِهِ، المشْغُول القَلْبِ عَنْ رَبِّه:

يَا نَؤوم اللَّيلِ في لذَّتِه ... إِنَّ هَذَا النَّوم رَهن بِسَهَر
لَيس يَنسَاك وَإِن نَسيتَهُ ... طَالِع الدَّهرِ وَتَصريف الغَير
إِنَّ ذَا الدَّهرِ سَرِيع مكره ... إِن عَلاَ حطَّ وَإِن أوفَى غَدَر
أوثَق النَّاس بِه في أَمْنِه ... خَائف يَقرَع أبوابَ الحَذَر

المُشَاهَدَةُ: حُضُورٌ بمَعْنَى قُرْب مقرُون بعلْمِ الْيَقِينِ، وَحَقِّ اليَقِين، فَمَنْ حَمَاه الله منْ البُعْدِ وَالْغَفْلَةِ وَتَقَرب إِلَى اللهِ بِعِلْمِ الْيَقِين وَحَقِّ اليَقِين بِمَعْنَى: «اعْبُدْ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ،

---

(١) رواه الترمذي (٣٣/٤) بنحوه.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٨٨/٦)، وذكره المناوي في فيض القدير (٣٦٨/٣).

فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ[١]».

فَقَدْ دَخَلَ حَضْرَةَ الشهُودِ وَهِيَ هَذِهِ لاَ غَيْر، وَإِلاَّ فَالْمُشَاهَدَةُ لُغَةً لاَ تَصِحُّ لِمَخْلُوقٍ فِي هَذِهِ الدَّار، وَحَسْبُكَ قِصَّة مُوسَى عليه السلام.

حَضْرَةُ الْمُشَاهَدَة لُغَةً وَمَعْنًى: حَضْرَةٌ اخْتُصَّ بِهَا صَاحِبُ قَاب قَوْسَيْن بِالْقَلْبِ وَالْعَيْنِ، وَالاخْتِلاَفُ فِيهَا مَعْلُومٌ، وَاخْتِصَاصهُ بِهَا عِنْدَ أَهْلِ اللهِ مَجْزُومٌ.

فَأَدِّبْ نَفْسَكَ بِالتَّقَرُّب إِلَيْه تَعَالَى بِمَا يرضيه تُحْسَبُ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْحَضْرَة بِنَصٍّ: «لاَ يَزَال عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ... [٢]» الْحَدِيْثُ.

هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى، وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا]

قال الشارح: أشار سيدنا المؤلف رضي الله عنه بأول جملة من حكمه التي نصَّت آنفًا إلى أن العقل لا يتقيَّد في كل ما يلغه إلا إذا عقل بواسطة فهمه نتيجة ما بلغه، والقلب دأبه الترقِّي إلى ما فوق الفهم، فإن رسل القلب تتطلع إلى حظائر القدس، وتطلب العوالم المغيبة عن الأبصار، فمن ثم ألزم السالك أن يجعل همته في الطلب مستمدة من حال القلب، وحكمته في أثناء السير عقلية لا تتجاوز المعقول قولاً ولا فعلاً.

ثم أوضح أن في الكف عرقًا متصلاً بالقلب، متى اعتاد الكف أخذ الشيء من الدنيا سرت آفة حب الدنيا إلى القلب، فجعلته مستغرقًا، في طلب الدنيا معرضًا. حمانا الله عن طلب الحق.

وفي ذلك من الأخطار والبليات والمحن ما لا يُحصى، وذلك مؤيدٌ بحديث: «حب الدنيا رأس كل خطيئة[٣]».

وألزم بعد هذه النصيحة بالزهد، ولا يخفى أن الزهد من أشرف الأخلاق المقربة إلى الله والناس، بشاهد قول النبي ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد في ما في أيدي الناس

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/٢٠٢)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (١/١٦٤).

(٢) رواه البخاري (٥/٢٣٨٤)، وابن حبان (٢/٥٨)، والبيهقي في الكبرى (٣/٣٤٦).

(٣) تقدم تخريجه.

يحبك الناس[١]».

ثم حذَّر من نوم الليل، وأمر باغتنام ثمرة القيام فيه.

ولا يخفى ما في قيام الليل من البركات، وقد عقدت بفضل الله لقيام الليل بابًا مستطيلاً في كتابي «ضوء الشمس»، تضمَّن جملاً من الأحاديث النبوية، والآيات المعظمة القرآنية، مع بعض شواهد لطيفة من كلمات القوم الكرام، رضي الله عنهم، قلت فيه:

واعلم أن قيام الليل من أحسن القربات، وأعظم العبادات، ولذلك كان ﷺ لا يدع قيام الليل، وكان إذا مرض صلَّى قاعدًا، وكان يحث أصحابه على قيام الليل، ويقول:

«**لا تدعو قيام الليل ولو حلب ناقة أو شاة**[٢]».

وكان ﷺ يقول: «**طول القنوت يخفف سكرات الموت**[٣]».

وكان ﷺ يقول: «**قيام الليل فريضة على قارئ القرآن**[٤]».

وكان ﷺ يقول: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة صلاة الليل، وجوف الليل الأخير أفضل، وهو أقرب ما يكون الرب من العبد، فإن استطاع أحدكم أن يكون ممن يذكر الله تعالى في تلك الساعة فليكن[٥]».

وكان ﷺ يقول: «عليكم بقيام الليل؛ فإنه من دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى ربكم، ومنهاة عن الآثام، وتكفير للسيئات، ومطردة الداء عن الجسد[٦]».

وكان ﷺ يقول: «**شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس**[٧]».

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٩٣/٦)، وابن ماجه (١٣٧٣/٢).
(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٢١٢/٥) بنحوه.
(٣) لم أقف عليه.
(٤) رواه الديلمي في الفردوس (٢١٨/٣) بنحوه.
(٥) رواه الحاكم في المستدرك (٤٥١/١)، والبيهقي في الكبرى (٢٩١/٤) بنحوه.
(٦) رواه الترمذي (٥٥٢/٥)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥١/٢) بنحوه.
(٧) رواه الطبراني في الأوسط (٣٠٦/٤)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٢٤٣/١).

وكان ﷺ يقول: «عليكم بقيام الليل ولو ركعة[(١)]».

وكان ﷺ يقول: «قالت أم سليمان ابن داود عليهما السلام: يا بني، لا تكثر النوم بالليل؛ فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرًا يوم القيامة[(٢)]».

وكان أبو ذر ﷺ يقول: «أوحى الله تعالى إلى داود ﷺ: يا داود كَذَب من ادَّعى محبتي، فإذا جنه الليل نام عني[(٣)]».

وإذا جنه الليل بظلامه يقول الله تعالى: «يا جبريل حَرِّك أشجار المعاملة، فإذا حركتها قامت القلوب على باب المحبوب[(٤)]».

قال الفضيل بن عياض: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار، فاعلم أنك محرومٌ، قد كثرت خطاياك.

وقال الحسن ﷺ: إن الرجل ليحرم قيام الليل بذنبٍ وقع منه.

وقال سفيان الثوري: حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنبٍ واحدٍ، قيل: ما هو؟ قال: رأيت رجلاً يبكي فقلت: هذا مراء.

ولقد أحسن من قال :

أرَانِــي بَعِيدَ الدَّار لا أقرب الحِمَى ... وَقَــد نــصبَت لِلــسَاهِرِين خِيَامُ
عَلامَــةُ طَــردِي طُول لَيلِي نَائِم ... وَغَــيرِي يَــرَى أنَّ المَــنَام حَرَامُ

ومن لطائف ما يُحكى أن أبا يزيد البسطامي لما كان صغيرًا أرسله أبوه إلى المكتب، فكان يقرأ حتى وصل إلى سورة المزمل وقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [المزمل:٢،١].

قال لأبيه: من هذا الذي أمره الله بقيام الليل؟ فقال: يا بني هذا محمدٌ ﷺ، قال: فلِمَ لا

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٥١/٧)، وذكره الشوكاني في نيل الأوطار (٦٨/٣).
(٢) رواه البيهقي في الشعب (١٨٣/٤)، والديلمي في الفردوس (١٩٧/٣).
(٣) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤٢٤/١٤).
(٤) لم أقف عليه.

تفعل كما فعل محمد ﷺ؟ قال: ذاك أمرٌ شرَّف الله به محمدًا، فلما قرأ: ﴿وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل:٢٠]، قال: يا أبت من هؤلاء الطائفة؟ فقال له: هؤلاء أصحاب محمد ﷺ، فقال: ولِمَ لم تفعل كما فعل أصحاب محمد ﷺ؟

فقال: يا بني، قوَّاهم الله على قيام الليل.

فقال: يا أبت، لا خير فيمن لا يقتدي بمحمدٍ وأصحابه، فصار أبوه يصلّي قيام الليل، فقال: يا أبي، علمني صلاة الليل.

قال: يا بني أنت صغيرٌ، فقال: إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة، وأمر بأصحاب قيام الليل إلى الجنة أقول: يا رب أردت الصلاة بالليل فمنعني أبي.

فقال: يا بني قم الليل.

وبلغنا عن سيدنا المؤلف ﷺ أنه كان يقول:

تَعــود سَــهَرَ اللَّــيلِ فَــإنَّ الــنَّومُ خَــسرَان
ولا تَــركن إلى الــذَّنبِ فَعُقبَــى الــذَّنبِ نِــيرَان
وَقُــم لِلــوَاحِدِ الفَــردِ فَلِلقُــرآنِ خِــلاَّن
إِذَا جَهَــنم اللَّــيلِ فَهُــم فِي اللَّــيلِ رُهــبَان
يَــنَام الغَافِــل الــسَّاهِي وَمَــا فِي القَــومِ وســنَان
وَيَلهُــو المعــرِض اللاَّهِــي وَعِــندَ القَــومِ أحــزَان
فَمَــا يُلهِــيهِم ربــع وَلاَ أهــلٌ وَخِــلاَّن
هُــم وَالله فِتــيَان إِذَا مَــا قِــيلَ فِتــيَان

ثم عرَّف سيدنا المؤلف ﷺ المشاهدة التي عناها القوم أنها حضور بمعنى قرب، مقرون بعلم اليقين، وأن دخول حضرة الشهود يكون بعبادة تستجمع معنى:

«اعبد الله كأنك تراه[١]» الحديث.

وأوضح أن مشاهدة القوم عبارة عن هذا المقدار لا غير، وإلا فالمشاهدة اللغوية التي هي رؤية لا تصح لمخلوقٍ في هذه الدّار[٢].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال سيدي عبد الوهاب الشعراني: في شهود الطائفة رضي الله عنهم: الشهود الذي تقول به الطائفة ليس هو الرؤية بل هو غيرها، فهو الله تعالى مشهودٌ لنا في الدنيا غير مرئيٍّ، فلا يلتبس عليك الأمر.

ومن الفرق بين الرؤية والشهود: أن الشهود هو ما تمسكه من نفسك من شاهد الحق المشار إليه، بخبر: «اعبدَ الله كأنَّك تراهُ»، فإن في ذلك إدخال الحق في حكم الخيال، فقوله: (كأنك تراه) هو شاهد الحق الذي أقمته في نفسك، وهذه هي درجة التعليم، ثم يرتقي العبد من هذه الحالة إلى حالة الخصوص، وهو شهود كونه تعالى يراك ولا تراه، وذلك أنك إذا ضبطت شهوده تعالى في قلبك عند صلاتك مثلا فقد أخليت شهودك عن بقية الوجود المحيط بك، وإذا تحققت ذلك علمت عجزك عن رؤيته تعالى؛ لتقييدك وإطلاقه، وضيقك وسعته، فإذا عرفت ذلك بقيت مع نظره المحقق إليك لا مع نظرك إليه؛ لأن نظرك يقيِّده ويحدده، وهو المنــزَّه عن الحدود، فعُلم أنه لولا تخيل العقل الحق تعالى للأصاغر في القبلة ما تعلَّقوا من يتأدبوا معه، وأما الأكابر فلا يحتاجون إلى هذا التخيُّل، ولذلك كان القطب دائمًا خلف الحجاب لا يرى ربه حتى يموت، فافهم.

ومن هذا الفرق أيضًا بين الرؤية والشهود: أن الرؤية لا يتقدَّمها علمٌ بالمرئيِّ، بخلاف المشاهدة يتقدَّمها علمٌ بالمشهود، وهو المسمَّى بالعقائد، ولهذا يقع الإقرار والإنكار في الشهود حين التجلي الأخروي، ولا يكون في الرؤية إلا الإقرار.

وقال الشيخ ماء العينين: واعلم أن الشهود والمشهد بمعنى المشاهدة التي تحصل لأهل الله تعالى بسبب تجليه على قلوبهم، فيشهدون ذاته أو صفاته أو أفعاله على حسب استعداد المتجلى عليهم، وهذا الشهود إنما هو في القلب فقط دون البصر، فرؤية الباري تعالى بالبصر ممتنعة، وبالروح والقلب جائزة، ولذلك قال عمر ﷺ: «رأى قلبي ربي»، وقال علي ﷺ: «لا أعبد ربًّا لم أره»: أي بروحي انتهى.

وما يحصل للعين الجسماني من الرؤية في الجنة بعد الصفاء يحصل لبعض أهل الصفاء في الدنيا في اليقظة بالروح؛ إذ الدنيا والآخرة للروح الصافية سيان، والله الوهاب.

قال في المطالب الوفيَّة: والمشهور عند علماء الظاهر والباطن كالقشيري والغزالي وغيرهما أن الشهود والرؤية إنما هما في القلب بدون المقابلة في هذه الدار الفانية؛ لأن البصر فانٍ والحق باقٍ،
=

واستشهد بقصة موسى عليه السلام وهي حين طلب رؤيا ربه بما ورد على لسانه في القرآن العظيم؛ إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

قال المفسرون رضي الله عنهم: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾: أي اجعلني متمكنًا من الرؤية التي هي الإدراك.

قال: ﴿لَن تَرَانِي﴾ وذلك لتعاليه سبحانه وتعالى، وسمو صفاته عن أن تدركه الأبصار.

وقال: ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾: أي انظر إلى الجبل كيف أفعل به، وكيف أجعله دكًا بسبب طلبك الرؤية؛ لتستعظم ما أقدمت عليه، فإن استقرَّ مكانه وبقي ثابتًا فسوف تراني، تعليق لوجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه، فلما ظهر للجبل أمر الله وجلال قدرته جعله دكًا، وخرَّ موسى من هول ما رأى صعقًا: أي مغشيًا عليه غشية كالموت، فلما أفاق قال: سبحانك تبت إليك من طلب الرؤية، وأنا أول المؤمنين بأنك لست بمرئيٍّ، ولا مدرك بشيءٍ من الحواس.

وبيَّن سيدنا المؤلف رضي الله عنه بعد استشهاده بقصة سيدنا موسى عليه السلام أن حضرة المشاهدة لغةً: حضرة اختص بها صاحب قاب قوسين يعني سيد الكونين، وعلة الخافقين، وقرة كل قلبٍ وعينٍ صلى الله عليه وسلم.

ثم قال: الاختلاف فيها: أي المشاهدة التي هي الرؤية معلوم عند أصحاب الذِّكر

=

ولا يُرى الباقي بالفاني، فإذا كانوا يوم القيامة ركبوا تركيبًا باقيًا، فكانت أبصارهم باقية، فصحَّ أن يُرى الباقي بالباقي. ونحو هذا منقولٌ عن الإمام مالك وهو مستحسن.

واعلم أن هذه المقامات الثلاثة التي تقدَّمت عند القوم تُسمَّى جنات، فالأولى: جنة التنـزيه، والثانية: جنة التفريد، والثالثة: جنة الإجلال، ومن دخلها كلها أو بعضها لا يستغرب عليه ما يرى، وأحرى ينكر، وذلك من نحو رؤيته للمبصور مسموعًا وللمسموع مبصورًا، ومن شهوده للكون بارزًا من شيءٍ واحدٍ بداية ونهاية؛ لأن المرء في هذه الأحوال لم يكن بنفسه بل كان بربه، قال صلى الله عليه وسلم: «كنت سمعه الذي يسمع به..». وانظر: الميزان الذرية (ص٣٩)، ومنيل المآرب للبشر (ص٢٥) كلاهما بتحقيقنا.

العالمين بالسنة وأحكامها، واختصاصه يعني النبي ﷺ بها: أي برؤية الله تعالى قلبًا وعينًا عند أهل الله مجزوم لا ريب فيه، والخلاف الذي وقع إنما هو على قول عائشة الصديقة رضي الله عنها أن الرؤية كانت بعين القلب، واستدلّت بقول الله تبارك وتعالى:

﴿مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم:١١].

واستدلّ ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما على الرؤية بالعين بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:١٧]، وعلى ذلك جماعة من أعيان الصحابة وأهل البيت كلهم على هذا القول أيضًا، وهو الذي صحّ عند أهل الله رضي الله عنهم أجمعين.

ثم حث سيدنا المؤلف ﷺ على العمل بالنوافل، وبيّن أن العمل بالنوافل يدخل العبد في أصحاب حضرة القرب مستدلاً بالحديث القدسي، وهو: «لا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به.. [1]» إلى آخره.

الحكمة الثالثة والسبعون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[مَنْ تَمَشْيَخَ عَلَيْكَ فَتَلَمَّذْ لَهُ، وَمَنْ مَدَّ لَكَ يَدَهُ لِتقبِّلهَا فَقَبِّلْ رِجْلَهُ، وَكُنْ آخِرَ شَعْرَةٍ فِي الذَّنَبِ، فَإِنَّ الضَّرْبَةَ أَوَّل مَا تَقَعُ فِي الرَّأْسِ، إِذَا بَغَى عَلَيْكَ ظَالِمٌ وَانْقَطَعَتْ حِيْلَتُكَ عِنْدَ دِفَاعِه فَاعْلَمْ أَنَّكَ حِينَئِذٍ وَصَلْتَ بِطَبْعِكَ إِلَى صِحَّةِ الالْتِجَاءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، فَاصْرِفْ وَجْهَةَ قَلْبِكَ عَنْ غَيْرِه، وَأَسْقِطْ مُرَادَكَ فِي بَابِه، وَاتْرُكْ الأَمْرَ إِلَيْهِ تَنْصَرِف لَكَ مَادَّةُ المَدَدِ، فَتَفْعَلُ لَكَ مَا لاَ يَخْطُر بِبَالِكَ، وَهَذَا سِرُّ التَّسْلِيْمِ، وَصِدْقُ الالْتِجَاءِ إِلَى اللهِ، وَإِنْ ارْتَفَعَتْ هِمَّتُكَ إِلَى الرِّضَا بِالقَدَرِ، كَمَا وَقَعَ لِلإِمَامِ مُوسَى الكَاظِمِ سَلاَمُ اللهِ عَلَيْهِ وَرِضْوَانه، حِيْنَ اعْتَقَلَهُ الرَّشِيدُ غَفَرَ اللهُ لَهُ، وَحَمَلَهُ مِنَ المَدِيْنَةِ إِلَى بَغْدَادَ مُقَيَّدًا، وَحَبَسَهُ فَبَقِيَ فِي حَبْسِه، فَلَمْ يفرجْ عَنْهُ حَتَّى مَات ﷺ، وَأُخْرِجَ مَيِّتًا مَسْمُومًا، وَقَيْدُهُ فِيه، وَمَا انْحَرَفَ عَنْ قِبْلَةِ الرِّضَا حَتَّى مَات رَاضِيًا عَن اللهِ، فَتِلْكَ مَرْتَبَةُ الفَوْزِ العَظِيْمِ الَّتِي درجتْ مَا لاَ عَيْنٌ رَأتْ، وَلاَ أُذُن سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَر، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى

---

(١) رواه البخاري (٢٣٨٤/٥)، والبيهقي في الكبرى (٣٤٦/٣)، وابن حبان (٥٨/٢).

الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وَقَدْ الْدَرَجَ أَئِمَّةُ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيهِمْ سَلاَمُ اللهِ وَرِضْوَانه عَلَى الرِّضَا الخَالِصِ مَعَ قُوة الكَرَامَة، وَرِفْعَة القَدرِ عِنْدَ الله، فَقَدْ صَحَّ أَنَّ عَبْدَ الملك بن مَرْوَان الأموِي حَمَلَ الإِمَامَ عَلي زَيْن العَابدِين سَلاَم الله عَلَيْه وَرِضْوَانه مِن المَدِينَة مُقَيَّدًا مَغْلُولاً في أثقل قيود، وَأَغْلَظ غِلاَل، فَدَخَلَ عَلَيْه الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يوادعهُ، فَبَكى وَقَالَ: وَدِدْتُ أَنِّي مَكَانَكَ يَا ابْنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: تَظُن أَنَّ ذَلِكَ يكربني، لَوْ شِئْتَ لما كَانَ، وَإِنَّهُ لَيُذَكِّرني عَذَابَ الله تَعَالَى، ثُمَّ أَخْرَجَ يَدَيه وَرِجْلَيه مِن الْقَيْد ثُمَّ أَعادَهَا، فَعَلِمَ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ الإِمَامَ حَلَّ مَنْـــزِلَةَ الرِّضَا، وَوَصَلَ مَقَامَ التَّسْلِيمِ المَحْضِ، وَدَخَلَ حَضْرَةَ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ، فَطَابَ صَدْرُه وَسَلاَ حُزْنهُ، فزِنْ نَفْسَكَ فَإِنْ قَدرتَ عَلَى المَرْتَبَة العُلْيَا وَهِيَ رُتْبَةُ الرِّضَا فَافْعَلْ، وَإلاَّ فَانْزِلْ إِلَى المَرْتَبَة الثَّانِيَة الَّتِي هِيَ مَرْتَبَةُ صِدْق الالْتِجَاء إِلَى الله، مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ تَدْبِيْرِكَ وَحَوْلكَ وَقُوتكَ وَكُلِّكَ وَجُزْئكَ، وَهُوَ تَعَالَى يَفْعَلُ بِكَ بِنَصْرِهِ وَقُدْرَتِهِ فَوْقَ إِرَادتكَ وَتَدْبيرِكَ، وَكَفَى بِالله نَصِيْرًا.

إِذَا هَرَعْتَ إِلَى الله وَالْتجأْتَ إِلَيْه، فَاجْعَلْ وَسِيلَتَكَ حَبِيبه ﷺ، صَلِّ عَلَيْهِ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا، وَأَكْثِرْ مِن الصَّلاَة وَالسَّلاَمِ عَلَيْه مَهْمَا أَمْكَنَكَ، وَقِفْ في بَاب الله بِالْعَمَلِ بِسُنَّته ﷺ، وَاسْأَلْ اللهَ سُبْحَانَهُ مُعْتَمِدًا عَلَيْه تَعَالَى، مُسْتَعِيْنًا به مُتَوَكِّلاً عَلَيْه، وَإِذَا أُغْلِقَتْ عَلَيْكَ الأَبْوَابُ فَتَرَقَّب مِن الفَتَّاحِ فَتْحَ البَابِ، فَمَا سَدَّ الخَلْقُ طَرِيقًا إِلاَّ وَفَتَحَهُ الخَالِقُ انْفِرَادًا بربوبيته، وَتَعَزُّزًا بِأُلُوهيته، فَلاَ تَقْنَط مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلاَ تَيْأَس مِنْ روحِهِ، وَعَلَيْكَ بِهِ، وَكَفَى بِالله وَلِيًّا].

قال الشارح: أمر سيدنا المؤلف ﷺ السالك بالانخفاض، وترك الترفع، وهجر دعوى التشيخ، والترؤس، وبيَّن أن الضربة أول ما تقع في الرأس، وأرشد السالك إلى سرٍّ لطيف يكفيه عن الجند والجيش والأسلحة، إذا غالبه مغالبٌ أو بغى عليه ظالم، وانقطعت حيلته حين نزاعه وعند دفاعه، وهو أن يصرف وجهة القلب عن غير الله، وأن يسقط مراده في باب الله، مع ترك الأمر، وإسقاط التدبير، وإسقاط الحول والقوة؛ لصدق الالتجاء إلى الله تعالى، وهنالك تنصرف وتتوجه لنصرته نتيجة العون الإلهي، فتفعل له من الإغاثة والنصرة والانتقام من ظالمه ما لا يخطر له ببال.

ثم قال للسالك: وإن ارتفعت همتك إلى الرِّضا بالقدر، كما وقع للإمام موسى الكاظم سلام الله عليه ورضوانه، وذكر قصته مع الرشيد، وأردفها بقصة الإمام علي زين العابدين سلام الله عليه، فتلك مرتبة الفوز العظيم، وإن لم تقدر على مرتبة الرِّضا فانزل إلى مرتبة صدق الالتجاء، والله يفعل لك بنصره فوق إرادتك.

وقد سبقت الإشارة إلى الرِّضا، وما قاله المشايخ فيه، وملخصه:

عدم اعتراض العبد على مقادير الرب، وتلقي الحكم والقضاء بالترحيب الأوفى؛ اتكالاً على حسن اختيار الله تعالى له، وهذه أعلى المراتب، وهي مرتبة أئمة أهل البيت رضي الله تعالى عنهم.

وقد أشار سيدنا المؤلف إلى واقعة الإمام سيدنا موسى الكاظم مع هارون الرشيد أبي جعفر بن المهدي، أبي عبد الله محمد بن المنصور، أبي جعفر عبد الله بن محمد عليِّ بن حبر الأمة، وترجمان القرآن عبد الله بن العباس، عم النبي ﷺ، خامس الخلفاء العباسية ببغداد.

وتلك الواقعة هي أن سيدنا الإمام موسى الكاظم ابن سيدنا الإمام جعفر الصادق، ابن سيدنا الإمام محمد الباقر، ابن سيدنا علي زين العابدين، ابن سيدنا الإمام الحسين، ابن سيدنا الإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين، توجهت إليه قلوب الإسلام، واعتقده الخواص والعوام، فعظم ذلك على الرشيد، وظن السوء بالإمام ؓ، وخيلت له نفسه خروج الإمام عليه، واستدلَّ على ذلك بسعي بعض الكذابين، كما هي سنة الله في أحبائه.

فخرج الرشيد يريد الحج، فلما دخل المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، استقبله سيدنا الإمام موسى الكاظم في جماعةٍ من أهل البيت، فلما حلَّ مكان نزوله، واستقرَّ ومضى كل واحدٍ إلى سبيله، ذهب الإمام إلى مسجد النبي ﷺ على جاري عادته، فلما جاء الليل أمر به الرشيد، فأُخذ من المسجد، فقيَّده في تلك الساعة، وجعل له قبة على بغلٍ وسترها، وأدخله فيها، ووجهه مع خيلٍ له على طريق البصرة، وأوصى القوم الذين معه أن يسلموه إلى والي البصرة عيسى بن جعفر بن المنصور، فلما وصلوا البصرة سلموه له، فحُبس عنده سنةً، فبعد السنة كتب إليه الرشيد بأمره بقتله، فخاف الله وخشي بأس قلب رسول الله ﷺ، وكتب للرشيد كتابًا يقول له فيه:

يا أمير المؤمنين كتبت إليَّ في قتل موسى بن جعفر، وقد اختبرته طول مقامه في حبسي، فلم يكن منه سوء قط، ولم يذكر أمير المؤمنين إلا بخير، ولم يكن عنده تطلع للولاية، ولا خروج، ولا شيء من أمر الدنيا، ولا دعا قط على أمير المؤمنين. ولا على أحدٍ من الناس، ولا يدعو إلا بالمغفرة والرحمة له ولجميع المسلمين، مع ملازمته للصيام والصلاة والعبادة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يعفيني من أمره ويأمر بتسلمه مني، وإلا سرَّحت سبيله، فإني منه في غاية الحرج.

فلما بلغ الرشيد كتاب عيسى بن جعفر كتب إلى السندي بن شاهك أن يتسلم الإمام موسى الكاظم من والي البصرة عيسى بن جعفر، فتسلَّمه منه، وبقي في سجنه مدة، ثم بعد تلك المدة أمره الرشيد بقتله، فجعل له سمًّا في الطعام، وقيل: في رطبٍ، فأكل منه ثم أقام متوعكًا يومين أو ثلاثة أيام، وتُوفي شهيدًا مسمومًا ﷺ.

قال ابن الجوزي في كتابه «الصفوة»[1]: بعث موسى بن جعفر الكاظم إلى الرشيد من الحبس برسالة كتب فيها: إنه لم ينقضِ عني يوم من البلاء إلا انقضى معه يوم عنك من الرخاء، حتى نمضي جميعًا إلى يومٍ ليس له انقضاء، هنالك يخسر المبطلون.

وُلد الإمام موسى الكاظم بالأبواء سنة ثمان وعشرين ومائة، وتُوفي سنة ثلاث وثمانين ومائة لخمس بقين من شهر رجب، وله من العمر خمس وخمسون سنة، وكراماته ومناقبه وفضائله وفواضله لا تُعد ولا تُحصى، سلام الله عليه ورضوانه، وعلى ساداتنا آبائه الطاهرين، وأبنائه المكرَّمين أجمعين.

هذه القصة التي أشار إليها مولانا المؤلف ﷺ، ثم أتبعها بذكر قصة الإمام زين العابدين ابن الإمام الحسين السبط رضي الله عنهما، وذكر واقعته، وما ابتلاه الله به على يد عبد الملك بن مروان أحد ملوك بني أمية، وكيف حمله مغلولاً مقيَّدًا من المدينة إلى الشام، وكيف صبر ﷺ مع تلك المحنة مع قوة كرامته، وجليل منـــزلته، ولم ينحرف عن مرتبة الرِّضا حتى فرج الله عنه بفضله.

وقد حثَّ سيدنا المؤلف ﷺ السالك على الرِّضا، وإن لم يقدر فعلى صدق الالتجاء،

---

(١) انظر: صفة الصفوة (٢/١٨٧).

وأوضح أن الصلاة والسلام على النبي ﷺ مع العمل بسنته السنية، واتخاذه وسيلة إلى الله تعالى أعظم الأسباب لحصول الفرج، وأوضح للسالك أن أبواب الأسباب إذا غُلقت دونه بأيدي المخلوقين، فعليه أن يترقب فتحها من الفتاح المعين، فإن شأن ربوبيته تفردًا بها، وتعززًا بألوهيته الربَّانية، دأب إحسانه فتح الأبواب التي سدها الخلق رحمةً بالمظلوم، وقهرًا بالظالم، وأمر السالك ألا يقنط من رحمة الله تعالى، وأن ييأس من روحه إيمانًا به وتوكلاً عليه، وعملاً بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣]: أي يكفيه، هذا ما وعد الله عباده، والله لا يخلف الميعاد.

الحكمة الرابعة والسبعون

ثم قال سيدنا المؤلف ﷺ:

[التَّوْفِيْقُ فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ إِنَّمَا هُوَ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، دَعْ هَمَّ الحَسُودِ فَهَمُّهُ بكَ فَوْقَ هَمكَ به، خَلِ جَانب الأَحْمَقِ فَكَدَرُكَ به فَوْقَ كَدَره بنَفْسه، لاَزمْ مَجَالسَ الْعُقَلاَء، وَخُذْ الحَكْمَةَ أَيْنَ رَأَيْتَهَا، فَإِنَّ العَاقَلَ يَأْخُذ الحكْمَةَ لاَ يُبَالي عَلَى أيِّ حَائط كُتبَتْ، وَعَنْ أَيِّ رَجُلٍ نُقلَتْ، وَمنْ أَيِّ كَافرٍ سُمعَتْ، هَذه الدُّنْيَا خُلقَتْ للْعبْرَة، وَالْعبْرَةُ بِكُلِّ مَا فِيْهَا عقْل، فَخذْ بقوَّة عَقْلكَ العبْرَةَ مَنْ كُلِّ مَأْخَذ، وَاصْرِفْ نَظَرَكَ عَنْ محلّهَا.

إِيَّاكَ وَالتَّقَرُّب منْ أَهْلِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ التَّقَرُّبَ منْهُمْ يقسي القَلْبَ، وَالتَّوَاضُعَ لَهُمْ مُوْجبُ لغَضَب الرَّبِّ، وَتَعْظيمهمْ يزيدُ في الذُّنُوب، اتَّخذْ الفُقَرَاءَ أَصْحَابًا وَأَحْبَابًا وَعَظِّمهمْ، وَكُنْ مَشْغُولاً بخدْمَتهمْ، وَإذَا جَاءَكَ وَاحدٌ منْهُمْ فَانْتَصبْ لَهُ عَلَى أَقْدَامكَ، وَتَذَلَّلْ لَهُ، وَإذَا وَقَعَتْ خدْمَتُكَ لَدَى الْفُقَرَاء مَوْقعَ القبولِ فَاسْأَلْهُمْ الدُّعَاءَ الصَّالحَ، وَاجْتَهدْ أَنْ تُعَمِّر لَكَ مَقَامًا فِي قُلُوبِهِمْ؛ فَإِنَّ قُلُوبَ الفُقَرَاءِ مَوَاطنُ الرَّحْمَة، وَمَوَاقعُ النَّظَرِ القُدسيِّ.

وَصَفِّ خَاطركَ من الرعُونَات البَشَريَّة، وَمَنْ كَانَ لَكَ عَلَيْه حَقٌّ، أَوْ لَهُ عَلَيْكَ حَقٌّ، فَدَاره حَتَّى يُعْطيَكَ حَقكَ، أَوْ إِلَى أَنْ تُعْطيَه حَقَّهُ، وَإِنْ قدرت فَسَامحْ مَنْ لَكَ عَلَيْه حَقٌّ بعوضِ الله عَلَيْكَ، وَكُنْ مَعَ الخَلْقِ بالأَدَبِ، فَإِنَّهُ أَدَبٌ مَعَ الخَالقِ.

تُبْ بِكُلِّيَّتِكَ مِنْ رُؤيَةِ نَفْسِكَ وَنَسَبِكَ وَأَهْلِكَ، فَإِنَّ مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُه لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُه، قُمْ بِصِلَةِ رَحِمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، عَظِّمْ ذَوِي قَرَابَتِهِ، فَإِنَّ طَوْقَ مِنَّتِه فِي أَعْنَاقِنَا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى:٢٣].

صَحِحْ الحُبَّ لِجَمِيعِ أَصْحَابِهِ رِضْوَانُ اللهِ وَسَلاَمُه عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ مَصَابِيحُ الهُدَى، وَنُجُومُ الاقْتِدَاءِ.

قَالَ ﷺ: «أَصْحَابِي كَالنجُومِ، بِأَيِّهِمْ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ[١]».

خفْ اللهَ، خفْ اللهَ، رَأْسُ الحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللهِ، عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّهَا جِمَاعُ كُلِّ خَيْرٍ، هَذِه نَصِيحَتِي لَكَ.

أَيْ أَخِي أَخَذَتْنِي سَكرَةُ التَّعْلِيمِ إلاَّ أَنِّي جَرَّبْتُ الزَّمَانَ وَأَهْلَهُ، وَعَارَكتُ النَّفْسَ، وَخَدَمْتُ الشَّرْعَ، وَانْتَفَعْتُ بِصُحْبَةِ أَهْلِ الصفَا، فَاقْبَلْ نَصِيحَتِي، فَإِنَّهَا إِنْ شَاءَ اللهُ نَشَأَتْ بِإِخْلاَصٍ عَنْ حُبٍّ لَكَ، رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَه مِنْهُ.

أَيْ عَبْدَ السَّمِيعِ اعْمَلْ بِنَصِيحَتِي، وَلاَ تَرَانِي رَجُلاً، إِنْ قَالَ لَكَ قَائِلٌ: إِنَّ فِي مَمْلَكَةِ الرَّحْمَنِ مَخْلُوقًا هُوَ أَضْعَفُ مِنْ هَذَا اللاَّشِ أُحَيْمد فَلاَ تُصَدِّقْهُ.

بَلَى أَقُولُ: يَسرَ اللهُ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ الطَّرِيقَ، وَجَعَلَنَا وَإِيَّاكَ وَالمُسْلمينَ مِنْ المُصْطَفِينَ الأَخْيَارِ، وَالمُخْلصينَ الأَبْرَارِ، أَحْبَابِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ].

اشتملت هذه الجمل الكريمة، والحكم العظيمة، على فوائد نافعة، وعوارف جامعة، أوضح فيها سيدنا المؤلف ﷺ لزوم الاعتماد على الله؛ لأن التوفيق منه سبحانه وتعالى لا يتم للعبد بتدبيره وسعيه، إنما التوفيق بالتدبير والسعي يحصل بمحض كرمه تعالى لا غير، ثم بيَّن وجوب إهمال الحسود، على أن هم الحسود الذي يتجه حسده للرجل أعظم من هم المحسود بحاسده. ورحم الله القائل: لله در الحسد ما أعدله، بدا بصاحبه فقتله.

ويعجبني قول الشاعر:

وَإِذَا الفَتَـى بَلَـغ السمَاك بِفَضْلِه ... صَـارَت كَأَعْـدَادِ النُّجُوم عِدَاهُ
وَرَمَـوهُ عَـنْ حَسَدٍ بِكُلِّ نَقِيصَةٍ ... لَكِـنَّهُم لاَ يَنقُـصُونَ عَـلاَهُ

---

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٦٨٤).

وأرشد سيدنا المؤلف إلى ترك صحبة الأحمق؛ لأن صاحب الأحمق موثق بسلسلة الهم والكدر، بسبب الحمق الذي يشهده من صاحبه الأحمق أكثر من نفسه، ثم أمر بمجالسة العقلاء، ولا يخفى ما فيها من الفوائد، فإن العقلاء هم أهل الحكمة الذين أمرنا النبي ﷺ بمخالطتهم بحديث أبي جحيفة وهو: «**جالسوا الكبراء، وسائلوا العلماء، وخالطوا الحكماء**[1]».

ولهذا السر اتبع سيدنا المؤلف جملته الأولى بقوله: (وخذ الحكمة أين رأيتها) يريد بذلك أن الحكمة عند العقلاء، ويأمر بتلقي الحكمة من أي جانبٍ وردت، مع صرف النظر عن علو محلها وانخفاضه، وعظم قائلها واحتقاره، اتباعًا لما ورد: الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها؛ لأن هذه الذرات الموجودة خُلقت للعبرة، والله تعالى قال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر:٢].

فكما أن سيدنا المؤلف حث على العبرة نهى عن التقرب من أهل الدنيا، وهم الذين طمنهم الغفلة، وأشغلهم حب الآثار الظاهرة عن الاعتبار بها، وأرشد أن التقرب منهم يقسي القلب: أي يجلب له الغفلة على أن الجليس لا بدَّ أن يكون له ثمرة حظ من حال جليسه، وحذر من تعظيمهم والتواضع لهم؛ لأن ذلك لا يكون إلا من حبهم، أو من الاعتماد عليهم، وكلا الحالين خطير عند أهل المعرفة بالله.

وأمر باتخاذ الفقراء أصحابًا وأحبابًا، وحث على تعظيمهم وخدمتهم وجبر قلوبهم، ولا يخفى ما ورد في الحديث القدسي وهو: «**أنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلي**[2]»، فإذًا التقرب منهم وتعظيمهم من موجبات القرب من الله سبحانه وتعالى.

وأمر بمداراة الخلق عملاً بقول النبي ﷺ: «**بُعثت بمداراة الناس**[3]».

وألزم السالك بالتلطف، والانقياد لصاحب الحق، والصبر على من له عليه حق، ونهض همته إلى مسامحته إن أمكنته نفسه من ذلك تخلقًا بخلق النبي ﷺ.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/٣٩٤)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٢٥).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/٢٣٤) بنحوه.

(٣) رواه البيهقي في الشعب (٦/٣٥١)، وذكره المناوي في فيض القدير (١/٢٤٢).

ويؤيد ذلك قوله ﷺ لعمر رضي الله عنه حين اغتاظ من يهودي، له دَينٌ على النبي ﷺ، وأغلظ بطلب دَينه: «دعه فإن لصاحب الحق مقالاً».

وأمر بعد ذلك بالتوبة بالكلية من رؤية النفس والنسب والأهل، عملاً بحديث:

«من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه[1]».

وأراد إلزام السالك بتعظيم آل النبي ﷺ وصلة رحمه المبارك؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى:٢٣].

وقد كتبت بفضل الله تحقيقًا لطيفًا في معنى الآل في كتابي: (ضوء الشمس) قلت فيه:

ذكر العلاّمة شيخ المتأخرين الفاضل الباجوري أن آله ﷺ بنو هاشم وبنو عبد المطلب، وهو ما نسبه العلاّمة ابن قاسم للإمام الشافعي رضي الله عنه قال: واختار النووي أنهم كل مسلمٍ قال في مطالع المسرات.

قال الجوهري: واختلف في تعيين آله ﷺ على أقوالٍ كثيرةٍ، منها في مذهبنا المالكي سبعة أقوال مشهورها أنهم بنو هاشم ما تناسلوا، وهو قول ابن القاسم ومالك وأكثر أصحابه.

وفي «المدد الفياض» ما نصّه: هم من حُرِّمت عليهم الزكاة عند الشافعي.

قال الدلجي: ويؤيده قوله عليه السلام للحسين بن علي: «إنَّا آل محمد لا تحل لنا الصدقة[2]».

والأظهر أن المراد جميع أقاربه وأهل بيته أو جميع الأمة، ورجحه النووي في «شرح المهذب» انتهى.

قلت: والأحسن ألا يُطلق القول فيه، بل يُفسر باعتبار المقامات والقرائن، ففي مقام الزكاة بنو هاشم لا المطلب عند مالك، أو هما معًا عند الشافعي، أو هما وبنو جعفر وبنو العباس وبنو عقيل عند أبي حنيفة.

---

(١) رواه القضاعي في الشهاب (٢٤٥/١)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢٦٢/٢).

(٢) رواه أحمد (٢٠٠/١)، والطبراني في الكبير (٧٨/٣).

وفي مقام المدح انقياد أمته وفي مقام الدعاء، كما هنا جميع الأمة، وهذا الذي حققه العلاّمة الأمير علي عبد السلام.

ونقل الباجوري عن بعض المحققين ما يؤيده حيث قال: ينظر للقرينة، فإن دلّت على أن المراد بهم الأقارب حُمل عليهم، كقولك: اللهم صلِّ على سيدنا محمد، وعلى آله الذين أذهبت عنهم الرجس، وطهرتهم تطهيرًا.

وإن دلّت على أن المراد بهم الأتقياء حُمل عليهم، كقولك: اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله الذين اخترتهم لطاعتك.

وإن دلّت على أن المراد بهم كل مسلمٍ حُمل عليهم كقولك: اللهم صلِّ على سيدنا محمد، وعلى آله سكان جنتك.

والحاصل أنه لا يُطلق القول في تفسير الآل، بل يُعوَّل على القرينة، ويُفسر بحسبها انتهى.

ونقلت في كتابي المذكور أيضًا في بحث فضل الذرية الطاهرة ما يستحسن ذكره هنا، وهو: قد جاءت الآيات القرآنية بتعظيم العترة النبوية، والقرابة المحمدية.

قال تعالى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى:٢٣].

وقال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب:٣٣].

وعن زيد بن أرقم أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنشدكم الله في أهل بيتي ثلاثًا[١]»، قلنا لزيد: مَنْ أهل بيته؟ قال: آل علي ؓ، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس رضي الله عنهم.

وقال ؑ: «إني تاركٌ فيكم أمانين، إن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما[٢]».

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٣/٤٨٧) بنحوه.
(٢) رواه النسائي (٥/١٣٠)، والطبراني في الكبير (٥/١٦٦) بنحوه.

وقال ﷺ: «معرفة آل محمد براءة من النار، وحب آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من العذاب[(١)]».

قال بعض العلماء: معرفتهم هي معرفة مكانتهم من رسول الله ﷺ، وإذا عرفهم بذلك عرف وجوب حقهم وحرمته بسببه.

وعن عمر بن أبي سلمة ﷺ أنه قال: «لما نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣] وذلك في بيت أم سلمة، دعا رسول الله ﷺ فاطمة وحسنًا وحسينًا، فجللهم بكساءٍ وعلي خلف ظهره، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، فاذهب عنهم الرجس، وطهِّرهم تطهيرًا[(٢)]».

والمراد بالرجس: الذنوب والآثام، وما يشينهم في الدنيا ويوم القيامة، ولكونه ﷺ جللهم بكساءٍ سُمُّوا: (أهل الكساء) وهم المعروفون بأصحاب العباء، وفي حقهم يقول القائل:

لِي خَمسةٌ أُطفِئ بِهِم ... حَرَّ لَهِيبِ الحَاطِمَة
المُصطَفَى وَالمُرتَضَى ... وَابنَاهُمَا والفَاطِمَة

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ أنه قال لما نزلت آية المباهاة وهي قوله تعالى:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران:٦١].

دعا ﷺ عليًا وحسينًا وفاطمة رضي الله تعالى عنهم، وقال: «اللهم هؤلاء أهلي[(٣)]».

وقال ﷺ في عليٍّ ﷺ: «مَنْ كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ

---

(١) لم أقف عليه.
(٢) رواه الترمذي (٣٥١/٥)، والطبري في التفسير (٦/٢٢).
(٣) رواه مسلم (١٨٧١/٤)، والترمذي (٢٢٥/٥).

من عاداه[١]».

وقال فيه: «لا يحبك إلا مؤمنٌ، ولا يبغضك إلا منافقٌ[٢]».

وقال ﷺ لعمِّه العباس ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ورسوله، ومن آذى عمي فقد آذاني، وإنما عم الرجل صنو أبيه[٣]».

وقال أبو بكر ﷺ: «ارقبوا محمدًا في أهل بيته».

وقال أيضًا ﷺ: «والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلَيَّ من أن أصل من قرابتي».

وقال ﷺ: «أحبَّ الله مَنْ أحبَّ حسنًا وحسينًا[٤]».

وقال: «مَنْ أحبَّني وأحب هذين - وأشار إلى الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما- وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة[٥]».

وقال ﷺ: «مَنْ أهان قريشًا أهانه الله[٦]».

وقال ﷺ: «قدموا قريشًا ولا تقدموها[٧]».

وعن عقبة بن الحارث قال: رأيت أبا بكر ﷺ جعل الحسن على عنقه، وهو يقول: بأبي شبيه بالنبي ﷺ، وليس شبيهًا بعلي، وعلي ﷺ يضحك.

ورُوي عن عبد الله بن الحسين ﷺ أنه قال: أتيت عمر بن عبد العزيز في حاجة فقال: إذا كانت لك حاجة فأرسل إلَيَّ أو اكتب؛ فإني أستحي من الله أن يراك على بابي.

---

(١) رواه النسائي (١٣٤/٥)، وأحمد (٣٧٠/٥)، والحاكم في المستدرك (١٢٦/٣).
(٢) رواه الترمذي (٦٤٣/٥)، والطبراني في التفسير (٨٧/٥)، وأبو نعيم في الحلية (١٨٥/٤).
(٣) رواه الطبراني في الكبير (٢٨٤/٢٠) بنحوه.
(٤) رواه ابن حبان (٤٢٨/١٥)، والحاكم في المستدرك (١٩٤/٣) بنحوه.
(٥) رواه الترمذي (٦٤١/٥)، وأحمد (٧٧/١)، والطبراني في الكبير (٥٠/٣).
(٦) رواه أحمد (٦٤/١)، والطبراني في الأوسط (١٠٠/٦)، وابن حبان (١٦٦/١٤).
(٧) رواه البيهقي في الشعب (٢٢٨/٢)، وأبو نعيم في الحلية (٦٤/٩).

وعن الشعبي قال: صلَّى زيد بن ثابت على جنازة أمه، ثم قربت إليه بغلته ليركبها، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد: خل عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بالعلماء، فقبَّل زيد ابن عباس وقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت نبيِّنا ﷺ.

ورُوي أن الإمام مالكًا رحمه الله تعالى لما ضربه جعفر بن سليمان، ونال منه ما نال، وحُمل مغشيًّا عليه، فدخل عليه الناس فأفاق، فقال: أشهدكم أني جعلت ضاربي في حلٍّ، فسُئل بعد ذلك فقال: خفت أن أموت فألقى النبي ﷺ، فأستحي منه أن يدخل بعض آله النار بسببي.

وقوله: (ونال منه ما نال): أي من تجريده من ثيابه وسبه، وسبب ذلك أن جعفرًا بلغه أن الإمام مالكًا يقول: إن الإيمان في بيعة الخلف ليس لازمًا؛ لأن الناس يكرهونه، فغضب لذلك وأحضره وفعل به ما مرَّ.

وقيل: إن المنصور العباسي المشهور أمر أن يقتص لمالك من جعفر، فقال مالك: أعوذ بالله، والله ما ارتفع سوط عن جسمي إلا وقد جعلته في حلٍّ، وأبرأت ذمته لقرابته من رسول الله ﷺ.

وقال أبو بكر بن عياش: لو أتاني أبو بكر وعمر وعلي في حاجةٍ لبدأت بحاجة علي قبلهما؛ لقرابته من رسول الله ﷺ.

وعنه ﷺ: «مَنْ مات على حب آل محمد مات مؤمنًا، ومن مات على حب آل محمد مات شهيدًا، ومن مات على حب آل محمد بشَّره ملك الموت بالجنَّة، ومن مات على حب آل محمد فُتح له في قبره بابان إلى الجنة، ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزارًا لملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السُّنة والجماعة، ألا ومن مات على حب آل محمد يُزف إلى الجنة كما تُزف العروس إلى بيتها، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرًا، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة[1]». حكاه القرطبي في تفسير سورة الشورى.

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير (١٦/٢٣).

ثم رأيت المفسر الكبير العلاّمة الرازي الشهير نقل نحو هذا الحديث في السورة المذكورة عند قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]، ثم قال: رواه صاحب الكشاف، وقال: نفعنا الله به.

وأنا أقول: آل محمد ﷺ هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكل من كان أمرهم إليه أشد وأكمل كانوا هم الآل، ولا شكَّ أن فاطمة وعليًا والحسنين كان التعلق بينهم وبين رسول الله أشد التعلقات، وهذا كالعلوم بالنقل المتواتر، فوجب أن يكونوا هم الآل.

وأيضًا اختلف الناس في الآل، فقيل: هم الأقارب. وقيل: هم أمته.

فإن حملناه على القرابة فهم الآل، وإن حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضًا آل، فثبت على جميع التقديرات أنهم هم الآل، وأما غيرهم فدخولهم تحت لفظ الآل مختلفٌ فيه.

وروى صاحب الكشاف أنه لما نزلت هذه الآية قيل: «**يا رسول الله، مَنْ قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: علي وفاطمة وابناهما**[(١)]».

فثبت أن هؤلاء الأربعة أقارب النبي ﷺ، وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم، ويدل عليه وجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى:٢٣]، ووجه الاستدلال به ما سبق.

الثاني: لا شكَّ أن النبي ﷺ كان يحب فاطمة رضي الله عنها، قال ﷺ:

«**فاطمة بضعةٌ منّي، يؤذيني ما يؤذيها**[(٢)]».

وثبت بالنقل المتواتر عن محمدٍ ﷺ أنه كان يحب عليًا والحسن والحسين.

وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة حبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٣/٤٧)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٠٣).

(٢) رواه مسلم (٤/١٩٠٣)، والحاكم في المستدرك (٣/١٧٣).

ولقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور:٦٣].

ولقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

ولقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

الثالث: إن الدعاء للآل منصبٌ عظيمٌ، ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة، وهو قوله: (اللهم صلِّ على محمدٍ، وعلى آل محمدٍ..) إلى آخره.

وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل، فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجبٌ.

ومن كلام الشافعي ﷺ:

يَا رَاكِبًا قِفْ بِالمحصبِ مِن مِنى وَاهْتِفْ بِسَاكِنِ خيفهَا والنَّاهض
سحرًا إِذَا فَاضَ الحَجِيجُ إِلى مِنى فَيْضًا كَمَا نظم الفُرَات الفَائِض
إِنْ كَانَ رَفْضًا حُب آل مُحمَّدٍ فَلْيَشْهَد الثَّقَلان أَنِي رَافضي

وقد دَرج السلف الصالح على حُب آل رسول الله ﷺ، وإكرامهم، وتعظيمهم، وتبجيلهم، والاعتناء بشأنهم وشرفهم، والقيام بحقوق قرابتهم من رسول الله ﷺ.

ولله در الحسن بن هانئ القائل:

قَالَ لِي قَائِلٌ رَأَيتُك تَهْوَى آل طَـه وَدَائِمًا تَجتَبِيهِمْ
صَارَ فَرْضًا عَلَيكَ تَستَغْرِق المَد حَ جميعًا فِيهِم وَفِيمَن يَلِيهِمْ
قُلْتُ مَاذَا أَقُولُ والكَونُ طرًّا يستَمِد النَّوَال مِن نَادِيهِمْ
أَنَا لا أَستَطِيع أَمْدَح قَومًا كَانَ جِبرِيل خَادِمًا لأَبِيهِمْ

وما أحسن ما قاله فيهم الكميت بن زيد من قصيدةٍ طويلةٍ بائية، تضمنت ما يعذب

ذكره من مدح العترة النبوية وهو[1]:

طـربت وَمَا شَوقًا إِلى البِيض أَطْرَبُ ... وَلا لَعِبًا مِنِّـي وَذُو الشَّيبِ يَلعبُ
ولَـمْ تُلْهِـنِي دارٌ وَلا رسم منـزلٍ ... وَلَـم يَتطَربنِـي بَـنَانٌ مُخَـضَبُ
وَلا أَنـا مِمَّـن يَزجَـر الطَّيرِ هَمهُ ... أَصَـاح غُـرابٌ أم تعـرض ثعلبُ
وَلا السـانحات البَـارِحَات عَشِيةً ... أَمَـر سَلِيم القَـرن أم مرَّ أعضبُ
وَلَكِـن إلى أَهْـلِ الفَضَائِل والنُّهى ... وَخَـير بَـنِي حَـواء وَالخَير يُطْلَبُ
إِلى النفـرِ البِيضِ الـذين بِحُبِّهِم ... إِلى اللهِ فِـيْمَا نَـابَنِي أتقـرَّبُ
بَنِـي هَاشِـم رهْـط النَّبِـي وأنَّنِي ... بِهِـم وَلَهـم أرضِى مِرَارًا وَأغضبُ
خَفَـضت لَهُـم مِنِّي جنَاح مودَّتِي ... إلى كَـنَف عَطفَـاه أَهْل وَمرحَبُ
بِـأَيِّ كِـتَابٍ أم بِأيـة سُـنَّةٍ ... تُـرَى حُـبهم عَارًا عَلَيَّ وتحسبُ
ومَـا لِـي إلاَّ آل أحمـد شيعة ... ومَـا لِـي إلاَّ مشعب الحَق مشعبٌ
ومَـنْ غيرهِـم أرضِى لِنفسي شيعة ... وَمَـن بعدهم لا من أجل وَأرحبُ
إِلَـيْكم ذَوِي آل الـنبي تطلعتْ ... نَـوازعُ مِـنْ قَلْبِـي ظماءٌ وألبُ
وَجَـدْنا لكـم فِـي آل حـم آية ... تأوَّلهـا مِـنَّا تقـيٌّ ومعـربُ
فَإِنِّـي عَلَـى الأمرِ الذي تكرهونهُ ... بقـولي وفعلي ما استطعت لأجنبُ
يُـشيرون بالأيْـدي إلَـيَّ وقولهم ... ألاَ خَـابَ هَـذَا والمشيرون خيبُ
فطائفـةٌ قـد أكفـرتني بحـبهم ... وطائفـةٌ قالـوا مسـيءٌ ومذنبُ
يعيـبونني مـن غـيهم وضَـلالهم ... علـى حبِّكم بل يسخرونَ وأعجبُ
وقالـوا تـرا لي هـواهُ وديـنهُ ... بـذلك أدَّعـي فـيهم وألقـبُ
فَـلاَ زِلْـت فيهم حيث يتهمونني ... ولاَ زِلْـت فِـي أشياعهم أتقلبُ

---

(١) انظر: الأغاني (٣١/١٧).

أَلَمْ تَرَنِي فِي حبِّ آلِ محمدٍ أروحُ وأغدو خائِفًا أترقبُ
كَأنِّي جَانٍ محدثٌ وكأنَّما بِهِم يتقي مِن خشية العَرَا جربُ
عَلَى أيِّ جرمٍ أمْ بأية سيرةٍ أعنف في تقريظهم وأؤنبُ
أُناسٌ بهم عزّت قريش فأصبحوا وفيهم خباء المكرمات المطنبُ

وقد أمر سيدنا المؤلف ﷺ السالك بتصحيح الحب لجميع أصحاب النبي ﷺ، وقال: (إنهم مصابيح الاقتداء، ونجوم الاهتداء)، آخذًا بحديث: «**أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**[1]».

وأما الأصحاب رضي الله عنهم فهم جمع: صاحب.

والصاحب في اللغة: مَنْ طالت عشرتك به.

والمراد به هنا: الصحابي، وهو من اجتمع بالنبي ﷺ من المؤمنين بعد نوبته اجتماعًا متعارفًا.

وقد اجتمع سيدنا عيسى على نبيِّنا وعليه أفضل الصلاة والسلام بسيِّدنا محمد ﷺ في بيت المقدس بجسده وروحه فهو صحابيٌّ.

وكذا الخضر عليه السلام اجتمع بنبينا ﷺ اجتماعًا متعارفًا فهو صحابيٌّ أيضًا، ومن اجتمع به كذلك فهو تابعيٌّ.

واسم الخضر: بَلْيا بن مَلْكان، بفتح الياء وسكون اللام بعدها مثناة تحتية، و(ملكان) بفتح الميم وسكون اللام وآخره نون، وإنما لُقِّب بالخضر لأنه ما جلس على أرضٍ إلا اخضرَّت[2].

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٦/٢٩٧)، وابن حجر في لسان الميزان (٢/١٣٧).

(٢) قال وهب بن منبه: الخضر اسمه بلياء بن ملكان بن فالغ بن عابر بن سالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام.

واختلف في نبوَّته فقال الثعلبي في تفسيره: الخضر نبي معمر محجوب عن الأبصار، قيل له: إنك لا تموت إلا في آخر الزمان حين يُرفع القرآن.

=

قيل: مَنْ عرف اسمه واسم أبيه دخل الجنة.

واختُلف في نبوته فقيل: هو نبيٌّ، وقيل: هو وليٌّ.

وهو المراد بالعبد في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف:٦٥].

والمراد بالعلم الذي علّمه الله إياه المعبر عنه بالعلم اللدني: هو علم الحقيقة.

ومن ذلك ما وقع له مع موسى عليه السلام من قصة السفينة والغلام والجدار، وما فيها من اللطائف والأسرار.

=

واختلف في حياته أيضًا، والصحيح أنه حي.

قال ابن الصلاح: الخضر حي عند جمهور العلماء، وإنما شذَّ بإنكاره بعض المحدثين، وفي شرح مسلم عن الجمهور أنه حيٌّ موجود بين أظهرنا، وذلك متفق عليه عند السَّادة الصوفية، وأهل الصلاح والمعرفة، وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع به، والأخذ عنه، ووجوده في المواضع الشريفة أكثر من أن تُحصر، وأشهر من أن تُذكر.

وعن كعب الأحبار رضي الله عنه «أربعة من الأنبياء أحياء أمان لأهل الأرض: اثنان في الأرض: الخضر وإلياس، واثنان في السماء: إدريس وعيسى»، عليهم السلام أجمعين.

قال وهب: ولما قال الله تعالى لموسى عليه السلام: إن لي عبدًا من عبادي الذين لم أجعل للشيطان عليهم سبيلا، وأن مسكنه في جزيرة من جزائر البحر، فانطلق نحو البحر فإنّي أرشدك إليه، «فسار موسى ومعه فتاه يوشع بن نون عليهما السلام حتى وصلا إلى عين الحيَّات، وأحيا الله السمكة التي كانت مع يوشع؛ لأجل غدائهم، ونسي يوشع أن يخبر موسى، فسارا طويلاً حتى طلب موسى الغداء، فذكر يوشع حياة السمكة، فأخبره بها، فارتدا على آثارهما قصصًا، فوجداه يعبد الله، فسأله موسى عليه السلام المصاحبة، وكان منه ما قصَّه الله تعالى».

قيل عن مقامه الشريف: إنه في الجانب الأيمن من منبر الجامع النوري مقام الخضر عليه السلام: يعني كثيرًا ما يراه الصالحون هناك والله أعلم.

وقيل: إن مقامه بين المحراب والمنبر في الجامع الموسوم بالأحمر حتى قيل: إن مَنْ صلّى الصبح فيه أربعين صباحًا يجتمع فيه به والله اعلم.

وأنا أسأل الله الكريم أن ينفعني ببركاته، ويفيض عليّ من نفحاته، ويمن عليَّ بملاقاته، وأنّي لم أكن أهلاً لذلك المجد العظيم، والشرف، الجسيم ولو رؤيا منام، والله ذو الفضل العظيم.

واعلم أن أصحابه ﷺ أفضل من غيرهم من جميع ما جاء بعدهم؛ للأحاديث الكثيرة الصحيحة، والنصوص القطعية الصريحة، الواردة في علو شأنهم، ورفعة قدرهم، وتفضيلهم على غيرهم، كقوله ﷺ: **«أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم[1]»**.

وقوله ﷺ: **«إنَّ الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين[2]»**.

وروى الترمذي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضًا بعدي، فمن أحبَّهم فبحبي أحبهم، ومَنْ أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومَنْ آذاهم فقد آذاني، ومَنْ آذاني فقد آذى الله، ومَنْ آذى الله يوشك أن يأخذه[3]»**.

والأحاديث في ذلك كثيرة.

ولا يخفى أن الصحابة يتفاوتون في الفضيلة فليسوا فيها سواء، بل أفضل أصحابه ﷺ الأربعة المعبر عنهم بالخلفاء الراشدين، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

ويليهم في الفضل بقية العشرة المبشَّرين بالجنة، وهم: طلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، ثم أهل بدر، ثم أهل أحد، ثم أهل بيعة الرضوان.

وأفضل الأربعة: أبو بكر فعمر فعثمان فعلي.

ولذلك قال صاحب الجوهرة:

وَخَيرهـم مَـن وُلِي الخِلافَـة وَأمـرهم في الفَـضلِ كَالخِلافَـةِ

وقال السيد الشيخ أحمد الرفاعي ﷺ:

أي أولادي.. عظموا شأن أهل البيت، وكرّموهم، وبجلوهم، وإذا سمعتم أحدًا يقول في شأنهم أشياءً قبيحةً أنكروها، أو فاجعلوا أصابعكم في آذانكم، وذبوا عن أعراض

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره القرطبي في التفسير (١٣/٣٠٥).

(٣) رواه الترمذي (٥/٦٩٦)، وأحمد (٥/٥٤)، والبيهقي في الشعب (٢/١٩١).

الصحابة قاطبةً، وعليكم بمحبتهم ومدحهم، فإن هؤلاء القوم قد عفا الحق سبحانه عنهم، ولا يؤاخذهم بما جرى بينهم، وإنهم يتواهبون ويدخلون الجنة.

واعلموا أن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، رضي الله تعالى عنهم أجمعين، ولا يظن أحدٌ أن كل الصحابة سواء فهذا كفرٌ.

قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ [الحديد: ١٠].

فمن ردَّ آيةً من القرآن أو حرفًا منه فقد ردَّ القرآن، ومن ردَّ القرآن كفر انتهى.

هذا هو القول المشهور المنصور.

قال السعد: على هذا وجدنا السلف والخلف، والظاهر أنهم لو لم يكن لهم دليل على ذلك لما حكموا به، ولا يدرك دقائق التفضيل والترتيب إلا المشاهدون للوحي والتنزيل بقرائن الأحوال، فلولا فهمهم ذلك لما رتبوا الأمر كذلك؛ إذ كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عن الحق صارف.

ثم نبَّه سيدنا المؤلف على خوف الله تعالى، ونبَّه على التقوى، وختم نصيحته المباركة بقوله لخليفته الشيخ عبد السميع الهاشمي رضي الله عنهما: (أي أخي. أخذتني سكرة التعليم): يريد أن العلم له سكرة تأخذ الرجل من التواضع إلى التفاخر، وكان ذلك منه تواضعًا وانقيادًا للحق.

وأيَّد ذلك المقصد بقوله: (فاقبل نصيحتي؛ فإنها إن شاء الله نشأت بإخلاصٍ عن حبٍّ لك)، وتلا قول النبي ﷺ: «رُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه[1]».

وقال: (اعمل بنصيحتي، ولا تراني رجلاً)، انخلاعًا وتجردًا من النفس والأنانية، واعترافًا بأنه أضعف خلق الله الذين هم في مملكة الله إرشادًا للسالكين، وتنبيهًا للغافلين، وانقهارًا تحت سطوة العبودية، ووقوفًا عند حد المخلوقية، وتمسكًا بآثار النبي ﷺ.

فرضي الله عن هذا السيد الكبير، والعلم الشهير، وعن أسلافه الطَّاهرين، وأخلافه

---

(١) رواه القضاعي في الشهاب (٢/٣٠٧).

المكرَّمين، وعن ساداتنا أولياء الله أجمعين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

هذا وإني رأيت في ذيل نسخة الحكم الشريفة التي ظفرت بها، قصيدة جليلة للإمام شيخ الإسلام، علاَّمة الأنام، مولانا السيد الشيخ: سراج الدين المخزومي الرفاعي ﷺ (١) يمدح بها سيدنا المؤلف، أعزَّ الله مقداره، ورفع في الدارين مناره، فتشرفت بتخميسها إتمامًا للخدمة المبرورة، وطمعًا بهمته العلية المأثورة، وناهيك به بفضل الله من يزري بأجنحة الطواويس من به واهب الكرم، تكميلاً لشرف وليه الإمام أبي العلمين، المُعظَّم المحترم، وها هو:

يا سيِّدًا لاَذت بِهِ السَّادات ُ وتَزَيَّنت بمديحِهِ الأوقاتُ
لما انتهتْ بطريقِكَ النفحاتُ طَابَتْ بحضرةِ ذِكْرِك الوثباتُ
وبِهَا لحزبك صولةٌ وثباتُ

نبراسُ رشدك ظلمة الدعوى جلا وشرابُ صدقك كأسه معنى حَلاَ
شَاعَتْ مَآثِرُكَ الجليلةُ في الملاَ وظلال بابك يا رفاعي العلاَ
تسوح به تتنزل البركات

صح المديح بذِكْر خلقك والثنا وبه توصل أهل حبك للمنى
لك همة يجلي بها كل العنا ولك اليدُ البيضاء التي كُشفت لنا
سترًا لديه تسكب العبرات

أضحى هداك من الغواية مخرجًا وحماكَ من كدرِ النَّوازل ملتجا
أطلعت صبحًا للطريقةِ أبلجا وأخذت من لبِّ الشريعةِ منهجا
قصرت لعمرك بعده الخطواتُ

---

(١) من الفوائد التي تنقل عن هذا الإمام المحب والمدافع عن الأئمة قال: كان شيخنا شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني، وكذلك الشيخ تقي الدين السبكي ينكران على الشيخ محي الدين بن عربي في بداية أمرهما، ثم رجعا عن ذلك حين تحققا كلامه وتأويل مراده، وندمًا على تفريطهما في حقه في البداية، وسلَّما له الحال فيما أشكل عليهما عند النهاية. وانظر: الانتصار (ص٤٧١) بتحقيقنا.

أصـبحت بحـرًا لا يُـرد نـواله بـل طـود مجـد لا يُطـال مطاله
أحـرزت خلقًـا عـز قـدرًا حالهُ أرضـيت فـيه الله جـلَّ جَلالـه

ونصرت ما جاءت بهِ الآيات

أعطـيت عهـد الفضل من أعلى يدٍ بحـديث معجـزة صـحيح مسند
وأتـيت متنـصرًا لـسُنَّة أحمـد ومـضيت مقتفـيًا لأثـر محمـد

طوعًا لك الحركاتُ والسكناتُ

أتقـنت خدمـتهُ بحـسن نـيابة قامـت بـصدق عـزيمةٍ وإنابـة
ورفعـت رايـته بخـير عـصابةٍ فنظـرت مـنه بنظـرةٍ جذابـة

خرقت بها لك في الملا العَادات

سـحت علـيك بفـيضٍ وابل برها فجـرى ببحـرِ العـالمين وبـرها
وغـدوت منفـردًا خـزانة درهـا وسـرى بمتبعـيك نافـذ سـرها

تركتهُ في أحيائها الأموات

أكـرمت مـن طـه بكـف جنابهِ بـين القفـول مـذ التجأت لبابهِ
فلقمـته وعـرفت في أحـبابه نـور أراد الحـق أن تحـى بـه

رغمًا لمن فتكت به الظلمات

أضـمرت في قلـبِ الكمال دقيقة نقـشت علـى لوحِ الغيوب رقيقة
ومـذ اتـصلت إلى الإلـه حقـيقة أوضـحت يـا شيخ الوجود طريقة

سدت بغير سلوكها الطرقاتُ

قامـت علـى الـنهج القويم سوية أوردتهـا عـن أهلـها مـروية
وبهـا طـويت شـعائرًا نـبويةً ونـشرت فـيها رايـة علـوية

خضعت لرفعة قدرها الهامات

أودعـت قـدمًا نفحـة قدسـية وعطـيت مـن فيض الكريم عطية

ولبست جهرًا خلعة سبطية وجعلت من الانكسار مطية
جزمت بخلق ما لديه هنات

أحرزت بين القوم أعظم نعمة من خير مبعوثٍ لأكرم أمة
وغدوت مندوبًا لكل مهمة وسبقت كل العارفين بهمة
فتحت لوافد عزمها الحضرات

جاوزت هام النيرين برفعةٍ طارت بمسكنةٍ وساكب دمعة
وبرزت منتصرًا لأشرف شرعة وأكلت مائدة القبول بخشعة
ولكم أجاعت غيرك الشطحات

لله كم لك من ضياءِ سرسري في الكون حتى خافه أسد الشرى
يا قائد الحزبين يا عالي الذرى يا صاحب العلمين يا غوث الورى
طب إن رمسك عمه الرحمات

أعرضت خلقًا عن عسى وإلى متى وقطعت بالإخلاص صيفك والشتا
فشربت كأسًا عز أن يره فتى هذا جزاءُ الصَّابرين كما أتى
والقوم يا ابن المصطفى درجات

لك دولةٌ قامت بشأنٍ أوحدِ ومكانةٌ عظمت بطرز أمجد
يا خير منسوب لآل محمدِ أتقنت نهج الاتباع لأحمد
في المشربين وما عراك شتات

سدت الرجال بمظهر عنه الحمل قصرت رقابته وطالعك اكتمل
وجمعت بين العلم حقًا والعمل ولنا الأدلة في ثناك طباعك ال
حسناء والأحوال والكلمات

لك بانكسارِكَ للعواجزِ نهضةً زمر الخطوب بباها منقضة
لك ساحة هي التدلي روضة ولأنت معجزة لجدك محضة
وضَّاحة ما شابها الشبهات

أصلت سيفًا في الأعادي باترًا ورفعت ركنًا للأحبَّةِ عامرا
مُذْ نِلْتَ سرًّا للقيامةِ سائرًا ثبتت مناقبك الرجاح تواترا
لزماننا وبنفيها الإثبات

نعم الكرامات التي علت السها مجدا وكلل برد رونقها إليها
هي مثلما نطق الوجود بفضلها خرس بها أهل الجحود لأنها
فوق البداهة عندها مرقاة

برهان فضلك بالدلائل قد ثبت وعريق أصلك في السيادة قد نبت
وعزيز نفسك يا بن أفضل من قنت ذلت لسطوتك الأسود وما رأت
أن تحمها من بأسك الغابات

لما لبست من العناية حلة داويت من أتباع رشدك علة
والأسد حين أتتك تطلب خلة ربضت على أعتاب عزك ذلة
وكذلك الأنمار والحيات

فجميل مدحك مجمل ومفصل وجليل قدرك في الشيوخ مفضل
وبذكرك الشرف الرفيع مكمل والنار تخمد والسلاح معطل
لما بندبك تكثر الضجات

ما أم ساحة بحر فضلك ناقص إلا وكمله عطاء خالص
رجفت لباسك في الرجال فرائص الله أكبر إنما لخصائص
بيد النبي بها حبتك الذات

هذا مقام دونه هام العلا وشريف شأن مكة عم الملا
طبنا به والله والهم انجلى شكرًا لمولانا الذى أهدى إلى
تصديق من تمحى به الزلات

طه الذي شق السماء ركابه ورقا إلى الرحب الكريم جنابهُ

وهـي علـى كـل الـورى ميزابه وإلى طـريقتك الـتي هـي بابـهُ

وعليه عطر قبره الصلوات

وأجـل تـسليمات خـلاق المـلا تهمـي علـى مثواه ما الفجر انجلى

وتحـية عظمـى يـضيق لهـا الفلا والآل والأصـحاب والقـوم الأولى

وعليك ما هبت بنا النسمات

***

خاتمة لطيفة وتتمة شريفة

هذا ما يسَّره الله، وتفضل كرمًا منه وإحسانًا بتنسيقه، وحسن ترتيبه وتنميقه، من شرح الحكم الأحمدية والعُقود الجوهرية.

قد تمَّ والحمد لله هذا الشرح اللطيف، والتعليق الظريف، مشيدة دعائمه، ومرفوعة قواعده وقوائمه بيد العناية الإلهية، والمعونة الربَّانية، محفوف الجوانب، مصون الشأن ببركة سيد الإنس والجان أبي القاسم حبيب الرحمن ﷺ، وعلى آله سادات كل زمان.

وقد حسن تطريز عبائر هذا الشرح المنظم، بجواهر كلمات صاحب المتـن سيدنا الغوث المعظم والقطب الكبير المقدم، صاحب منقبة تقبيل يد النبي ﷺ شيخ المشايخ، ذي الشرف الباذخ والقدم الراسخ، الخاشع الخاضع، والمنكسر المتواضع، رب الخوارق الباهرة، والمدد الشهير، أبي العلمين سيدنا ومولانا السيد الشيخ أحمد الرفاعي الحسيني الكبير ﷺ، وعن سادتنا إخوانه أولياء الله أجمعين، وعن تابعيهم ومحبيهم إلى يوم الدين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

***

تقاريظ

هذا ما كتبه تقريظًا على هذا الكتاب المستطاب، الكاشف بشرحه عن وجه الحكم الأحمدية النقاب، جناب الهمام الفاضل، والعالم الرشيق الطبع الكامل، سليل السادة الأمجاد

الأفاضل، السيد نعمان خير الدين أفندي[١] نجل المرحوم، مفتي بغداد سابقًا العلامة الألوسي السيد محمود شهاب الدين أفندي[٢]، لا زال مع الحق في كل ما يضمر ويبدي:

ألا يَـــا طَالِـــبًا خـــير المـــسَاعِي وَرَائِـــد شَـــرع للهـــدي سَـــاعِي
إِذَا مَـــا شِـــئْتَ أَخْلاَقَـــا وَعِلْمًـــا فَـــلاَزِمْ كـــتب مَـــوْلاَنَا الرِّفَاعِـــي
فَإِنَّـــكَ قَـــدْ تَـــرى حكمًـــا وهديًا بـــبرهان غـــدا لله دَاعِـــي
وَقَـــدْ كَانَـــتْ مـــثَال الـــنجم بعدًا وشـــتت شملـــهَا بعـــد الـــبقاعِ
فقـــرب شملـــهَا جمعًـــا وشَـــرحًا كَمَـــا كـــشفت لـــنَا حـــير اللفاعِ

(١) هو أبو البركات، الواعظ الفقيه من أعلام الأسرة الآلوسية في العراق، ولد ونشأ في بغداد، وولي القضاء في بلاد متعددة. ترك المناصب، وزار مصر، وكان حنفي المذهب.
وسافر للأستانة فدرس بها، وحمل لقب رئيس المدرسين عامين.
وكان عقله أكبر من علمه، وعلمه أبلغ من إنشائه، وإنشاؤه أمتن من نظمه، وكان جوادًا وفيًا، زاهدًا، حلو المفاكهة، سمح الخلق. من كتبه: جلاء العينين في محاكمة الأحمدين: ابن تيمية والشيخ ابن حجر الهيتمي، والجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح، وغالية المواعظ، وصادق الفجرين في علي ومعاوية، وشقائق النعمان في الرد على بعض معاصريه.

(٢) هو الآلوسي الكبير محمود بن عبد الله الحسيني، المفسر، المحدث، الأديب، من المجددين، ولد سنة ١٢١٧ هـ، وتوفي ١٢٧٠ هـ ببغداد.
تقلد الافتاء ببلده سنة ١٢٤٨ هـ . وعزل ، فانقطع للعلم. ثم سافر (سنة ١٢٦٢ هـ) إلى الموصل، فالاستانة، ومر بماردين وسيواس، فغاب ٢١ شهرًا، وأكرمه السلطان عبد المجيد. وعاد إلى بغداد يدون رحلاته ويكمل ما كان قد بدأ به من مصنفاته، فاستمر إلى أن توفي رحمه الله.
من كتبه: روح المعاني في التفسير، ونشوة الشمول في السفر إلى اسلامبول، رحلته إلى الأستانة، ونشوة المدام في العود إلى دار السلام، وغرائب الاغتراب، ضمنه تراجم الذين لقيهم، وأبحاثًا ومناظرات، ودقائق التفسير، والخريدة الغيبية، شرح به قصيدة لعبد الباقي الموصلي، وكشف الطرة عن الغرة، شرح به درة الغواص للحريري، ومقامات في التصوف والأخلاق، عارض بها مقامات الزمخشري، والأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية، وحاشية على شرح القطر في النحو، والرسالة اللاهورية. ونسبة الأسرة الآلوسية إلى جزيرة (آلوس) في وسط نهر الفرات، على خمس مراحل من بغداد. وقد فرَّ إليها جد هذه الاسرة من وجه هولاكو التترى عندما دهم بغداد، فنسب إليها. ولصاحب الترجمة شعر لا بأس به وإبداع في الإنشاء. وقد أُلفت في ترجمته رسائل مفصلة. وانظر: الأعلام للزركلي (٣٣٣/٧).

شـــريفٌ لاَ تطاولــــه بـــدورٌ وشـــيخٌ مرشـــدٌ في اللهِ وَاعِـــي
وكـــيس مهجـــة فِـــي خيرِ صدرٍ وصـــدر لا يجـــاري فِـــي دفَـــاعِ
وذَاكَ أَبُـــو الهـــدى والفـــضل حقًّا جلـــيل مآثـــر وطـــويل بـــاعِ
فَـــلاَ زَالَـــتْ مَنَاقِـــبه بـــصحفٍ وأفـــواه لذيـــذات الـــسَّمَاعِ
وَطَـــالَ بَقَـــاؤه فِيْـــنَا دهـــورًا وَدَامَ مُعَاضِـــدًا للحـــقِّ رَاعِـــي

وهذا ما كتبه الجهبذ الجليل، والفضل النبيل، ثاني كتاب الحضرة السلطانية، حضرة صاحب العطوفة والأخلاق المرضية، السيد عبد القادر أفندي القدسي المكرم، لا زال مظهرًا للعز والنعم وهو:

لهجـــت بمـــدحك ألـــسن الشعراء وروى ثـــناءك زمـــرة الفـــضلاء
وضَـــجِيج أصـــوات المـــدائح والثنا مـــتجلجل في ســـاحة الغـــبراء
تـــأتي النـــشائد والقـــصائد ردفًـــا كقـــوافل الحجـــاج للـــبطحاء
تُـــثني علـــيك ذوو الفهوم بما درت ولأنـــت فـــوق ثـــنائهم وثنائـــي
مِـــن أيْـــن تَـــدري مَا يليق من الثنا وظهـــور فـــضلك في بطـــون خفـــاءِ
يَـــا نُخـــبة الأشراف يَا عَين الهدى يافجـــر صـــبح اللـــيلة الـــدهماءِ
أنْـــت الإمـــام الجـــد قدوة عصره ســـامي الفخـــار بنـــسبة الزهـــراءِ
فَـــرد الـــبرية مـــن رجال قد غدوا تَحـــت القـــباب وفـــوق كـــل سماءِ
روح الـــزمان أبو الهدى وابن الأولى الـــسادات أهـــل البـــيت والعلـــياءِ
ســـر لهـــيكل فانـــبرى بـــشرًا ولـــ كِـــن كَـــان فَـــوق تـــصور العقـــلاءِ
تغذيـــه روح القـــدس مِن نفحاتِها بمـــوائد العـــرفان والأنـــباء
ولَـــه الفـــتوحات الـــتي مِن فيضها سَـــحت نـــصوص الفـــضل كالأنواءِ
وقلائـــد تـــبدو لـــنا قـــد درهـــا ملكـــــية بـــــشرية الآراء
وقِـــلادة لمعـــت كضوء الشمس تف تـــح حـــضرة الإطـــلاق للعـــرفاءِ

أَبْدى بسلسلة النجاح فَواضِلاً ... قرشية مَا نال منها الطائي

ما شَاهدت عيناي قبلك فاضِلاً ... جليت لديه حقائق الأشياء

لما ورثت الأوصياء بخلقهم ... هر السناء مدارك النبهاء

ورفعت للبيت الرفاعي راية ... خفقت بثوب كرامة وتقاء

فلراعي العلمين خير خليفة ... في العصر يَبدو مِنك لِلخلفاءِ

ولأحمد الصياد خير سلالة ... منك ازدهت في البلدة الشهباءِ

أحييت علم الأوصياء ودونه ... ما جاءنا في نسخة الأحياءِ

ديوان فضلك في المعارف آية ... تدريه أهل السقط في البلغاءِ

وفرائد لك لا يغادر رمزها ... شيئًا من الأسرار للعلماءِ

وبروح حكمتك الجليلة هاطل ... ضاقت إليه مفاوز الإحصاءِ

وجميل أفعال وحسن صنائع ... تاج لهام محامد الكرماء

جمعت مزايا فيك أدناها ... جلت عن التحديد باستقراء

علم وحلم والتوكل والرضا ... فضل وجاه زينا بسخاء

تقوى وعرفان وجودة فكرة ... وكرامة وجلالة بسرواء

ونزاهة وبراعة وفصاحة ... وبلاغة وطلاقة بذكاء

وتواضع وتلطُّف وتودد ... وتعطف وترحم بإخاء

وخصائص معلومة للأصفياء ... خصصتها صرفًا بغير مراءِ

فليهن أهْل الدهْر مِنك بسيد ... ولتفتخر أهل النهى هناءِ

وأبقى لنا وأبوك فرد زمانه ... كَنز الحقائق مفخر الكبراءِ

ليث الكتيبة شَيخنا المولى الَّذي ... دانت لَه الأبطال في الهيجاءِ

عَالي السجايا ذروة الفخر الذي ... ما ناله إلاه في النظراءِ

دَومًا عَليّ الجَاه ركْن الملتجى ... بمحمد وبآله النجباءِ

وإلـــيكها قدريـــة قدســـية جـــاءت إلى علـــياك باســـتحياءِ
تُرجـي القـبول وتَرتجي من فضلِكم عَطفًـا بِـه أرجُـو حـصول مُنائي
والله يعلـم أنـني لِعبـيدكم وَمُـنَاي أنـتُم وانـتهاء رجائـي
وسَـحائب الرِضْوَان تغشي سَوحِكم سَـحًا بِكُـل صَـبيحَة وَمَـسَاءِ

تقريظ

قـال الشيخ محمد بن السيد عمر الحريري شيخ السجادة الرفاعية، بحماة المحمية، ابن سيد حسن الحريري الرفاعي:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله واهب الفضل عميم الإحسان، والصلاة والسلام على رسوله سيدنا محمد صفوة الخلق سيد ولد عدنان، الذي آتاه الله جوامع الكلم وبعثه بالفرقان، وعلى آله شموس الهداية بدور العرفان، الذين جعلهم الله تعالى أمانًا لأهل الأرض على مر الأزمان، وعلى أصحابه نجوم الاقتداء وأسود الميدان، ما تفجرت ينابيع الحكم على ألسن أهل العرفان، فطاب بشرحها الصدور وتنور بنورها الجنان، ورضي الله تبارك وتعالى عن سادتنا أولياء الله، أهل الذّوق والصفا، المتخلقين بأخلاق الرسول المصطفى، المقيمين على العهد بالصدق والوفاء، الذين نصَّ على فضلهم القرآن القديم، المكنون بقوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]

هُـم القَـوم مِن أصفَاهم الوِد مخلِصًا تمـسك مَـن أُخرَاه بِالسَّبب الأقْوَى
فَبغـضُهم كُفـر وَحَـبُهم هُـدى وَقُـربهم خَـير وَوِدُهـم تَقْـوَى

أمدَّنا الله تعالى بمددهم في الدنيا والآخرة، وعمَّنا والمسلمين من فيوضاتهم الوافرة آمين.

وبعد.. فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى محمد، ابن المرحوم السيد عمر الحريري شيخ السجادة الرفاعية، بحماة المحمية، ابن سيد حسن الحريري الرفاعي غفر الله ذنوبه، وستر بفضله عيوبه:

لما كان من أجلّ الحكم الدينية والدنيوية، وأكمل النصائح الجامعة لكل حالة مرضية، حكم مولانا وسيدنا ومفزعنا غوث الثقلين، قطب الخافقين، قرة عين جده الإمام الحسين، سلطان صدور الأولياء، صاحب المآثر الشهيرة، والمناقب العظيمة الخطيرة، أبي العلمين، مولانا السيد أحمد الرفاعي الكبير ﷺ، فهي حكم جليلة ما ظفرت يد الدهر بمثالها، ولا نسجت أنامل الزمان على منوالها، أبانت لكل إنسان طرق النجاح، وأوضحت له كيفية الوقوف عند حد البشرية بأجمل إيضاح، وحيث أنها جمعت من جوامع الكلم ما يدق دركه، ويعز على غير الراسخين فهمه وسبكه، أحب أن يشرح مضمراتها، ويحل مشكلات عباراتها، شبله الهمام، وسليله المقدام، وارث أسراره وأحواله، ومشيد آثاره، وناشر كماله، مجدد الطريقة، علم على الشريعة والحقيقة، صاحب السماحة والسيادة، الشيخ محمد أبو الهدى الرفاعي الصيادي الخالدي.

ليتضح لكل قارئ ما أودعه فيها هذا السيد الجليل من النصائح العميمة، والمعاني الرقيقة العظيمة، والمسالك الدالة على الله، والأخلاق المطلوبة للتعامل مع خلق الله، فكساها حفظه الله وحماه خلعة شرح كبردة الصبح المنير، أوضح ما تضمنته من الرقائق فانجلت مقاصدها لكل بصير.

وقد سماه: «قلائد الزبرجد على حكم الغوث الشريف مولانا الرفاعي أحمد»، فهَاكه كتابٌ خُطَّ بمداد المسك على صحائف اللجين، وجلى غشية الإشكال عن كل عين، فما أشبه لسان الفرع بالأصل، بل لا فرق بين اللسانين، وهذا القول الفصل وكم له غير هذا المؤلـف المبارك من كتب رائقة، وتآليف مفردة فائقة، سأذكر بعضها مع نذر يسير من ترجمة حاله؛ خدمة لجنابه الكريم، وذخيرة عند جده السيد السند العظيم، على أنه شيخي بطريق أسلافنا الطاهرين، وواسطة إلحاقي بسلسلة السادة الرفاعية العارفين رضي الله عنهم أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم على نبيه وآله الطاهرين

فهرس المحتويات

مقدمة التحقيق ٣
ترجمة المصنف ٩
ترجمة الشارح ١٧
صور المخطوط ٣٠
مقدمة الكتاب ٣٥
مقدمة صاحب الحكم ٣٩
الحكمة الأولى ٤٣
الحكمة الثانية ٤٤
الحكمة الثالثة ٤٩
الحكمة الرابعة ٥٧
الحكمة الخامسة ٦٤
الحكمة السادسة ٦٨
الحكمة السابعة ٧٠
الحكمة الثامنة ٩٠
الحكمة التاسعة ٩٤
الحكمة العاشرة ٩٦
الحكمة الحادية عشر ١٠٥
الحكمة الثانية والثالثة عشر ١٠٩
الحكمة الرابعة عشر ١١١
الحكمة الخامسة عشر ١١٢
الحكمة السادسة عشر ١١٣
الحكمة السابعة والثامنة عشر ١١٣
الحكمة التاسعة عشر ١١٧

الحكمة العشرون ١١٨
الحكمة الواحدة والعشرون ١٢٠
الحكمة الثانية والعشرون ١٢٣
الحكمة الثالثة والعشرون ١٢٦
الحكمة الرابعة والعشرون ١٢٧
الحكمة الخامسة والعشرون ١٢٧
الحكمة السادسة والعشرون ١٢٨
الحكمة السابعة والعشرون ١٢٩
الحكمة الثامنة والعشرون ١٣٠
الحكمة التاسعة والعشرون ١٣١
الحكمة الثلاثون ١٣٦
الحكمة الواحدة والثلاثون ١٣٧
الحكمة الثانية والثلاثون ١٣٧
الحكمة الثالثة والثلاثون ١٤١
الحكمة الرابعة والثلاثون ١٤٦
الحكمة الخامسة والثلاثون ١٤٧
الحكمة السادسة والثلاثون ١٤٨
الحكمة السابعة والثلاثون ١٦٢
الحكمة الثامنة والثلاثون ١٦٣
الحكمة التاسعة والثلاثون ١٦٤
الحكمة الأربعون ١٦٥
الحكمة الواحدة والأربعون ١٦٦
الحكمة الثانية والأربعون ١٦٨

الحكمة الثالثة والأربعون ١٦٩
الحكمة الرابعة والأربعون........................ ١٧١
الحكمة الخامسة والأربعون ١٧٢
الحكمة السادسة والأربعون ١٧٣
الحكمة السابعة والأربعون........................ ١٧٦
الحكمة الثامنة والأربعون ١٧٨
الحكمة التاسعة والأربعون........................ ١٧٨
الحكمة الخمسون ١٧٨
الحكمة الواحدة والخمسون ١٧٩
الحكمة الثانية والخمسون........................ ١٨١
الحكمة الثالثة والخمسون........................ ١٨٢
الحكمة الرابعة والخمسون ١٨٤
الحكمة الخامسة والخمسون ١٨٦
الحكمة السادسة والخمسون........................ ١٨٧
الحكمة السابعة والخمسون ١٨٩
الحكمة الثامنة والخمسون ١٩٣
الحكمة التاسعة والخمسون ١٩٥
الحكمة الستون........................ ١٩٨
الحكمة الواحدة والستون........................ ٢٠٣
الحكمة الثانية والستون ٢٠٦
الحكمة الثالثة والستون ٢٠٩
الحكمة الرابعة والستون ٢١٢
الحكمة الخامسة والستون........................ ٢١٥

الحكمة السادسة والستون ٢٢٠
الحكمة السابعة والستون ٢٢٦
الحكمة الثامنة والستون ٢٣٠
الحكمة التاسعة والستون ٢٣٢
الحكمة السبعون ٢٣٥
الحكمة الواحدة والسبعون ٢٤١
الحكمة الثانية والسبعون ٢٤٦
الحكمة الثالثة والسبعون ٢٥٣
الحكمة الرابعة والسبعون ٢٥٧
خاتمة لطيفة وتتمة شريفة ٢٧٦
فهرس المحتويات ٢٨٣

QALĀᵓID AL-ZABARJAD ᶜĀLĀ ḤIKAM MAWLĀNĀ AL-ǦAWṮ AL-RIFĀᶜI AḤMAD

by

Al-šayḫ Abū al-Hudā al-Ṣayyādi

Edited by

Aḥmad Farīd al-Miziyadi

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH

Beirut-Lebanon